

ظاہر و باطن

کما یعرفہ
کتاب عصرہ

ابراہیم الابیاری
أحمد کمال زک
أنور الجندی
جورجیو دیلا فیدا
رجاء النقاش
ریمون فرنسیس
سہیر القلماوی
شکری عیاد
شوقی ضیف
صوفی عبد اللہ
عبد الحمید یونس
عبد الرحمن صدقی
فرانسیسکو جابرلی
کامل زہیری
محمود تیمور
مہود امین العالم

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET



طہ حسین

کما یعرفہ

کتاب

عصرہ

تحية إلى طه حسين

محمود تيمور

أستاذنا «طه حسين» تبلور فيه أزكى تفحات النهضة العربية الحديثة ، من دعوات وهتافات في الوطنية والسياسة ، وفي العلم والدين . وفي الثقافة والأدب ، فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة : مصطفى كامل ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد وأشباههم القليلين . أولئك الذين أوقدوا نار الثورة ، وأضاءوا منار الحرية ، وحملوا لواء التقدم والتطور .. وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة في عصرنا الحاضر ، فما هو إذن بحاجة الى تعريف ، ومن يحاول ذلك فهو في الحق يحد من نطاقه غير المحدود ، وينفى أن يقرب الى الأنظار هذا الأفق البعيد ..

ولكنى مع ذلك يطيب لى أن أوجز تعريفه في بضعة عناصر :

- فكر مستقل ، وروح خيرة ، وصبغة فنان ..

وقد التأمت هذه العناصر في شخصية كمنت فيها بذرة النبوغ منذ البداية ، وظلت تؤتى ثمرها على الأيام ولا تزال

بالفكر المستقل استطاع « طه حسين » أن ييث في حياتنا العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه ، ويبحث فينا نزعة التجديد بأكرم ما تشير اليه ..

فحين شرع في مطلع حياته يدرس الأدب العربي كان أجلى مظهر له فيما درس انه لم يدعن لما تواضع عليه السابقون من آراء ، وما ساقوه من أحكام ، ولم يستسلم لما تعارف عليه معاصروه من طرائق البحث وأنماط طرائق التأليف . ومن ثم كان أول كتاب أخرجه — منذ نصف قرن — هو في الواقع أول كتاب في أدبنا العربي يدرس بيئة الأديب وشخصيته والمؤثرات التي اعتمدت فيه ، على هذا النهج الذي تجلى في كتاب « ذكرى أبي العلاء » ..

ثم توالى بحوثه ودراساته من بعد ، في النقد الأدبي ، وفي الإصلاح التعليمي ، وفي التوجيه الاجتماعي ، وفي التثقيف بوجه عام ، فكانت في جملتها مثالا عاليا لاستقلال الفكر ، وجدة الرأي ، وتميز الملامح الخاصة في كل ما يعبر به ، ويدعو اليه



وبالروح الخيرة مضى « طه حسين » يرسم لنفسه سلوكا انسانيا رفيعا ، لم يحد عنه حين جرى قلمه بتصوير الحياة والأحياء ، وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعي في أصالة وصدق

ولم يحد عنه كذلك حين تمرس بالمناصب : أستاذا وعميدا جامعيا ، ووزيرا ورجلا من رجالات الدولة له سلطانه ومشورته وتوجيهه في جلائل الأعمال ..

ان « طه حسين » فيما قرىء له من قول ، وفيما أثر عنه من عمل ، وفيما أسدى الى الناس من سعى ، انسان كبير القلب ، سمح النفس ، رفيف الشعور ، فلا غرو أن تلتف حوله القلوب ، وأن تألفه النفوس ، وأن يحوطه معاصروه بهالة وهاجة من مشاعر الحب والاعزاز ، سواء في ذلك من تلقوا عنه ، ومن قرءوا له ، ومن اتصلت أسبابهم بأسبابه ، ومن أفادوا منه على قرب أو على بعد

وأما صبغة الفنان في شخصية « طه حسين » ، فهي ميسم يطبع أعماله الأدبية جميعا ، حتى ما كان منها خالصا للبحث والدرس ، مما يفتقر الى

التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج ، وأغنى بتلك الصبغة فيه انه
لا يتناول موضوعا ، ولا يرسم صورة ، الا كان فيما يتناول وما يرسم
فنانا أصيلا ، يواتيه الخلق والابتكار ولا يكاد يخطئه أو يخلفه



وبهذه الصبغة التي استيرت له أصبح « طه حسين » أغنى كتاب
عصره عن أن يعلن اسمه بين يدي ما ينشر له . ذلك بأن أسلوبه طعما
ومذاقا . بل اللفظ والعبارة ، انما هو أسلوب أديب فذ ، ينفرد
بحصائصه ، ولا تخفى ملامحه ، هو أسلوب نابغة أدبنا العربي « طه
حسين » ..

عميد الأدب ومعجزة الأيام

عبد الرحمن صدقي

« عميد الأدب » لقب ارتضى العربى فى كل مكان أن يطلق فى عصرنا الحاضر على واحد دون غيره من الأدباء والأعلام ، هو الدكتور طه حسين ، تسليما بأنه الحرى بأن ينفرد به .. لأنه ليس بين الأدباء أبناء عصره ولداته ، من اجتمعت له فى طویل السنين مقوماته وصفاته .. فقد اجتمعت للدكتور طه حسين ثقافات عديدة لم يأخذها من الكتب وحدها ، ولكنه عاشها ! ..

● عهد الدراسة فى مصر ●

شهد الشاب طه حسين حلقات الدرس فى الأزهر سنوات « ١٩٠٥ - ١٩٠٨ » تلقى فيها على أكابر مشايخه علوم العربية بما فى ذلك شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك فى النحو ، ومعها سلم العلوم فى المنطق ، فضلا عن أصول الفقه الإسلامى ، وكان من أساتذته فى التوحيد الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وفى الأدب الشيخ سيد المرصفى ..

ثم ترك الدراسة الأزهرية الى الجامعة المصرية حيث الأساتذة المحاضرون من صفوة العلماء العرب الذين يجمعون الى وفرة محصولهم من الثقافة القديمة العربية سعة الاطلاع على الثقافة الحديثة الاوربية ،

فضلا عن نغمة صالحة من أعلام المشرقين لتعليم اللغات السامية والتعريف بالشرق القديم وتدريس تاريخ الفلسفة الإسلامية وتاريخ الفلك عند العرب وتاريخ تراث الأدب العربي على مناهج مستحدثة من البحث والتحقيق ..

وكانت تلقى في الجامعة المصرية دروس في الأدب الفرنسى ، كان الطالب طه حسين حريصا على حضورها بعد أن تعلم اللغة الفرنسية واستأنس في نفسه القدرة على متابعة ما يلقى بها على طلاب الآداب الأجنبية ..

وخرج طه حسين من هذه المرحلة بالباكورة الأولى من آثاره الباقية ، وهى رسالته « تجديد ذكرى أبى العلاء » التى نوقشت فى ١٥ مايو سنة ١٩١٤ ونال عليها أول دكتوراه منحتها جامعة مصرية

● عهد الدراسة فى الخارج ●

وعلى أثر ذلك تقرر إيفاده فى بعثة على نفقة الجامعة المصرية وتحدد لسفره يوم ٢ من أغسطس . فاعترضه نشوب الحرب العالمية فى ٢٨ مايو وتقدم الجيوش الألمانية فى زحفها على فرنسا حتى أوشكت أن تبلغ نهر السين متجهة الى العاصمة الفرنسية ، وكان قد بلغ من توقع دخولها باريس أن انسحبت الحكومة منها الى الجنوب (بوردو) فى ٢ سبتمبر ، تاركة أمر الدفاع عنها الى حاكم عسكري

لكن الطالب المصرى انتهز ما وردت به الأخبار بعد ذلك عن تمكن الجنرال « فوش » من وقف تفهقر الجند الفرنسيين والتحول بهم الى الهجوم ، والنجاح فى صد الجيوش المغيرة والحيولة بينها وبين التوغل فى فرنسا ، فسعى عضو البعثة الى اقناع أولى الأمر بالسماح له بالسفر ، ونجح فى سعيه ، وتقرر أن يسافر فى نوفمبر الى فرنسا ، على ألا يذهب الى باريس لقربها من ميدان القتال ، واعتاض عنها فى الجنوب من فرنسا بجامعة مونبلييه الشهيرة .

وفي مونبلييه ، عكف الشاب العالم العربى على اتقان اللغة الفرنسية ، والاختلاف الى الجامعة لحضور دروس فى الأدب الفرنسى والتاريخ الحديث فضلا عن دروس العلامة فوكو فى علم النفس . واتقضى عليه فى مونبلييه عام كامل واذا بالجامعة المصرية التى أوفدته تستدعيه ، لعجز فى مواردها ، فيضطر للعودة ، وبعد أشهر قلائل تتدخل جبهة عليا فى أزمة الجامعة وينصلح مركزها المالى

وسرعان ما يعود عضو البعثة الى فرنسا فى ديسمبر ١٩١٥ ، ولكنه لم يرج هذه المرة على مونبلييه بل قصد الى باريس والتحق بكلية الآداب بجامعة لها . وهنا درس ما يتصل بمصادر الحضارة الأوربية كالتاريخ اليونانى والرومانى وكان يدرس اللغتين فى الوقت نفسه - فضلا عن التاريخ الحديث ، وحضر دروسا فى علم الاجتماع على إميل دوركايم ، ثم على سليستان بوجليه ، وكلاهما فى مادته العلمية من الثقات ذوى الشهرة العالمية ، وقد عكف تحت إشرافهما على تحضير رسالته فى الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون ، وقال بها الدكتوراه فى يناير ١٩١٨ ..

والى جانب ما تقدم من الدراسات كان الدكتور طه حسين يدرس كذلك ، على أساتذة آخرين من الأعلام ، تاريخ العصور الوسطى عامة وتاريخ بيزنطة خاصة ، فضلا عن الأدب الفرنسى وفلسفة ديكاوت

فى أثناء ذلك كله كانت الحرب قد تحولت من حرب ميادين الى حرب خنادق ، فطالت حتى أملت ، فلما أهلت سنة ١٩١٨ كانت لم تنته بعد ولكنها كانت مشرفة على الانتهاء . وأما الدكتور طه حسين فقد كان جهاده العلمى كما رأينا على أشده طوال هذه الحرب العالمية

ولقد انتهت الحرب فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ ولم ينته جهاده الا فى يونيه ١٩١٩ ، وهو تاريخ تقدمه للحصول على دبلوم الدراسات العليا برسالة تتصل بالقانون المدنى الرومانى ، وقد كان عليه فى تأدية الامتحان الاستشهاد بالنصوص فى أصلها اللاتينى ، فأدى الامتحان على أتم نجاح ،

وحصل على الدبلوم بدرجة ممتاز .
وهكذا عاد الفتى المصرى يحمل - فوق ما حصله في بلاده قبل سفره - ما حصله بعد مغادرتها في بعثته من هذه الثقافات . كلها التي تزود بها من جامعات الغرب ، عائدا الى الوطن العربى لينفع بما حصله جميعا أبناء العروبة أجمعين

● العودة الى الوطن ●

وعلى أثر عودة الدكتور طه حسين الى الوطن عين أستاذا بالجامعة المصرية ، وكان أول ما تولاه تدريس التاريخ القديم (اليونانى والرومانى) .
وفي أثناء ذلك أخرج كتابه « الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها في المدنية » كما ظل ينشر في صحيفة الجامعة ما كان يلقيه على الطلاب من دروس في التاريخ القديم

وفي الوقت نفسه أخرج الى جمهور القارئ كتابا يجلو عليهم فيه صحفا مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان ، ثم اشترك في ترجمة كتاب « الواجب » تأليف جول سيمون عن الفرنسية ، وأعقبه بترجمة « نظام الأئينين » لأرسطو عن اليونانية ، ثم « روح التربة » تأليف جوستاف لوبون عن الفرنسية

وكانت في مصر وقتئذ حركة مسرحية ناهضة ، فأخذ على نفسه تبيين الوعى المسرحى بتعريف جمهورنا بروائع المسرح الفرنسى لتربية ملكة النقد عندهم ، فمضى ينشر كل شهر في مجلة « الهلال » ملخصا تحليليا لروائع المسرح الفرنسى مع التقديم لها والتعقيب عليها

كذلك رأى في عنايته بتثنية الشباب أن يرفع نصب عيونهم نماذج مثالية من نوابغ البشرية ليكونوا لهم بمثابة المرشد الهادى والقدوة الصالحة ، فطلع عليهم بكتابه « قادة الفكر » يستمتعون فيه بأمتع ما يكون من العرض الشائق لتلك الشخصيات ، ويتفنون منه بأضع ما يكون من التعرف الموجز الوافى بتلك الأفكار العميقة الشائعات

كما استفتح بابا للأدب خاصة لقراء الصحف بسلسلة أحاديثه في صحيفة « السياسة » عن الشعراء المجددين في العصر العباسي ، ومن بينهم بعض المجان العابثين باعتبارهم يمثلون من عصرهم بعض نواحيه ، فلا تكمل له صورة بغيرهم

● أزمة الشعر الجاهلي ●

ولما كان الدكتور طه حسين ، مع ولعه بالتراث القديم واحاطته به وحرصه عليه ، مولعا بالتجديد في دراسة هذا التراث ، مبتدئا بتحقيقه وتمحيص مصادره لينتهي الى اعادة تقييمه تبعا لما ينجلي من حقيقته ، فقد أصدر كتابه « في الشعر الجاهلي » متوخيا فيه أن يفسح المجالات لمختلف النظريات يأتي بها ، غير محاول التحيف من صراحها ، أو اشرائه غيره فيها للتخفف من تبعاتها ، وقد قامت القيامة على هذا الكتاب وصاحبه ، وكان عامل الحزبية المعارضة هو المحرك الأول لها . وقد هددت الوزارة القائمة يومئذ بالاستقالة ، فانتقل الحزب المعارض بالخصومة من البرلمان الى النيابة التي انتهت الى الحل الذي ينهي الأزمة ، وهو حجب الكتاب عن البيع في المكتبات

هذه الضجة التي أثارها هذا الكتاب من كتب الدكتور طه حسين ام تكن الأولى من نوعها ، فقد سبقتها منذ سنوات ضجة أخرى خرقاء من أجل كتابه « تجديد ذكرى أبي العلاء » اذ قدم أحد أعضاء الجمعية التشريعية سؤالا في الجمعية التشريعية ، مطالبا فيه بحرمان « طه حسين » من حقوق الجامعيين لأنه ألف كتابا فيه الحاد وكفر ، متناسيا ان ذلك الكتاب أجازته للدكتوراه ثلاثة من أئمة مشايخ الأزهر العلماء الذين لا يمكن أن يجترأ السائل أو غيره على التعرض لهم في دينهم أو علمهم بأدنى الشبهة وأيسر النكر

ولقد اتفق في ذلك الحين ان كان رئيس الجمعية التشريعية سعد زغلول ، فدعى صاحب السؤال الى العدول عن سؤاله ، بحجة أنه-

لا يسىء الى الجامعة الحديثة المقصودة بالاساءة وحدها ، بل الى الجامعة والأزهر جميعا ، فلم يكتب للضجة أن يطول عمرها ويندلع شرها في تلك المرة . أما في هذه المرة الأخيرة فقد كان للسياسة الحزبية فيها الشأن الأكبر ، اذ كان التطاحن بين الاحزاب على الحكم يستخدم فيه كل سلاح ، ولو كانت فيه الجناية على من ليس عليه جناح ، طالما امتد أثر الاصابة من قريب أو بعيد الى الحزب الآخر فنال منه ، وأخرج موقفه ، وزعزع استقراره وأفقده مكاته ..

● عميد الأدب ومعارك العمادة ●

ولم تكن هذه الأزمة التي مر بها الدكتور طه حسين لتفت في عضد الجامعة المصرية الشابة ، أو لتضعف من الروح الاستقلالية عندها ، فلقد أعلنت ارادتها عام ١٩٢٨ بتعيين الدكتور طه حسين عميدا للأدب فيها مكان العميد الفرنسي . وهنا تجددت الأزمة السياسية اذ كان الوزير في هذه الآونة من غير الحزب الصديق ، فرغب الى الدكتور طه حسين أن يستقيل .. وحسبا للأمر قبل الدكتور أن يستقيل بشرط اعتماد تعيينه أولا ، فعيّن يوما وقع فيه بعض الأوراق في الصباح ، وفي المساء قدم استقالته ، وأعيد تعيين العميد الفرنسي

فلما انتهت مدة العميد الفرنسي سنة ١٩٣٠ عادت الكلية فانتخبت الدكتور طه حسين عميدا للأدب ، ووافق على تعيينه وزير المعارف في الوزارة الجديدة . وبعد يومين طلب منه أن يستقيل من الحكومة ليصبح رئيس تحرير في جريدة الوزارة الجديدة وحزبها الجديد . فرفض وآثر البقاء عميدا للأدب ..

فنقمت الحكومة عليه وأضمرت له الحفيظة ، الى أن جاء يوم أرادت فيه الحكومة منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين ، فأبى عليها عميد الأدب ذلك حفاظا على مكانة الدكتوراه ، فاحتالت

الحكومة للخروج من حرج موقفها الى العدول عن كلية الآداب الى كلية الحقوق ..

ولكن هذا الموقف من عيد الأدب الدكتور طه حسين ترتب عليه نقله الى وزارة المعارف ، فنفذ الأمر ، ولكنه رفض أن يزاول عملا الا في كلية الآداب في الجامعة اذ كان تعيينه بها في صلب قرار انشائها

فلم يكن من رئيس الحكومة الا أن أحاله في ٢٩ مارس ١٩٣٢ الى التقاعد ..

كل هذا الذي رأيناه من اقحام السياسة الحزبية لنفسها في كل مكان ، هو الذي فتح الباب الذي كان منه مدخل الدكتور طه حسين الى الميدان السياسي ، واشتغاله بالكتابة الصحفية الى جانب العمل الأدبي ..

وتداولت على دست الحكومة هذه الوزارات الحزبية مرة بعد الأخرى . الى أن أعادته وزارة محايطة أستاذًا في كلية الآداب في ديسمبر ١٩٣٦ ، فلما خلا كرسى العمادة عام ١٩٣٨ انتخب عميدا ، واستمر في العمادة حتى مايو ١٩٣٩ ، ثم أعيد انتخابه ، فأبت الحكومة تعيينه ، فاضطر الى الاستعفاء من العمادة والبقاء أستاذًا

● العمادة والقيادة الادبية ●

وأخيرا في سنة ١٩٤٢ هادنه الدهر وصفت له الأيام ، فعين مستشارا فنيا لوزارة المعارف ومديرا لجامعة الاسكندرية معا . وفي هذه الفترة أسعدني الحظ بالاتصال الشخصي به والعمل معه في مكتبه ، الى أن أحيل ثانية للتقاعد في ١٦ أكتوبر ١٩٤٤ . ثم بعد خمس سنوات ونيف عاد لوزارة المعارف للمرة الأخيرة وزيرا ، فكان من مآثره أن قرر مجانية التعليم العام لايمانه بأن التعليم ضروري للناس ضرورة الماء والهواء

ومع هذه التقلبات جميعا ، ظل الدكتور طه حسين ، عند القارئين . أجمعين من أهل هذا البلد الأمين بل في الوطن العربي كله ، وفيما وراءه عند سائر المستشرقين ، معروفا باللقب الثابت « عيد الأدب » . وذلك

أن هذا اللقب حين أطلق على طه حسين ، لم يعد منحصرًا في المنصب ، بل قد تجاوزه الى ما هو أعم وأسمى ، حتى أن في الناس من كانوا يخاطبونه به وهو وزير ، بل انى لأحسبهم مخاطبيه بلقب العمادة لو أنه لم يجلس قط في كرسى العمادة . فالدكتور طه حسين يمت الى هذا اللقب بكل سبب ، فهو عميد الأدب بحكم دراساته الجامعية ، وبحكم ما تفرس به من الأستاذية ، وبحكم ما له من القدرة - رئيسا كان أو غير رئيس - على امتلاك ناصية الأمور وأزمته القيادية . ونختصر هذا جميعه بكلمة جامعة وهي روحه الجامعية . وهو كذلك عميد للأدب بما سطره على هامش السيرة النبوية ، وما جلاه في مرآة الاسلام من فضائل الاسلام ، وما استقصاه وحققه من تواريخ الخلفاء الراشدين العظام ، فضلا عن مؤلفاته الجمة في كل فن من الفنون الأدبية المعروفة في العربية ، وغير المعروفة الا في الآداب الغربية ، ثم ما خص به من الاستعدادات الشخصية لعقد أواصر المودة والتفاهم الفكرى بين الشرق والغرب ، وغير ذلك مما يمكن اختصاره في كلمتين وهما نزعة العربية الانسانية

ولما كان هذا اللقب ، لقب « عميد الأدب » قد بلغ من اشتهار الدكتور طه حسين به أن صار باجماع العالم العربى كله علما عليه ، فانا يحلو لنا هنا أن نشد بين يديه ما قاله أبو العتاهية في بيتيه المشهورين بعد التصرف في لفظ واحد منهما :

أته « العمادة » منقادة اليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح الا له ولم يك يصلح الا لها

وأما بعد هذه التحية المتواضعة التى نرفعها لعميد الأدب فى أوج مجده وعنفوان كهولته ، فانا نستأذن فى التحدث الى القراء عن وصفه لحدثاته فى كتاب « الأيام » ، ذلك الكتاب الذى اجتمعت كلمة القراء جميعا على انه من معجزات عبقريته ، بل أحبها اليهم وأشجأها فى نفوسهم ، وأقربها الى قلوبهم ..

● كتاب الأيام ●

قرأت كتاب « الأيام » لأستاذنا الدكتور طه حسين أكثر من مرة ، فما أحسست مرة أنه ترجمة حياة يرويها ، بل كان احساسى فى كل مرة انه حديث من يحدث نفسه وقد خلا بها يناجيها ويسترجع ماضيها

والكتاب هنا ، هو الكتاب الأول للأيام الذى نقصر القول عليه لضيق المقام . هذا الكتاب كلما تناولته لأقرأه — وأنا كثير القراءة له — لا ألبث أن أذهل عن حسى ، فأحسبني لا أقرأ ، وانما استرق السمع على نفس وصاحبها ، وهما يتناجيان ، ويتذاكران ما كان بحيث لا يسمعها انسان ..

فلا غرو اذا ألفيتنى — وأنا أقرأه — قابعا فى غرفتى ملتزما جلسنى ، وقد أمسكت أنفاسى ، مشفقاً أن أتحرك أدنى حركة أو تبدر منى كلمة ، فتنفوتنى لمحة من هذه الرؤيا أو ينقطع عنى وحي النجوى ، وأنا الذى لا أحرص على شيء حرصى على أن تتكرر تلك الذكريات فى جملتها وتفصيلها على عيني وسمعى وخيالى وذهنى جميعا .. تلك الذكريات الرائعة فى خصوصها وعمومها ، الشائقة فى مشاهدتها الواقعة ومواقفها المثيرة الفاجعة ..

● مأساة صبى ●

هذا الكتاب لا يكاد تنفتح دفتاه ، حتى يتراءى لنا بطله فى صباه ، وهو يجاوز التاسعة من عمره ، وقد انفلت من بيته الى الطريق قبل غيره مكفوف البصر فى حيرة من أمره

وهذه المأساة من مآسى الحياة ، أظهرنا عليها الكاتب — فى براعة وأى براعة — فى مستهل كتابه ، حين همس إلينا فى الابتداء بلفظ غنى بالايحاء ، يجمع فى تحفظه بين الحياء والكبرياء ، وهو قوله « لا يذكر » الذى جاء — كما يذكر القراء — فى أول عبارة انفرجت بها شفتاه ونطق بها غاه :

« لا يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه ، وانما يقرب ذلك تقريبا . واكبر ظنه ان هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم في فجره أو عشائه . يرجح ذلك ، لأنه يذكر ان وجهه تلقى في ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذى لم تذهب به حرارة الشمس . ويرجح ذلك لأنه - على جهله حقيقة النور والظلمة - يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورا هادئا لطيفا كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه . ثم يرجح ذلك ، لأنه يكاد يذكر انه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية ، وانما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه »

كذلك نرى صاحب الأيام عند استئناف الحديث عن الصبى كاشفا لنا عن تصاريف حياته ، يحرص كل الحرص على كلمة الابتداء لما فيها من الايعاء ، فلا يبرح يردد قوله « لا يذكر » في مواضعها المرة بعد المرة فى سائر كتابه ، ليردنا فى الفينة بعد الفينة الى ما ينبغى أن نظل فيه حتى النهاية ، ونعنى به ذلك الجو المبهم الذى يعيش فيه الصبى بطل الرواية

● القرية ودنياها ●

وطبعى بعد ما تقدم من تعريف صاحب الأيام بنفسه وهو صبى ، أن ينتقل الى التعريف بقرته . والمعروف أن قرته هى عزبة « الكيلو » التى يرجع اسمها الى كونها على مسافة كيلومتر من مدينة مغاغة . ولكن المؤلف الفنان لا يسميها ، لأن تحديدها يحد من خيال القارئ أولا ، ومن ناحية أخرى لأن المؤلف لم يرد لها قرية بعينها ، وذلك لتكون على هذا الوجه من الاطلاق ، ممثلة للقرية المصرية فى أواخر القرن الغابر عامة ، مذ كانت سائر القرى متشابهة لا تكاد واحدة تميز عن الأخرى بشيء فيها ..

وأيا كانت الحال ، فإن الصبى لم تبق له من هذه الآونة ذكرى واضحة يئنه ، فهو على حد قول المؤلف :

« لا يذكر من القرية الا ذلك السياج الذى كان يقوم أمامه من القصب ، والذى لم يكن بينه وبين باب الدار الا خطوات قصار . ويذكر ان هذا السياج كان يمتد عن شماله الى حيث لا يعلم له نهاية . وكان يمتد عن يمينه الى آخر الدنيا قريبا من هذه الناحية ، فقد كانت تنتهى الى قناة » ..

ومع ذلك ، فقد كان على الصبى أن يستكشف الدنيا هنالك ، بكل ما استطاع من وسيلة غير حاسة الابصار.. ولقد استكشفها .. استكشفها فى الدار وسط الأسرة فى مقامه بين والديه وبين اخوته الكثر ، فاستبان نوع ما كان من علاقته معهم ، ومع أمه وأبيه من قبلهم ، وما كان واجده عند هؤلاء وهؤلاء مع الاشفاق عليه من الاهمال المشوب بشيء من الازدراء ، لم يلبث أن أحس حقيقته ، ثم أدرك على الأثر علته التى لا ذنب له فيها ، فكان ذلك يسلمه حين يذكره الى الصمت العميق الحزين .. أما استكشافات الصبى خارج الدار ، فهو يذكر فيما يذكره منها :

● مع شاعر القرية فى المساء ●

« كان يحب الخروج من الدار اذا غربت الشمس وتعشى الناس ، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكرا مغرقا فى التفكير ، حتى يردده الى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم فى نغمة عذبة غريبة أخبار أبى زيد الهلالي وخليفة ودياب ، وهم سكوت الا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارون ويختصمون ، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغظهم بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف انشاده العذب بنغمته التى لا تكاد تتغير » ..

● مع العفاريت في الليل ●

ولم يكن الأمر عند الفتى مقصورا على ما كان يتولاه بنفسه من استكشاف للدنيا من حوله ، بل كان قد بلغ من وقوعه تحت تأثير ما كان يتردد على سمعه من أوهام أهل القرية ، ان استبدت به هذه الأوهام ، فكان اذا أخذ النوم في مرقد من الحجرة الصغيرة :

« لا يلبث أن يستيقظ والناس نيام ، من حوله اخوته واخواته يغطون فيسرفون في الغطيط ، فيلقى اللحاف على وجهه في خيفة وتردد لأنه كان بكره أن ينام مكشوف الوجه

» وكان واثقا انه ان كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف فلا بد من أن يعث به عفريت من العفاريت الكثيرة التي كانت تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه ، والتي كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب الناس ، فاذا أوت الشمس الى كهفها ، والناس الى مضاجعهم ، وأطفئت السرج ، وهدأت الأصوات ، صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطرابا وتهاكما وصياحا ..



« وكان كثيرا ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج ، ويجهتد في التمييز بين هذه الأصوات المختلفة ، فأما بعضها فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثا وكيدا . ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها لأنها كانت تصل اليه من بعيد ، انما كان يخاف الخوف كله أصواتا أخرى لم يكن يتبينها الا بمشقة وجهه ، كانت تنبعث من زوايا الحجرة نحيفة ضئيلة ، يمثل بعضها أزيز الرجل يعلو على النار ، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ينقل من مكان الى مكان ، ويمثل بعضها خشبا ينقضم أو عودا يتحطم

» وكان يخاف أشد الخوف أشخاصا يمثلها قد وقعت على باب

الحجرة فسده سدا ، وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر . وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة ، إلا أن يلتف في لحافه من الرأس الى القدم دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذا أو ثغرة . وكان واثقا أنه ان ترك ثغرة في لحافه فلا بد من أن تمتد منها يد عفريت الى جسمه فتتاله بالغمز والعبث . لذلك كان يقضى ليله خائفا مضطربا الا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه النوم الا قليلا »

هذه الغاية في تصوير ما كان يؤرق ليل هذا الصبي ويعذبه من الهول والترويع ، لم يشأ صاحب الأيام أن يمضى فيها الى أبعد من ذلك ، فيفسد بالاطالة أثرها ويبعث على الملالة منها ، ومن ثمة نراه ينهى كلامه عن عفاريت الليل الوهمية ، ليعرض علينا صاحب الوهم نفسه الذى كان مثار قلقنا وموضع رحمتنا ، وقد تجول بالنهار هو نفسه عفريتا في شغبه وعبثه بمن حوله وشيطنته ، ويحرص صاحب الأيام الحرص كله ، على ألا تفقد مع ذلك حينا للصبي وحدبنا عليه ..

● الصفار عفاريت النهار ●

كان الصبي يستيقظ مبكرا ، أو قل كان يستيقظ في السحر ، ويقضى شطرا طويلا من الليل في هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت ، حتى اذا وصلت الى سمعه أصوات النساء يعدن لبيوتهن. وقد ملأن جزارهن من القنأة وهن يتغنين « الله ياليل الله .. » عرف أن قد بزغ الفجر ، وأن قد هبطت العفاريت الى مستقرها من الأرض السفلى ، فاستحال هو عفريتا ، وأخذ يتحدث الى نفسه بصوت عال ، ويتغنى بما حفظ من نشيد الشاعر ، ويغمز من حوله من اخوته واخواته ، حتى يوقظهم واحدا واحدا . فاذا تم له ذلك ، فهناك الصياح والغناء ، وهناك الضجيج والمجيج ، وهناك الضوضاء التى لم يكن يضع لها حدا الا نهوض الوالد من سريره ودعاؤه بالابريق ليتوضأ . وحينئذ تخفت

الأصوات وتهدأ الحركة ، حتى يتوضأ الشيخ ويصلى ويقرأ ورده ويشرب قهوته ويمضى الى عمله فاذا أغلق الباب من دونه ، نهضت الجماعة كلها من الفراش وانسابت في البيت صائحة لاعبة حتى تختلط بما في البيت من طيور وماشية »

● التطور في القرية وحياتها ●

ولقد كره صاحب الأيام لنفسه وللقارىء أن تسير الأيام مطردة متشابهة كأنها من التكرار يوم واحد ، فأكثر من الانتقالات ، على نحو أشبه بالوثبات ، معتذرا عن ذلك بقوله عند انتقاله الأول :

« ولكن ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قل ذاكرة الانسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة ، فهي تتمثل بعض هذه الحوادث واضحا جلجا كأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شيء ، ثم تمحى منها البعض الآخر كأن لم يكن بينها وبينه عهد »



واستنادا الى ذلك يكتفى صاحب الأيام باللمحة التي سجل فيها صوت القرية وصورتها ذات يوم من الأيام العاشدة في حياته وحياتها ، ويقفز بالقارىء الى مثل ذلك ولكن في المرحلة الثانية . فيقول عن صبينا أنه يذكر السياج والمزرعة التي كانت تبسط من ورائه ، والقناة التي تنتهي اليها الدنيا ، ويذكر « سعيدا » الاعرابي الذي كان الناس يتحدثون بشره ومكره وحرصه على سفك الدماء ، وامراته « كوابس » التي كانت قد اتخذت في أنفها حلقة من الذهب كبيرة ، والتي كانت تختلف الى الدار وتقبل صبينا من حين الى حين فيؤذيه خزامها ويروعه ، فضلا عما كان من خوفه من كلاب العدوين . انه ليذكر ذلك :

« ولكنه يحاول أن يتذكر مصير هذا كله ، فلا يظفر من ذلك بشيء ، وكأنه قد نام ذات ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سياجا ولا مزرعة

ولا سعيدا ولا كوابس ، وانما وجد مكان السياج والمزرعة بيوتا قائمة وشوارع منظمة ، وهو يذكر كثيرا من الذين كانوا يسكنون هذه البيوت من الرجال والنساء ومن الأطفال الذين كانوا يعشون في هذه الشوارع ..

ثم هو الى جانب هذا يذكر في شيء من العجب انه كان يستطيع أن يتقدم يمينا وشمالا على شاطئ القناة دون أن يخشى كلاب العدوين أو مكر سعيد الأعرابي وامراته ، بل كان يقضى ساعات من نهاره على شاطئ القناة سعيدا مبتهجا بما سمع من نغمات « حسن » الشاعر يتغنى الشعر في أبو زيد ودياب ، وهو يرفع الماء بشادوفه ليسقى به زرعه على الشاطئ الآخر للقناة ..

كان الصبي يذكر هذا وأشياء أخرى الى جانب هذا ، ولكنه عاجز كل العجز ان يتذكر كيف استحالت الحال وتغير وجه الأرض من طوره الأول الى هذا الطور الجديد

● صور من الريف المصرى ●

ولو كان في مجال القول هنا متسع لنا لمضينا في عرض كتاب الأيام كله لوحة لوحة ، فهو وافر الغنى باللوحات الحية التي تمثل الريف المصرى .. لا في مشاهدته الخارجية كالطوابع البريدية الملونة (كارت بوستال) التي تقف في تمثيلها الأشياء عند القشرة الظاهرة التي يلمسها كل انسان ، بل الريف المصرى كما يصوره صاحب الأيام فيتجاوز ما أفاده من حسن الاستماع وأحاط به محفوظه ، الى النفاذ من كل شيء الى روحه ، فاذا الريف المصرى صورة وروحا تمثل في نفوسنا ، بفضل ما أوتيته صاحب ذلك القلم السحري من الحس المرهف الخفى ونظر البصيرة الكشفى ..

● صور عائلية ●

ولما كان الريف المصرى الذى يعنى صاحب الأيام به العناية كلها ، ليس هو الطبيعة فى الحقول أو القنوات والسواقي والجسور فى ذاتها ، بل البيئة الريفية من حيث أهلها رجالا ونساء وأطفالا وسائر ما يتعلق بهم ، فى مجتمعاتهم ، وفى خلواتهم فى دورهم وما بينهم وبين أنفسهم ، فائتا لا نحسبنا نخطئ اذا قلنا ان معجزة « الأيام » والآية الكبرى لصاحبها انما هى — قبل كل شيء — فى تصويره للشخصيات ، فضلا عن الجماعات ..

فأما الشخصيات ، فقد أخذ صاحب الأيام نفسه فى تصوير ما صورته من تلك الشخصيات أن يصورها عن الحياة ، فجاءت وفيها — مع عطف المصور الفنان ولطافة لمسه — قسوة الواقع نفسه

وقد يكون خير مصداق على ذلك الصورة التى رسمها لآبيه الذى كان أبا لثلاثة عشر من بناته وبنيه . لقد عرفنا فيها الأب الذى كان يرفق به ، دون أن يخلو هذا الرفق من شيء من الازدراء له اذ كان لا يحسن أن يتصرف فى الحياة مثل الآخرين . ولكن ذلك لم يكن يمنع الأب الكريم أن يصحح للصبي غلظه فى بعض الأحيان ، ويعلمه ما ينبغى فى صوت حزين . وهذا الأب لم يكن بالفقير ، الا أنه يعد على كل حال ضيق الموارد محدودها ، بالقياس الى ما كان يثقله من النفقات .. كان له — كما رأينا — أبناء كثيرون ، وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم ، وكان يشق عليه أن يؤدي نفقات ذلك التعليم ، فيستدين من حين الى حين ويثقل عليه أداء الديون ، فيطمع فى أن يزداد مرتبه ، وأن يتقدم درجة ، وأن ينتقل من عمل الى عمل . وكان يلتمس هذا كله عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة ، دون أن يتحقق الأمل . فلم يلبث الأب عندما بلغ صبيته التاسعة وانقطع عن الكتاب ، أن هدته طبيعته التقية العملية الى وجه للارتفاع بصيه الضرر ، فكان يطلب اليه أن يقرأ عنه « عديّة ياسين » توسلا به الى الله لأنه صبي ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين

الميزتين أثير عند الله رفيع المكانة عنده . « وهل يرضى الله أن يرد صبيا مكشوفاً حين يطلب اليه أمراً من الأمور متوسلاً بقراءة القرآن ؟ »



وهنا أيضاً اهتدى الأب بطبيعته التقية العملية فجعل للصبى على كل « عدية » أجراً : فأما العدية الصغرى فأجرها قطعة من السكر أو الحلوى ، وأما العدية الوسطى فأجرها خمسة مليات ، وأما العدية الكبرى فأجرها عشرة . فكان الصبى كثيراً ما يخلو الى نفسه ويقرأ سورة « يس » أربع مرات ، أو سبعا ، أو احدى وأربعين

وتقف من صورة الأب عند هذا الحد ، لتوسم الى جانبها صورة الجد ، وصورة الأم ، وتلك الأخت التى كانت تشفق عليه فلا تراه فى العشية خارج البيت الا وتدعوه الى الدخول فيأبى ، فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة وتعدو به الى حيث تنيمه على الأرض ، وتضع رأسه على فخذ أمه .. أو صورة الأخ الأزهرى بمكاته المستمدة من مكانة الأزهر الشريف العظيمة ، وما تزدهم به القاهرة من المساجد الجامعة وأضرحة الأولياء وفى مقدمتهم ضريح « سيدنا الحسين » وضريح أم العواجز « السيدة زينب »

وقد جاء ذلك الأخ الأزهرى لزيارة أسرته ، فكان من اكرام أبويه وحفاوة أهل قرية أن جعلوه الخليفة فى موكب مولد النبى ، حين أقبل ذلك اليوم المشهود الذى اعتادوا استقباله بتلك الزفة المشهودة . وكانت الحجة فى وقوع الاختيار على هذا الأخ من أخوة الصبى خليفة أنه أزهرى قرأ العلم بالأزهر ، وحفظ الألفية والجوهرة والخريدة . فلا جرم يضير حلم الصبى فى نومه ويقظته ، أن يصحب أخاه الأزهرى الى الأزهر فى عودته ..

هؤلاء وغيرهم ممن اتصل الصبى بهم ، وارتسمت فى ذهنه صورة لهم ، كان يودنا أن ننقل بعض ملامحهم من كتاب الأيام ولكن يحول دون ذلك ضيق المقام

● صور للتعليم في القرية ●

فلنكتفِ اذن من أسرة الصبي كلها بما نقلناه من صورة الأب باعتباره رب البيت ، وننتقل الى كتاب القرية الذي حمل الصبي اليه ليحفظ القرآن ، حتى تتمثل لنا صورة لما كان عليه التعليم في القرية وتتعرف شخصية سيدنا كما يصورها صاحب الأيام مستهلا كعادته بالاعتذار بأنه الصبي :

« لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده ، وان كان يذكر من حياته في الكتاب مواقف كثيرة ، منها ما يضحكه الآن ، ومنها ما يحزنه . ومما يذكره الصبي انه في ضحى يوم من الأيام وجد نفسه جالسا على الأرض بين يدي سيدنا ، ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع »

والقارئ لكتاب الأيام لا يمكن أن ينسى صورة « سيدنا » وهو في جلسته التي اتخذها على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة ، وقد وضعت على يمين الداخل من باب الكتاب ، حيث يمر كل داخل بسيدنا وقد خلع عباءته ، أو بعبارة أدق دقيته ، وجعلها في شكل المخدة عن يمينه يتكئ عليها ، وهو مخلوع النعلين ، متربعا على الدكة ينادى الصغار بأسمائهم ، وهو يتطلع كالمبصرين اليهم ، مع أنه مكفوف البصر الا من بصيص ضئيل جدا من النور في احدى عينيه ، يمثل له الأشباح دون أن يمكنه من تمييزها . ولكنه كان يخدع نفسه ، ويظن أنه يخدع من حوله . بيد أن ذلك لم يمنع سيدنا من أن يعتمد في طريقه الى الكتاب والى البيت على اثنين من تلاميذه ، يبسط ذراعه على كتفى كل واحد منهما ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا ، وقد أخذوها على المارة حتى ليتنحي المارة لهم عنها

وكان منظر سيدنا عجبا في طريقه الى الكتاب والى البيت صباحا ومساء . كان ضخما بادنا ، وكانت دقيته تزيد في ضخامته ، وكان كما

قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه ، وكانوا ثلاثتهم يمشون وكأنهم
ليضربون الأرض بأقدامهم ضربا . وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه
المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتا ، ذلك أنه كان يحب الغناء ، فكان يغنى
ويأخذ رفيقيه بمصاحبه حينا ، والاستماع له حينا آخر . وكان سيدنا
يعجبه الدور أحيانا ويرى ان المشى لا يلائمه فيقف حتى يتمه .. !



ولسيدنا هذا أكثر من حكاية مع الصبي وأسرته بين احتفاله واهماله
في تحفيظه القرآن ، وما جر اليه ذلك من المآسى والمهازل

وتختفى عن ناظرنا صورة سيدنا ، ليطالعنا صاحب الأيام بصورة
أخرى لشخصية أرقى من مشايخ البندر : شخصية قاضى الشرع الذى
كانت الدكة التى يجلس عليها فى المحكمة مرتفعة قد وضعت عليها
الطنافس والوسائد ، لا تقاس اليها دكة سيدنا . وليس حولها فعال
مرقعة . وكان على بابه رجلان يقومان مقام الحاجب . والى هذه المحكمة
كان يذهب صبينا فى كل صباح ، ليقرا على القاضى بابا من أبواب
الألفية . وكم كان القاضى يحسن القراءة ! وكم كان صوته يتهدج بقول
ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم

ويأتى بعد القاضى الشرعى شخصية امام المسجد ، المعروف بالتقى
والورع ، ولذا كان أهل القرية يتركون به ، ويلتمسون عنده شفاء
مرضاهم وقضاء حاجاتهم ، حتى أصبح يرى فى نفسه شيئا من الولاية ،
والى جانب أولئك العلماء الرسميين علماء غير رسميين ، ومن هؤلاء ذلك
الخطاط المتصل بشيخ من كبار أهل الطرق ، ومن هنا ازدراؤه العلماء
لأنهم يأخذون علمهم لا من الشيوخ مثله ، « فهو يرى أن العلم الصحيح
انما هو العلم الذى يهبط على قلبك من عند الله . دون أن تحتاج الى
كتاب ، بل دون أن تقرأ وتكتب »

ومن هذا القبيل شخصية هذا الشيخ الآخر الذى كان لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يحسن قراءة الفاتحة ، ولكنه شاذلى من أصحاب الطرق ، فكان يجمع الناس للذكر ، كما كان يقعد اليهم ليفتيهم فى أمور دينهم ودينهم ..

● لوحات حية لحياة الجماعات ●

وأما تصوير صاحب الأيام للجماعات ، فانه يمتاز بالحركة امتيازاً يقل نظيره . والى هذه الميزة يرجع ما نحسه من فرط الحيوية فى تلك اللوحات التى يصور فيها الجماعات . وليس أكثر من الشواهد على ذلك فى كتاب الأيام ، ومنها هذه اللوحة التى تصور لنا اختيار الخليفة فى موكب المولد النبوى الذى سبقت اليه الإشارة

« لقد ظفر أخوه الأزهرى بهذه المكانة الممتازة فى نفس أبويه وأخوته وأهل القرية جميعاً . ألم يكونوا جميعاً يتحدثون بعودته قبل أن يعود بشهور ؟ حتى اذا جاء أقبلوا عليه فرحين مبتهجين متلطفين ؟ ألم يكن أبوه الشيخ يشرب كلامه شرباً ويعيده على الناس فى اعجاب وفخار ؟ ألم يكن أهل القرية يتوسلون اليه أن يقرأ لهم درساً فى التوحيد أو الفقه ؟ وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل اليه ملحاً مستعطفاً مسرفاً فى الوعد ، باذلاً ما استطاع وما لم يستطع من الأمانى ، ليلقى على الناس خطبة الجمعة فى هذا اليوم المشهود ، يوم مولد النبى ؟ ..

« ماذا لقى الأزهرى من اكرام وحفاوة ، ومن تجلة واكبار . كانوا قد اشتروا له ققطانا جديداً ، ومركوباً جديداً ، وكانوا يتحدثون بهذا اليوم وما سيكون منه قبل أن يظلمهم بأيام ، حتى اذا أقبل هذا اليوم واتتصف الأسرة الى طعامها فلم تصب منه الا قليلاً ، ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة ، واتخذ فى هذا اليوم عمامة خضراء . وألقى على كتفيه شالاً من الكشمير ، وأمه تدعو وتتلو التعاويذ ، وأبوه

يخرج ويدخل جذلا مضطربا . حتى اذا تم للفتى من زيه وهيئته ما كان يريد ، خرج فاذا فرس ينتظره بالباب ، واذا الرجال يحملونه فيضعونه على السرج ، واذا قوم يكتنفونه من يمين ومن شمال ، وآخرون يسمعون بين يديه ، وآخرون يمشون من خلفه واذا البنادق تطلق في الفضاء ، واذا النساء يزغردن من كل ناحية ، واذا الجو يتأرجح بعرف البخور ، واذا الأصوات ترتفع متغنية بمدح النبی ، واذا هذا الحفل كله يتحرك ببطء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور ، كل ذلك لأن هذا الفتى قد اتخذ في اليوم خليفة ، فهو يطاف به في اندينه وما حولها من القرى في هذا المهرجان الباهر ..

ومثل هذه الحركة نجدها في مواضع عدة من كتاب الأيام ، كما في الفقرة « ١٥ » التي تصور مشايخ الطرق في الريف المصرى . وهى من اللوحات التي نجد فيها ألوانا مما عند صاحب الأيام من الفكاهة الباسمة حيننا الناقمة في معظم الأحيان ..

● في الغلام مع الياس والاحزان ●

على أننا نجد الحركة على أشدها في تصوير المشاهد المروعة ، كمحاولة الصبى الضرب قتل نفسه من فرط يأسسه على قفاه ، وهى — كما رسمها صاحب الأيام الفنان — صورة تجمع بين الفاجع الرهيب والمضحك الغريب . أما الحركة في تصوير وقائع الارزاء فهى عنيفة فاجعة حقا ، مثل وفاة الطفلة أخت الصبى الصغرى في اليوم الرابع من مرضها ، وهو اليوم الذى عرفت فيه الأم ان شبحا مخيفا يحلق على هذه الدار التى لم يكن الموت قد دخلها من قبل

وأعنف من ذلك وأفجع ، فجيلة الأسرة أجمع فيمن يعدثونه بين سائر الولد بمثابة واسطة العقد عند اصابته بالكوليرا الوافدة عام ١٩٠٢ ووفاته على الأثر في الربيع الثامن من عمره يوم ٢١ أغسطس . وهذا

التاريخ لم يرح مذكورا عند الصبي حتى يومنا هذا على نحو ما هو مذكور في كتاب « الأيام » ..

« ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيرا تاما ، عرف الله حقا ، وحرص على أن يتقرب اليه بكل ألوان التقرب ، بالصدقة حينا وبالصلاة حينا آخر وبتلاوة القرآن مرة ثالثة . ولقد ذكر الصبي ان أخاه كان في الثامنة عشرة من عمره ، وكان الصبي يستمع من الشيوخ ان الصلاة والصوم فرض على الانسان متى بلغ الخامسة عشرة ، ولما كان أخوه من أبناء المدارس وأكبر الظن أنه كان يقصر في أداء واجباته الدينية ، فقد قدر الصبي في نفسه ان أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة أعوام كاملة ، ففرض الصبي على نفسه ليصلين الصلوات الخمس في كل يوم مرتين ، مرة لنفسه ومرة لأخيه ، وليصومن من السنة شهرين شهرا لنفسه وشهرا لأخيه ، وليكتمن ذلك عن أهله جميعا ، وليجعلن ذلك عهدا بينه وبين الله خاصة . وشهد الله لقد وفي الصبي بهذا العهد أتسهر ، وما تغيرت سيرته هذه الا حين ذهب الى الأزهر »

● في القاهرة ●

ويروى لنا صاحب الأيام خبر صبينا وقد هبط القاهرة مع أخيه الأزهرى ليدرس في الأزهر ، وقد أبى أن يدرس الا ما يدرسه أخوه ليكون مثله في نظر أبيه وأهل قريته . فأراد أخوه أن يدل على امتيازه فقال له :

« ستذهب معي الآن الى مسجد كذا ، وستحضر درسا ليس لك وانما هو لي ، حتى اذا فرغنا من هذا الدرس ذهبت بك الى الأزهر »

فسأل الصبي : « ومن الشيخ الذي سأحضر درسه قبل الذهاب الى الأزهر ؟ » ..

قال أخوه : « هو الشيخ .. »

وكان الصبى قد سمع اسم الشيخ .. ألف مرة ومرة . فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم ، ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضيا للاقليم . وكان أبو الصبى يسأل ابنه الأزهرى كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه . وكان ابنه الأزهرى يحدثه عن الشيخ ومكاته في المحكمة العليا وحلقته التي كانت تعد بالمئات .. كان الصبى اذن يعرف الشيخ وكان سعيدا بالذهاب الى حلقته والاستماع له



وكم كان مبتهجا حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصى ثم على الرخام ثم على البساط الرقيق الذى فرش به المسجد وكم كان سعيدا حين أخذ مكانه فى الحلقة على هذا البساط الى جانب عمود الرخام الذى لمسه فأحب ملامسته . وأطال الصبى التفكير فى قول أبيه : « انى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك صاحب عمود فى الأزهر » ..

وفيما هو يفكر فى هذا وللطلاب من حوله دوى غريب أحس أن هذا الدوى يخف ثم ينقطع ، وغمزه أخوه بيده قائلا فى صوت خافت : « لقد أقبل الشيخ »

اجتمعت شخصية الصبى كلها حينئذ فى أذنيه وأنصت : ماذا يسمع ؟ يسمع صوتا خافتا هادئا رزينا ملؤه شىء قل انه الكبر أو قل انه الجلال أو قل ما شئت . ولكنه شىء غريب لم يحبه الصبى

ولبت الصبى دقائق لا يميز ما يقول الشيخ حرفا ، حتى اذا تعودت أذناه الشيخ وصدى المكان ، سمع وتبين وفهم . وقد أقسم بعد ذلك انه احتقر العلم منذ ذلك اليوم
سمع الشيخ يقول :

« ولو قال لها أنت طالق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو انت طلاة وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ

يقول ذلك متغنيا به مرتلا له ترتيلا فى صوت لا يخلو من حشجة ،

لكن صاحبه يحتال أن يجعله عذبا ثم يختم هذا الغناء بهذه الكلمة التي أعادها طوال الدرس : « فاهم يا أدع » هذا ما هو ؟

حتى اذا أتصرف عن الدرس سأل أخاه : « ما الأدع ؟ » فقهقه أخوه وقال : « الأدع الجدع في لغة الشيخ »

ومضى به أخوه بعد ذلك الى الأزهر فقدمه الى أستاذه الذي علمه مبادئ الفقه والنحو سنة كاملة

وهكذا ختم صاحب الأيام الجزء الأول من كتاب « الأيام » بهذه الخاتمة المتهكمة ، أو على الأصح هذه الضحكة المكتومة المتفجرة ، ساخرا بهذا النوع من العلم الذي يتعالم به ويلقنه لعشرات المئات من طلاب العلم بعض من اشتهروا من المشايخ الأكابر من علماء الجيل القديم ، ولم تكن هذه الضحكة التي ختم بها صاحب الأيام كتابه بالضحكة التي ذهبت في الهواء ، بل كانت ايذانا بالثورة العارمة على الجمود والرجعية ، واعلانا للحركة التقدمية في بلاده العربية وانضماما الى ركب الحضارة العالمية ، وتأيدا للمنهج العلمي الذي يحمل مشاعل النور ويطلق الحرية للفكر والضمير ..

● صاحب الأيام يحيى ملاكه الحارس ●

وبعد هذا كله ، وبالتحديد في يونية عام ١٩٢٧ ، ينصرف عميد الأدب الى ابنته وهي في التاسعة من عمرها ، ليظهرها على حياة أبيها وهو في سنها ، وما عاناه من جهاد شاق في صباه للتغلب على ما ابتلى به من عوائق في نفسه ، من عجز في بصره وضعف في بدنه ، وما ابتلى به من عوائق في بيئته الريفية ، من سيادة الأمية ، وغلبة الجهالة على المعرفة العلمية ، وتسلب الخرافة على الدين ، وغير ذلك مما أتى كتابه على وصفه ، مختما بقوله :

« كذلك كان يعيش أبوك . فان سألتني كيف انتهى الى حيث هو الآن ؟ وكيف أصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدرية ؟ وكيف

استطاع أن يهيب لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية؟ .. وكيف استطاع أن يثير في نفوس كثير من الناس ما يثير من حسد وحقد وضغينة؟ وإن يثير في نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه واکرام له وتشجيع؟ إن سألت كيف انتقل من تلك الحال الى هذه الحال ، فإن أستطيع أن أجيبك ، وانما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هذا الجواب ، فسله ينبئك ..

« أتعرفينه ؟ أنظرى اليه ، هو هذا الملك القائم الذى يحنو على سريرك اذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك اذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج . أأست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار .. لقد حنا يا بنتى هذا الملك على أيبك فبدله من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا ..

« ليس دين أيبك لهذا الملك بأقل من دينك ، فلتعاوننا يابنتى على أداء هذا الدين ، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان »



هذا أيها القارئ كتاب « الأيام » الذى قرأناه منذ طويل السنين ، ولا نزال نقرؤه كل حين ، كما لا يزال يقرؤه أبناؤنا من بعدنا ، ومن بعدهم أبناء أبنائنا وأحفاد أحفادنا الى يوم الدين ، وهو فوق ذلك قد ترجم الى كل لسان ، وعكف على قراءته الملايين فى معظم أقطار الأرض . والحق أنه يستحق كل هذا وأكثر من كل هذا . فهو عندنا معجزة فى كل شيء : فى لغته التى لا يعدل بلاغتها غير بساطتها ، وفى صدقه المطلق فيما يرويه عن قريته وأهل قريته والمدينة المجاورة لقريته ، بل فيما يتصل بذويه حتى أمه وأبيه ، ومن فوق هؤلاء أجمعين فيما يتعلق بذات نفسه . وأخيرا وليس آخرا ، ذلك الاحكام فى البناء الهندسى للقصة ، والقالب الفنى الذى اتسقت فيه الفصول ، وانصب فيه سياق الكلام ، حتى بلغ الكتاب بذلك كله حد الكمال والتمام

أستاذى طه حسين

د. سهير القلماوى

أسبوع فاصل فى حياتى . ما زلت أذكر أحداثه وأستعيد
الاحساسات التى مرت بى فيه ، فأحسها وكأن دوافعها
وأسبابها ما زالت قائمة . كان ذلك الأسبوع فى شهر سبتمبر
عام ١٩٢٩ ، وكنت قد قدمت أوراقى وعانيت كثيرا فى جمعها وترتيبها .
وسلستها لمسجل كلية العلوم فى الجامعة المصرية - كما كانت تسمى اذ ذاك -
وكنت كلما سألت عما تمَّ فى شأنها يقال لى : « ان العيد الأستاذ
« بانجهام » لم يعد بعد من اجازته ليفصل فى أمرها » ..

وفى أوائل الأسبوع المشهود . علمت بوصول عيد كلية العلوم الذى
كان سيقبلنى فى السنة الأولى أو الاعدادية لكلية الطب أو لايقبلنى .
كان بيده فيما كنت أتصور أن يفتح أمامى أبواب مستقبل ظلت أحلامه
تداعبنى منذ استطعت أن أتطلع الى المستقبل حاملة مؤملة . ولكن
الأستاذ الانجليزى - سامحه الله - عاد وقرر عدم قبولى طالبة فى الكلية ..
واستعجبت بناظرة مدرستى الثانوية وطلبت من العيد موعدا وكانت
مقابلة تاريخية فى حياتى دار فيها الحديث على هذا النحو :
- اعقد لى امتحانا فاذا لم أنجح بشانين فى المائة على الأقل لا تقبلنى ..
- ليس من سلطتى عقد امتحانات على هذا النحو ..

— اقبلنى تحت التجربة فاذا لم أنجح آخر العام بهذه النسبة فافصلنى ..

— آسف .. ليس فى القوانين ما يخول لى ذلك .. يا آنسة باختصار كل ما أقدمه لك فى حدود القانون انى أستطيع أن أستقبلك فى معامل الكلية باحثه حرة هاوية !

وانتهت المقابلة .. وقالت ناظرتى :

— ليس أمامك الا السفر الى الخارج
قلت :

— لن يسمح لى والدى بالسفر وأنا فى السابعة عشرة من عمري ..
ومرّ يوم ويومان لم أفتر ولم أن .. وطرقت كل باب . وجاء قريب لنا كنت أخاطبه بخالى لأنه أخ لخالتى فى الرضاع وقال :

— كل مجلس الجامعة كان يعطف على طلبك ولكن العيد الانجليزى هدد بالاستقالة اذا قبلت طالبة فى كلية الطب

وقبل أن أضيع فى عالم اليأس والحزن قال :

— ما رأيك .. نزور الدكتور طه حسين فى بيته فهو صديقى ونسأله المشورة ؟ ..

قلت :

— أى شىء الا أن أمكث فى البيت وأتزوج برجل لا أراه الا بعد كتابة العقد كما فعلوا بأختى ..

كنت أقرأ لأبى بعد أن ضعف بصره مقالات طه حسين ، والعقاد ، وهيكىل ، وكان — رحمه الله — يصلح من لغتى ويهذب من لهجتى ويعلمنى الاعراب ، ويحيلنى الى كتبه لأقرأ مزيدا من شعر وثر عربيين قديمين .. ولكنى لم أكن أحب من كل هذا شيئا .. كنت بكل ما فىء أسعى لأن أكون طبيبة ، وكان تفوقى فى العلوم والرياضة تفوقا أثار اعجاب مدرساتى هو الذى برر عندى هذا الاندفاع فى أسمى الأكر . كنت أكاد أعبد أبى

وكان أبى جراحا من طراز فريد وكانت سعادتى فى أن أناوله شيئا فى عيادته وأحس أنى أعاونه طيبا ..



ذهبت الى منزل طه حسين فى مصر الجديدة . قرب دير للراهبات هناك . وأحسست بالخشية والخوف . وزاد خوفى لما وجدت فى غرفة الاستقبال زوارا لا أعرفهم . ولكن خالى همس يشجعنى وما أن خلت الغرفة قليلا حتى بسط لظه حسين قصتى فاذا هو يعرفها واذا هو يقول :
— ماذا عليك ، أنا أقبلك فى كلية الآداب وفى قسم اللغة العربية وستجدين بغيتك من التشريح فى شعر جرير والفرزدق ..

وضحك ولم أفهم شيئا ..
ماذا ! قسم اللغة العربية ! انه انتحار لأنى قطعاً سأرسل وأرسل الى ما شاء الله . قال :

— ماذا ؟ ألا يعجبك أن أدرس لك ..
والتفت وأنا كمن خرج من بئر عميقة ، وقلت فى تلثم :
— أبدا .. هذا شرف .. شرف كبير
وضحك فى حنان عجيب وأحسست من وراء ضحكه روحا حلوة وقارته بسرعة بأبى فاذا فيه الكثير منه . ودار كلام كثير وأنا أحاول أن أتم شتات نفسى ، وأن أتبين ماذا أنا مقدمة عليه .. ورثت كلماته :

— غدا فى كلية الآداب الساعة العاشرة موعدا .. اتفقنا ..
منذ ذلك اليوم ولطه حسين فى حياتى منزلة الأب الروحى بكل معانى الكلمة . هو الذى أحال يأسى أملا وهو الذى شجعنى وأنا خريجة مدرسة درست فيها كل علومى بالانجليزية على أن أتخصص فى اللغة العربية . ما شكوت له عسرا حتى أحاله فى حنان الوالد الى يسر ..
— النحو عسير يا أستاذى ..

— لا عليك .. الأستاذ ابراهيم مصطفى سيعنى بذلك ..
وأتلذذ عن قرب للاستاذ الكريم — رحمه الله — فيقول :

— لو كانت درجتك على قدر المجهود الذى بذلته لاستحققت مائتين من مائة ولكن بالمقارنة بأقرانك درجتك دون المائة بكثير .. لا تياسى ستصلين حتما ..

وأواصل الدرس وأتصدر الناجحين نحوطنى رعاية أساتذتى جميعا وطه حسين وحده له مكاتته الخاصة ..

ولكن أستاذية طه حسين لم تكن عطفًا ورعاية كلها ولم تكن دفعة قويا نحو المثل الأعلى عن طريق اللين دائما وانما كان يأخذنا ويأخذنى أنا أكثر من غيرى بالشدة أحيانا ..



أذكر فى أول عام وأنا أتهيب كل شئ حولى فقد كنت الطالبة الوحيدة فى القسم كله ، أنه طلب الى أن أقرأ بحثى على الطلبة لناقشه .. وتلعثمت أولا . ثم راحت رهبة البداية واستمررت . وكان البحث عن « طرفة بن العبد » وقلت :

— أنا لا يعنينى أن يكون طرفة بن العبد جاهليا أو اسلاميا أو حتى محدثا ما دام شعره هو هذا الذى أجد فيه متعة متجددة لأنه يصور النفس الانسانية ، ورد فعل فكرة الموت المحتوم فى نفس شاب مغامر فى الحب والحرب ..

واذا باستاذى يقول :

— مرحى مرحى وفيم دخولك كلمة الآداب يا هانم وأنت فى بيتك يمكن أن تحصلى على هذه المتعة . نحن هنا نبحث عن الشاعر وعن عصره وعن صلته بعصره ..

ومادت بى الأرض وعدت الى مكانى وقد كدت أقع فى طريقى اليه . ولما انتهى الدرس ودخلت غرفة الطالبات بكيت بحيث لم أستطع متابعة دروس اليوم فعدت الى بيتى ..

وكنا ونحن طلبة نسمع من أستاذنا نقد أعمالنا سواء أكانت بحثا أم شرحا فيقول دائما كلمات مشجعة مسرفة فى التشجيع ثم يقول بعد

ذلك « ولكن » وتأتى بعد و « لكن » تلك . طائفة من النقد في الصميم وكثيرا ما كنا نقول من ذا الذى ينجينا مما بعد و « لكن » تلك ..

في كل درس لطفه حسين - وكان يحضر دروسه كل طلبة الكلية تقريبا ، يتخلفون عن دروسهم في أقسامهم ويأتون معنا لسمعوه - كنا نجد شيئين لا مناص من أن يوجد في درسه .. أفقا منفتحا في الموضوع يفرى بشكل عجيب بالاستمرار في البحث والدرس .. أفقا يفتح ويمزج بين أطراف الموضوع وما يمكن أن يتصل به من موضوعات في قدرة عجيبة خالقة ، تجعل من الحياة كلاً متكاملًا لا مجال فيها لشيء وحده . أو لفكرة منفصلة عن غيرها فكان هذا يشعرنا بما يشعر به الانسان أمام الأثر الفنى الرائع المتكامل المنسجم ..



وأما الشيء الثانى فهو الفكرة اللامحة المضيئة التى تضىء هذا الأثر الفنى المتكامل بضوء ساحر فريد . لا بد من فكرة بل أفكار جديدة لها طلاوتها وحلاوتها ولا بد من أفق رحب تجول فيه هذه الأفكار يتسع ويتسع حتى يشمل الحياة كلها ..

ان علمه الدقيق المتخصص وثقافته الواسعة الرحبة التى وسعت الثقافات المعروفة كلها ، يتداخلان بشكل رائع في درسه .. فيلهم طلابه دائما وكل يوم ..

ومرت الأيام ودخلت معه قاعة الدرس معيدة له . يحيل الطلبة على لأقرأ معهم نصا أو ألخص معهم كتابا ، وهنا اطلعت على بعض عاداته كأستاذ . ان طه حسين وهو من هو علما ومعرفة لم يكن يدخل قاعة الدرس قبل أن يعد درسه . كم مرة درس عمر بن أبى ربيعة مثلا ولكنه في كل مرة كان يقرأ عمر بن أبى ربيعة من جديد . انه لا يعتمد كأستاذ جامعى حق على علم الأمس في الأدب . ان الحياة تتجدد وتذوقنا للأدب يتجدد ، ومعلوماتنا تزداد .. ولزيادتها دخل كبير في تذوقنا الجديد .. ان عادة طه حسين التى علمنا اياها ، أن نجل الدرس وأن نحترم مقامه

في حياتنا ، هي التي تجعلنا الى اليوم لا ندخل قاعة الدرس قبل أن نعد درسنا اعدادا جديدا ..

ولقد علمنا طه حسين كثيرا غير العلم المدوّن في الكتب .. علمنا كيف نعشق الآفاق الرحبة وكيف نفتح أذهاننا لكل جديد ولا نحكم على شيء الا بعد أن نعرفه ..

ان منهجه الذي يوصف بأنه منهج ديكارتى « نسبة الى ديكارت الذي شغف طه حسين بفلسفته وتأثر بها دون شك » هو المنهج الذي صبغ طريقة تفكيرنا نحن أيضا زمنا طويلا تأثرا به ..

وعلمنا طه حسين كذلك ، وبنفس القدر. أن نحب الحياة في تجدداتها .. وأن نتنصر لكل مظاهر الحياة على أى مظهر من مظاهر الجمود أو الشلل أو الموت .. انه مشغوف بالتجديد، محب للشباب . مناصر للحياة المتجددة ، يكره الركود والجمود وتحجر الفكر ..

أما خليات الأستاذ فلقد صبغنا بصبغتها وما زلنا الى اليوم نتوق الى أن نكون مثله أو قريبين منه .. ما اعتذر عن درسه يوما الا مضطرا أشد الاضطرار وما دخل درسه الا في الميعاد وبالضبط دون ابطاء وما شرب سيجارة في درس ولا تحدث اليها الا في الدرس وما يمكن أن يتعلق بالدرس من شئون حياتنا نحن لا حياته هو ..

وكنا كثيرا ما تقارن بينه وبين أستاذ آخر - حضرت له درسين وصممت ألا أحضر له بعد ذلك مهما تكن العواقب - لأن الأستاذ الآخر كان يبدأ الدرس فلا يستمر فيه الا بضع دقائق واذا به يقول : « لما كنا في انجلترا » وكانت هذه العبارة كاشارة المرور معناها اننا سندخل متاحف لا صلة لها بالدرس اطلاقا : وكنا نطوي دفاترنا وننصت ، وأصبح الحديث معادا ، ثم أصبح تافها ممجوجا حتى سمينا الأستاذ « لما كنا في انجلترا » ..

ولحسن الحظ كان أساتذة القسم الأصليين به ، بعيدين عن مثل هذا الأستاذ الآخر قريبين لطه حسين في تقديمه لوقت الدرس ولمادته وللظروف التي يجب أن تلقى فيه ..

ان احترام قاعات الدرس بل معرات الجامعة هو الذى جعل طه حسين يرفت طالبا لأنه زعق على زميل مرة . وآخر لأنه دخن سيجارة فى شهر رمضان . وطالبة لأنها جلست تسج التريكو فى الشمس . ولم يكن هذا تزمنا وهو الأستاذ الحر الفكر الطلق الأفق وانما كان اجلالا للمعلم وتوقيرا لعملية تربية العقول ومرانها ..

أما المكتبة والاطلاع فيها فكان جزءا لا يتجزأ من تدريس طه حسين . كل درس نكلف بعمل يطول ساعات عديدة فى المكتبة ومن دون هذا لا يمكن أن نقبذ من دروسه ..

وتنعكس أخلاق طه حسين الانسان وهى معروفة ولا مجال لذكرها هنا ، على كل تصرفاته كأستاذ .. انه أب للجميع ، الأب المثالى فى كل ما يقول أو يفعل حتى ليكاد يكون أسطورة فى أبوة تلاميذه ..

ولكن فكرة طه حسين عن العلم فى حد ذاتها تستحق بحثا طريفا . لقد صور لنا معلمه الأول فى القرية صورة لا تنسى . انه سيدنا الذى أبدعته ريشته الفناة فى « الأيام » « ضخما بدينا » . « دفته » تزيد فى ضخامته ييسط ذراعيه على كفى رفيقيه .. ويتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتا ذلك انه كان يحب الغناء .. الى آخر هذه الصورة التى لا أقوى على بترها هنا ..

و « الأيام » حافلة بوصف خلق هذا « السيدنا » وتصرفاته التى تدل على فساد علمه وتعليه . ولعلنا نستطيع أن نلمح قبل « سيدنا » صورة « الشاعر » الباهتة من بعيد التى ذكرها طه حسين فى « الأيام » والتى كانت السياج تحول بينه وبين فتانه المعلم هذا ، الذى كان يتمتع بما ينشد . لكم أبدع فى وصف السياج التى تعكس شعور الحرمان وقد اضطربت له نفسه الرقيقة الصغيرة قبل أن يتبلور احساسه بأن بينه وبين الحياة سياجا فعلية بسبب كف البصر ..

ولا تقتصر « الأيام » على صورة الشاعر الباهتة من بعيد أو صورة « سيدنا » الثقيلة عن قريب ، وانما فيها صورة « العريف » أيضا .

« العريف » مساعد « سيدنا » . وقد أصبح طه حسين نفسه معلما منذ صباه المبكر في « الأيام » فقد وكل اليه « العريف » أمر تعليم القرآن الكريم لبعض التلاميذ ومنهم « نقيسة » التي كان يطرب الصبي لبعض قصصها الساذجة ..

وتمتلىء « الأيام » بذكر من تعلم عليهم طه حسين أو من ابتغى عندهم العلم فلم يجده أو لم يجد الا أقله . شيوخ ومشايخ طرق صوفية ومدعى علم ما لا يعلم . ولعل أبررهم هذا المفتش المجوّد للقرآن الكريم على نحو فتن الصبي وكان سببا لما كان بين ابنته وبين الصبي من حب يمثل طفولة بريئة حية في أواخر القرن الماضي ..



ومنذ « الأيام » نجد ان طه حسين قد ركز آماله حول أن يكون معلما ، بل معلما في الأزهر الشريف أول الأمر . كم ذا يمس شغاف القلب أن يقص علينا كيف دخل الأزهر الشريف لأول مرة . كم كان سعيدا حين أخذ مكانه في الحلقة على هذا البساط الرقيق الى جانب عمود من الرخاء لمسه فأحب ملاسته ونعمته فأطال التفكير في قول أبيه : « انى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك صاحب عمود في الأزهر » ..

وتمر بنا صور شيوخه في الأزهر وهو قلق برم يتحول من هذا الى ذاك . ويصطدم بهذا ويتشاجر مع ذاك ، يصفه بعضهم بالحقق ويتهمه البعض الآخر بالخوض فيما لا يعلم ويحرم بعضهم الثالث عليه أن يحضر دروسه . وتبرز من بين صور كل هؤلاء صورة الشيخ المرصفي الذي بغض اليه أبا العلاء فأحبه وشغف به بالرغم من بعض رضاه عن دروس الشيخ المرصفي ..

ويختلف الى الجامعة الى دروس حفى ناصف ، والشيخ مهدي ليدرس النصوص ، ويختلف الى المستشرقين « نلينو » و « فييت » ليدرس تاريخ الأدب فيجد من هذا المزاج بين القديم والجديد بغيته التي طالما تشدها فلم يجدها . ويستمر في الجامعة القديمة ثم يسافر في البعثة

ويعود أستاذًا بالجامعة ، ولكننا لا نكاد نرى صوراً واضحة لشخصيات أساتذته من الأجانب . لقد ملأوا عقله وفكره بما عندهم من علم ، فلم يتركوا له وقتاً ليتأمل أكانوا ضخاما أم نحافا . أكانوا يتعاملون مع التلاميذ حسب درجاتهم من الفقر أو الغنى أم كانوا يعاملون الكل بالعدل والميزان ..

ان الاساتذة الاجانب استحالوا عنده عقولا تتعامل مع عقول ، فخرجوا عن أن يكونوا مفردات صورة ترسم ..

ان صلاته بهم صلات عادية من الحب والود ، والذي بهرهم منهم هو عقولهم ، وطريقة تفكيرهم . ومدى ما يمكن أن يؤثروا به في عقله المرهف المستعد لأن يتقبل هذا العلم بعد طول معاناة في تلقى الجهل والخزعات باسم العلم ، أو في تلقى العلم اليسير بأشنع الطرق وفي أسوأ الظروف . لقد وجه طه حسين في علمهم نفسه ..



وعاد طه حسين الى مصر ليرسم الصورة المثلى لما يجب أن يكون عليه المعلم وما يجب أن يتطور اليه التعليم في الجامعة وفي المدارس الثانوية وفي المدارس الأولية خاصة . يوضح أهداف التعليم ويفتح آفاقه لآمال لا تحد . وفي كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » صورة واضحة لآرائه التي يضغط فيها على ما يجب للاستاذ والمعلم من اعداد واختيار ورعاية ليكون مكرما كريما فينشئ جيلا مكرما كريما ويكون واعيا بدوره . وخطر هذا الدور في حياة الأمة ، فيسمو الى مستوى هذه الخطورة ويعد نفسه للقيام بأعبائها ..

وامتد الزمان فاذا طه حسين يلى أمر التعليم مستشارا للوزارة ثم وزيرا لها فيخطو خطوة جبارة نحو تحقيق آمال الشعب اذ يجعل التعليم الثانوى مجانا . كم خضع آنذاك لحملات من التشهير حتى لقبوه بوزير الماء والهواء لأنه قال : ان العلم كالماء والهواء يجب أن يكون متاحا:

لكل أفراد الشعب ، ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية حقيقية من دون أن يتعلم الشعب ..

ودارت الأيام وقامت ثورة الشعب وتعبيرا منها عن ضمير شعب بحب العلم ويؤثر التعليم فتحت أبواب التعليم كلها على مصراعيها ومجانا وللشعب كله ..



ان طه حسين لا يعيش الا ليعلم وليتعلم ، وتدور حياته كلها حول هذا المحور السامي الاساسى فى حياة الأمم ..

انى ما زلت أذكر كيف كان يتحامل ليأتى الينا فى كلية الآداب منذ بضعة أعوام استجابة لرجاء والحاف قوين من طلابه ليدرس أبناءنا ولو ساعة واحدة فى الاسبوع . كم ذا كانت فرحة أبناءنا به وكم أضاء لهم من طريق وفتح أمامهم من آفاق وبسط لهم من آمال ..

ولئن أقعده المرض عنا فان كلية الآداب ما زالت تردد صوته الى اليوم . انها الكلية التى خرجت وأخرجت الجامعة كلها معها عام ١٩٣٢ ، لتطالب بعودة طه حسين اليها يوم نقله منها اسماعيل صدقى ضمن مخطط بطشه بالطلاب بل بالشعب كله . ولو استطاعت الكلية اليوم أن ترد عنه المرض ليعود اليها ما ترددت أن تفعل المستحيل فى سبيل ذلك ..

ولكن عزاءها ان طه حسين لا يحيا فى تلاميذه - وكل أساتذة الكلية من تلاميذه - فحسب ، وانما هو يحيا فى طلابها الذين يدرسون طه حسين فى دراستهم للأدب الحديث . بل ان منهم من نال درجته العلمية العليا عن بحوث حول أعمال طه حسين ..

صفحات مجهولة

من حياة

طه حسين

١٩٠٨ - ١٩١٦

أنور الجندى

لا ريب ان أعظم « حدث » فى تاريخ حياة « طه حسين » هو سفره الى أوروبا . غير ان هناك حدثين هامين فى حياته قبل ذلك ، هما دخوله الأزهر عام ١٩٠٢ . واتسابه الى الجامعة المصرية القديمة عام ١٩٠٨ . وقد ذكر لى ان اتصاله بالجامعة كان مقدمة لسفره الى أوروبا عام ١٩١٤ . غير انه أعيد فى العام التالى لاضطراب ميزانية الجامعة ، وكانت تلك أزمته الكبرى حتى سافر مرة أخرى فى شتاء عام ١٩١٥ . وظل فى أوروبا حتى عاد بعد أن أتم دراسته فى خريف عام ١٩١٩ ..

ولاشك ان هذه المرحلة التى امتدت بين دخوله الأزهر ودخوله الجامعة المصرية القديمة قد صورت أروع تصوير فى الجزء الثانى من كتاب « الأيام » ولا يهنا منها هنا الا أن نسجل بذور اتجاهه الأدبى والشعرى واتصاله بالصحافة وولادة شخصيته المفكرة الناقدة .. وعمرارة الصحف والدوريات فى هذه الفترة يبدو ان أول كتابات طه حسين بدأت عام ١٩٠٨ وهو نفس العام الذى افتتحت فيه الجامعة المصرية القديمة ، وقد بدأت هذه الكتابات فى صحف « مصر الفتاة » ، و « الجريدة » ، و « العلم » و « الهداية » خلال هذه السنوات حتى اتصلت بمجلة السفور التى صدرت عام ١٩١٥

وكتابات طه حسين في هذه الفترة تضم : الشعر ، والقصة ، والمقالة الأدبية ، والنقد . وهي ، ما عدا الشعر ، نفس الفنون التي عالجها فيما بعد

١ - الشعر :

أما الشعر فقد بدأ نظمه بالثناء والغزل والتهنئة كما نظم الشعر السياسي ، وله شعر في التقريظ والمدح والهجاء

وفي شعر الرثاء نظم في رثاء حسن عبد الرازق « ١٩٠٨ » قصيدة هي من أولى قصائده وقد استهلها بقوله :

أفى الحق ما أسمعنا أم توهمنا تبين فقد بدلت أدمعنا دما
تبين فان الناس لم تنس عاصما ولم تقض في ذكرى الامام تألما
كما نظم في رثاء محمود عبد القفار عضو مجلس شورى القوانين
« ١٩١٠ » ، والدكتور ميلونى الاستاذ بالجامعة المصرية « ١٩١٢ »
قصيدة بدأها على هذا النحو :

لا أقال الله للموت عسارا فلقد أغرق في الناس وجارا
عاهد الدهر على ان لم يزل مذكيا في مصر للحزن أوارا
وفي تقريظ مقال للاستاذ لطفى السيد قال :

بمثل مقال أمس يعجب كاتب أديب ويرضى عاقل وحكيم
حقائق غر يصرع الشك نورها كما يصرع الليل البهيم نجوم
وفي الهجاء له قصيدة وجهها الى عبد الرحمن شكرى ، وكان شكرى قد كتب مقالا بعنوان « لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربى » هاجم فيه رأيا نشره طه حسين في الجريدة ، قال فيه :

« لا أرى رأيه في قوله ان سليقة الشعر قد فسدت وان أسلوب شعراء هذا العصر فاسد اذا قيس بأسلوب شعراء الدولة العباسية ، وربما يظن القراء ان الشعراء يقيسون الشعر على التفاعيل في وقت صنعه ، هذا ما يظنه كثير ممن لا يعالجون الشعر ، وأظن ان هذا ما يظنه الأديب طه افندى حسين ، وما يعنى بقوله ان سليقة الشعر فسدت »

وقد وجه اليه طه حسين قصيدة هجاء بدأها على هذا النحو :

قل لشكري فقد غلا وتمادي	بعض ما أنت فيه يشفى النفؤادا
بعض هذا فأنت في الشعر	والنثر أديب لا يعجز انتقادا
لو تفهمت قولنا لم يكلف	لك هوى نقدنا الضنى والسهادا
عد اليه تجد شفاءك فيه	انما نمقت الحديث المعادا
واقصد في الغلو ان لدينا	ان تساءل بنا نصالا حدادا
خل عنك القريض لست بأمضى	فيه سهما ولا بأورى زنادا
ان تكثر مكثرا قرب مقل	حاول القول مرة فأجادا
كن اذا شئت آمنا مطمئنا	لم نحاول لما تقول انتقادا

ويمكن القول بأن هذه هي معركة الأدبية الأولى

ولطه حسين شعر في الاحتفال بالعام الهجرى :

كن انت بعد أخيك خير هلال وأضىء لمصر سبيل الاستقلال

وفي حفل قرآن الشيخ « احمد حسن الزيات » على كريمة « المفضل سيد أفندى النجار » اهتز طه بالشعر لصديقه الذى كان له عليه الفضل فى دفع مبلغ « الجنيه » الذى أدخله الجامعة المصرية القديمة فيما روى من بعد الدكتور طه من ذكرياته لكامل الشناوى . قال :

يا خليلي سلامي	جـبـذا يوم القـران
جـبـذا أمس فقد أد	نى نوالا غير داني
جـبـذا ليلة أمس	راق لى فيها رمانى
ليلة قد نلت فيها	من حظوظى ما شقانى
أنا لا « احمد » منها	« حسن » توقيع الأغانى
انما « احمد » منها	« حسن » أنسى بفلان
لم أزل أقصف حتى	خلت انى فى الجنان
بينما نحن على ذلك	اذ زف القـمـرـان
آء يا زيات ما أجب	لـلـ سـاعات الأمانى

وله في شعر المناسبات قصيدة في تهنئة الشيخ عبد العزيز جاويز
بمناسبة خروجه من السجن « ١٩٠٩ » قال :

الآن حق لك الثناء	فلتحى وليحى اللواء
ولتحى مصر وأهلها	شاء العدا أو لم يشاءوا
تعلو بها أصواتنا	حتى ترددها السماء
ان كان ذكرك للجللاء	يسوء فليكن الجلاء
سيروا اذ تبدو الحقيـ	فة ان قوتهم هواء
ما ان أصابتك الاسا	ة بل لأنفسهم أساءوا
لو يعلم السجن الذي	قد كان فيه لك الثواء
من ذا يقيم به لكان	له بمثواك ازدهاء
لم لا وأنت لسان مصر	اذا ألح بها المراء
تدعو لها ويدود عنها	صدق عزمك والمضاء
فاسلم لمصر وأهلها	انا لنجدتك الفداء

ومن شعره السياسى مهاجمة مشروع مد امتياز قناة السويس :

تيمموا غير وادى النيل واتجمعوا فليس في مصر للأطماع متسع
وله قصيدتان « حديث مع النيل » يستهل احداها بقوله :

وقفة في الصباح أو في الأصيل	يتجلى فيها جمال النيل
ترعى الحزين البائس من البؤس	وتنسى المحب عذل العذول

ويقول في مقدمة أخرى :

عم مساء فقد أذاك السمر	لا يروعنك الظلام المغير
لا يروعنك الفراق فلاف	سلاك يا نيل دورة ستدور

وله في الغزل عديد من القصائد منها قصيدته الرباعية « ليت للحب
قضاة » :

شف قلبي ما يعانى	من تباريح الجوى
يعشق الحسن ولكن	ليس يحظى بالوصال

أنا من وصل حبيبي بين صد ونوى
من غديري من بخيل ضن حتى بالخيال

وقد سجل طه حسين ريادته في مجال الشعر الحر . فقد نشرت له جريدة « مصر الفتاة » قصيدة في ديسمبر عام ١٩٠٩ تحت عنوان « آه ، لو عدل » استهلها بقوله :

شادن عطف	عطفه الحبيب
بعدهما صدف	صدفة الملون
كم سبي العقول	قوله الخلوب
يملك القلوب	ثم لا ينيل

وقالت الصحيفة : ان صاحبها قد اتهم فيها أسلوبا يظنه بعض الأدباء من الأساليب الأفرنجية لاتفاقها مع الشعر الأفرنجي في التقاطيع والروى . ولكن هذا النوع لم يفت العرب في جاهليتهم ، فقد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر « المسط » ، وقد نظم فيه امرؤ القيس اسماطا أتى على مثال منها صاحب لسان العرب في مادة « سطر » وكان للعرب الأندلسيين اليد الطولى فيه وتراه في موشحاتهم التي تفتنوا في وزنها ورويها

ومن عجب أن يشجب الدكتور طه حسين شعره كله في عبارة متشائمة فيقول :

« واعرض عن الشعر كل الاعراض بعد أن استبان له انه لم يقل الشعر قط ، وانما قال سخفا كثيرا » ..

٢ - مع الصحافة :

وقد ظهر لطه حسين خلال عام ١٩٠٩ عديد من القصائد ، غير انه لم يلبث في الأعوام التالية أن تخفف عن النظم وتوسع في الكتابة الأدبية حتى أطلق بعض الكتاب « عام الشعر » على عام ١٩٠٩ بالنسبة له .

ويبدو ان طه حسين وجد ان مجال الشعر أقل من طموحه ، وانه ليس الوسيلة المثلى لا لبلاغ آرائه ونظراته الى القراء

وقد اتصل طه حسين بالتيارات الفكرية والسياسية المختلفة في عصره ، اتصل بلطفى السيد والجريدة وحزب الأمة ، واتصل بالشيخ جادویش و « اللواء والعلم » والحزب الوطنى ، وكتب فى هذه الصحف . ولما أنشأ الشيخ جادویش مجلته الشهرية « الهداية » وولى طه حسين سكرتارية تحريرها ، نشر فيها فصولا فى النقد الأدبى



وقد نشرت له الجريدة ومصر الفتاة كلمات وخطرات توصف بأنها من النثر الفنى ، يقول : « يقضى ساعات الليل ومعظم النهار بين قلب يجف ، ودمع يكف ، وجسم يرتعش . شهيق وحريق . وزفير وسعير ، ووجيب ولهيب ، عين ساهرة وهموم نائرة ونفس حائرة ، بين ماض مؤلم ومستقبل مظلم .. »

ولكن طه حسين سرعان ما جاوز هذا الأسلوب الغارق فى الزخرف والصنعة اللفظية وتحرر منها عندما تحرر من الخاطرة وانتقل الى النقد الأدبى . واتصل بالقضايا الاجتماعية كالمرأة والزى والزواج بالأجنيات وعديد من قضايا العصر ، وقد كان رأيه فيها جميعا أقرب الى المحافظة

يقول تحت عنوان « الأزياء » فى مقال بالجريدة عام « ١٩١٠ »

« مخطيء كل الخطأ صاحب الزى الشرقى الجميل يستبدل به الزى الغربى ، مرضاة لهوى كاذب ، وشهوة خادعة . مخطيء لأنه ينزل عن كرامة الأمة فى عاداتها وآدابها .. »

وقد تغيرت من بعد مفاهيم طه حسين واتسع أفقها فلم ير فى ذلك شرا ، بل رأى انه التطور والايجابية والتماس الأصلح والأكثر تفعا ، بل انه يقول فى احدى مقالاته : « من أشد الناس عقوقا للأمة وبغيا عليها ذلك المصرى لا يكاد يعدو ثغرا من ثغور مصر مبحرا الى أوربا حتى يقطع

أسبابا ويصل أسبابا ، فيترك لنا أزياءنا ولغتنا وأدينا ويتحل مثلها من أزياء أوروبا ولغاتها وآدابها »

ولا شك كانت تلك عبارات الحماسة المطلقة في سن العشرين تريد أن تؤكد ذاتها ولما تتسع بعد آفاقها الفكرية وترحب ، وتتصل بالفكر الانساني ، وتحرر من مفاهيم الاقليميات الفكرية الضيقة حتى انه ليقول : « قل بين أبناء مصر الذين يتعلمون في أوروبا من يستبقى على رأسه العمامة .. »

وهو في هذا الاتجاه يقول في مجلة الهداية « أصبح تقليدنا للفرنجة أمرا محيا الى نفوسنا وليس لنا من قوة الأتس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد ، وعندى انه يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط في استعمال هذا الحكم أى اباحة تزوج المسلم بالكتابية . وليس على من بأس اذا قلت انه الآن حرام مقنوت .. »

ولا شك ان التجربة هي التي تعطى القدرة على التحول والتعميق ، ومن هنا يبدو أثر الرحلة في أدب طه حسين وفكره فيما بعد ..

على ان آثار طه حسين وكتاباتة المختلفة كانت بالنسبة لوسطه ومحيطه ، وبالنسبة للأزهر والفكر المصرى اذ ذاك تقدمية جريئة ، ولعله من أوائل من أعلنوا مساواة المرأة والرجل في الحرية في مقال أدار معركة نشره في يناير عام ١٩١١ في مجلة «الهداية» واقتضى أن يرد عليه الشيخ عبد العزيز جاويز ويعارضه ، يقول طه حسين :

« لا فرق بين المرأة والرجل في الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق ، منهي عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه ، فالمرأة لا تخلو بالأجنبي ، ولا تسافر وحدها ، ولا تتبرج ، ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء من غير اثم ولا لغو ، لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب وتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل وليس عليها الا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الانساني كافة .. »

وقد صوّر الدكتور طه حسين من بعد موقعه أثناء هذه المرحلة فقال :
انه كان موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة ، أحدهما مذهب الاعتدال
والقصد ، والآخر مذهب الغلو والاسراف . وانه كان يستجيب للمذهبين
معا ، فاذا اقتصد في النقد نشر في الجريدة ، واذا غلا في النقد نشر في
صحف الحزب الوطنى

ويبدو من المراجعات التى قمنا بها انه اتجه الى الجريدة اتجاها كاملا
بعد هجرة الشيخ عبد العزيز جاويز عام ١٩١٢

كما اتصل الدكتور طه بصحيفة أخرى ، بعد سفره الى أوروبا ، تلك
هى صحيفة « السفور » التى صدرت فى مايو عام ١٩١٥ وكتب فيها أولى
مقالاته من مونييليه « اغسطس عام ١٩١٥ »

وقد ضمت مجلة « السفور » عددا ضخما من الكتاب الذين لمعوا بعد
الحرب العالمية الأولى وتصدروا الحياة الأدبية فى مصر ، وفى مقدمتهم
على عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وهيكى ، والزيات ، وأحمد زكى ،
ومحمود تيمور ، وفيها نشرت قصة « زينب » للدكتور هيكى بتوقيع
« فلاح مصرى » ..

وقد ظل طه حسين يكتب بها حتى يناير عام ١٩١٧ ، وقد حملت خلال
فترة عودته من البعثة والى أن سافر عائدا الى باريس ، حملت أنات
قلبه ، وأشجان روحه ، وكان قد كتب فيها بعد عودته قصة سلسلة
تحت عنوان « زواج الشيخ » ، وهى قصة فى رسائل ، بدأها فى يونية
عام ١٩١٦ وضمنها خمسة عشر خطابا وأرسل فصولها من أماكن فرنسية
مختلفة مثل تولوز ، سالىس دى ساللا ، سان جيرون ، تارب ، وباريس

٣ - النقد الأدبى :

برز « طه حسين » فى ميدان النقد الأدبى فى هذه الفترة ، ووجدت
طبيعته المصاولة نفسها فى مجال المساجلات ، والمعارك ، ويبدو هذا فى
ثلاث معارك ومساجلات هى أبرز ما عرف فى هذه المرحلة :

١ - الأولى مع كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لرجى زيدان

٢ - الثانية مع المنفلوطى فى كتابه « النظرات »

٣ - الثالثة مع الدكتور هيكى حول « الحرب والحضارة »

أما كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لرجى زيدان ، فقد تقدمه طه حسين فى فصول متتابعة نشرها فى جريدة « العلم » . ومجلة « الهداية » عام ١٩١١ . وقد أحصى عليه عددا من الملاحظات . فقد قال :

« ان للكاتب فى هذا الكتاب أغلاطا تاريخية ما كان يحسن أن يقع فيها مثله ، وانه قسم الشعراء باعتبار شئونهم الخاصة فى حرفهم ، لا باعتبار الشعر نفسه وما يؤثر فيه من طبيعة الاقليم . وان عبارته مبهمه كثيرة العموم » كما استكثر على المؤلف انه أمضى أربعة عشر عاما فى تأليف كتابه ..

ورد جرجى زيدان على اعتراضات طه حسين فقال :

« ظهر فى « العلم » الأغر انتقاد للشيخ طه حسين فى مقالات متتابعة لا تخلو من الغمز واللمز ، عمدنا الى الرد طوعا لاشارة بعض الأصدقاء لئلا يأخذ سكوتنا عجزا ، ويتخذ غير العارف كثرة الإيهام والتهويل دليلا على صحة النقد ..

١ - انتقد علينا تقسيم الكتاب حسب الأعصر ، وان كان ذلك التقسيم متبعا عند علماء أوربا فى تواريخ آداب لغاتهم ، ولكنه لم يأتنا بتقسيم أحسن منه ، فنعدل عن متابعة علماء أوربا وتبعه فيه ، ويقال نحو ذلك فى انتقاده تقسيم طبقات الشعراء فانه أنكره علينا ولم يأتنا بغيره ، ولا فائدة من الانتقاد اذا لم يشفع بالاصلاح

وقال جرجى زيدان فى الختام : قرب الله الزمن الذى نعرف فيه قدر نفوسنا ونعدل عن القول الى العمل

٢ - ورد طه حسين على جرجى زيدان فقال :

رد على صاحب « الهلال » ، يكتب ليمحو من نفوس الناس تلك الأغلاط العلمية ، ونشهد الله على اننا لم نقصد اهاتته والغض منه

جعل صاحب « الهلال » من شروط النقد أن يتقدم الناقد الى المؤلف فيسبغ عليه قبل النقد ذاكرا حسناته قبل سيئاته ، ونحن نخالفه في هذه الحصلة ، فنقول ان عمل الناقد ينحصر في اظهار الخطأ من غير تمأق ولا تزلف ، ومن غير تحامل ولا تشهير

وجعل صاحب « الهلال » من شروط النقد ألا يبطل الناقد رأيا حتى يأتي بغيره لتتم الفائدة وتلك احدى الاعاجيب ، فليس من الناس من يستطيع أن يلزم أحدا بألا يبطل باطلا حتى يحق حقا ، وشتان بين اظهار الحق والاتيان بالباطل

ثم انه أنكر استكثارنا أربعة عشر عاما على تأليف كتابه ، ثم تقدم الينا بهدية نفيسة من الشتم الطريف سنقرها له .. فقد زعم ، عفا الله عنه ، اننا مغرورون مخدوعون لم نعرف قدر أنفسنا



« المعركة الثانية مع كتاب النظرات للمنفلوطي »

وهذه معركة ضارية استمرت عاما كاملا تحت عنوان « نظرات في النظرات » بلغت ٢٣ مقالا نشر أولها في « اللواء » ثم امتدت في « العلم » الذي صدر في مارس عام ١٩١٠ . واستمرت الى ٢٥ نوفمبر ، ومنها مقالات وقع عليها « طه حسين - كوم امبو »

وقد أخذ طه حسين على المنفلوطي جملة من الأخطاء اللغوية .. وقال ان أول عيب يأخذه على صاحب النظرات انه شغوف كل الشغف بذات غيره ، وانه منكر كل الانكار لذات نفسه ، وان السرقة في كتابه شائعة شيوعا فاحشا ولست غاليا اذا قلت ان اسم كتابه مختلس من ديوان « النظرات » للرافعي أما السرقة فعذر صاحب النظرات معروف وهو قلة المادة وضيق الحظيرة

والعيب الثالث من عيوب صاحب النظرات أن صاحبها أبعد الناس عن توخي الحقيقة وأحبهم لاصطناع الخيال سبيلا الى غايته والعيب الرابع أن لصاحب النظرات ألفاظا ومعاني وأساليب تشغفه

كل الشغف فلا تزال تتردد في كتابه حتى تمجها الأسماع ، وتعافها
الطباع ..

والخامس والسادس أن الكاتب على شغفه بجودة العبارة وحسن
الإشارة وكلفه بأن يكون كلامه فخما سهلا وخفيفا جذلا ، وأن يكون
أسلوبه أنيقا ، ولفظه رشيقا ، كثيرا ما يلجئه المرح الى شغف في
الاستعارة والتشبيه ويضطره الى أن يكون كلامه رثا غثا وأسلوبه
ساقطا مبتذلا ..

ولقد أثرت حول هذه المقالات مراجعات كثيرة تتصل بعلاقات طه
حسين بالحزب الوطني ، وموقف المنفلوطي من رجاله ، ويروى في ذلك
ما ورد عن طه حسين من تقديره لكتابات المنفلوطي في رأى سابق :
« لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت الا يوم ينشر فيه نظرة أو أسبوعية
فقد علم الله انى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الاقبال »
ومهما يكن الأمر فان طه حسين في هذه المرحلة كان يرود حقلا جديدا ،
تحدوه فيه رغبة في تأكيد الذات والتبريز واثارة الضجيج ، وقد أنكر
هذا اللون من النقد فيما بعد ، فقد أشار في مذكراته التى نشرتها آخر
ساعة عام ١٩٥٥ رآيه في هذه المساجلات والمعارك الصحفية . قال « نم
يكذ الفتى يأخذ في الكتابة حتى عرف بطول اللسان والاقدام على ألوان
من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها في تلك الأيام ، ولكنه كان
نقدا محافظا غالبا في المحافظة »

وقد ذكر لى أن نقده للمنفلوطي كان قائما على أساس مذهب المدرسة
القديمة ، وقد عاد طه حسين فأشاد بالمنفلوطي واعتذر عن هذا اللون من
النقد في أحاديث أذاعها بالاذاعة ولم تجمع في كتاب بعد



« المهرجة الثالثة مع الدكتور محمد حسين هيكل عن الحرب والخضرة »

وهذه مساجلة حملتها صحيفة « السفور » عام ١٩١٥ وقد بدأها
الدكتور طه حسين وكان قد أحرز الدكتوراه من الجامعة المصرية « ١٥

مايو عام ١٩١٤ « برسالتة عن « ذكرى أبى العلاء » وقد أشار الدكتور هيكل فى بعض فصوله فى الثلاثينات الى أن طه ابتدع هذه المساجلة معه ليخلق فى الأدب العربى الحديث فن الجدل وانه أخذ جانب الحرب وفضلها على الحضارة رغبة منه فى الجدل وحده ، وانه هو الذى دعا هيكل الى ذلك »

ومن عجب أن كانت هذه فاتحة مساجلات بين طه وهيكل استمرت وقتا طويلا ، وامتدت بعد ذلك على صفحات « السياسة الأسبوعية » و « اليومية » والرسالة ..

وقد وقع طه حسين بحته عن الحرب والحضارة بامضاء « تاسيت » ونشره فى ١٩١٥/١١/٥ وما قاله فيه :

« مثل الحرب مثل الديمة الغزيرة ترسلها السماء من غير حساب فتتفرق لها الجموع المحتشدة ويستتبع ذلك كثير من المضار ، ولكن السماء لا تكاد تقلع ، والماء لا يكاد يفيض . حتى تكتسى الأرض حلة خضراء بهيجة فيها للحياة العقلية والجسمية مادة صالحة موفورة النفع ، وذلك مثل الحرب تصيب الناس بما نشهد الآن من ضرر وتروى الأرض بما تقشعر له أبداننا من دماء . ولكن ما تكاد الدماء تجف حتى يهب الانسان من وقفته الحائرة ، واذا قوة حياته المادية والعقلية قد ضوعفت وأصبحت أقدر على الجهاد وأصلح للبقاء

« فليست الحزب كما يظن الكثيرون نذيرا يؤذن بكساد المدنية وافلاس الحضارة ، وانما هى آية تغير فى الحياة الانسانية ودليل انتقال من حال الى حال ، أظهر منها نفعا وأقرب الى الكمال »

وقد رد هيكل ناقضا رأى طه ، مصورا نتائج الحرب فى الخراب والتدمير ..

وقد جرت بينه وبين هيكل مساجلة أخرى عام ١٩١٨ أشار اليها هيكل فى مقال له بالمقتطف ولم نعر على نصوص آراء طه حسين عنها وموضوعها « القدرية والجبرية »

٤ - مع أساتذته وأعلام عصره :

وفي هذه الفترة تعرف « طه حسين » بعدد من أعلام عصره وأساتذته في الجامعة والازهر وفي مقدمتهم : عبد العزيز جاويز ولطفى السيد ومحمد المهدي ، وسيد المرصفي ..

وقد حدثني الدكتور طه حسين في مراجعة واسعة لتطور فكره عام ١٩٥٢ فقال ان أهم أساتذته في هذه الفترة ممن يرى لهم عليه فضلا لا يقدر : لطفى السيد وسيد المرصفي ، وأحمد زكي باشا . وقد دله لطفى السيد على « قيمة الاشياء » وفتح له باب التفكير الاوربي الحديث ، وفتح له سيد المرصفي باب انشاء الذوق الأدبي الكلاسيكي ، وهما له أحمد زكي باشا التمرن على البحث العلمي وتحقيق النصوص

ومما يحسن بنا في هذه المناسبة أن نسجل رأيه في الشيخ محمد عبده وكيف التقى به ، فقد صور كيف عاش عاما كاملا في الازهر يسمع عنه ويروى آراءه ، دون أن يراه ، حتى اذا كان العام الثاني .. فقد جرؤ على أن يقتحم باب « الرواق العباسي » الذي يلقي فيه الاستاذ الامام محاضراته ومن دون الباب حارسه الذي يسمى « الغراب » وأعوان الغراب ، يقول :

« واذا أنا ذات مساء أخطر أشد المخاطرة وأتحدى الغراب ، واقتحم الباب واجلس في طرف من أطراف الحلقة ، ويقبل الشيخ ويأخذ مكانه ثم يبدأ في الدرس ..

« وأشهد لقد كنت في هذا الوقت شديد الاضطراب والذهول تجري في جسمي الصغير كله رعدة ما أحسستها من قبل ، حتى اذا سمعت هذا الصوت الحلو ، يتلو هذا الكلام العذب ، كلام الله ، ويتلوه في هدوء وخشوع وفي حنان ورحمة لم أملك نفسي ، واذا دمعان تنحدران فأكفهما ، ثم أثوب الى الشيخ فأمنحه عقلي كله وقلبي كله ، وأسمع له حتى ينهض ويتفرق الناس ثم لا أفكر الا فيه سواد الليل ، ولا أفكر

الا فيه بياض النهار ، واذا بى أتغافل الغراب وأقتحم الباب وأجلس في طرف من أطراف الحلقة وأجدد لنفسى ما أحسست من لذة القلب والعقل معا ..

« ثم أنصرف وقد عاهدت الله على أن ألزم درس الشيخ لا أعدل به درسا ولا أنصرف عنه الى شىء غيره ، ولكن الله يريد أن يكون هذان الدرسان آخر عهد الأستاذ بالتعليم فى الأزهر فقد استقال من مجلس الادارة وتحول الى دار الافتاء »



أما عبد العزيز جاویش .. فقد أشار الدكتور طه الى أثره فى نفسه وفضله عليه فهو الذى حرضه على السفر الى أوربا وفتح له صفحات العلم ومجلة الهداية « وهو الذى عرف الفتى الى جماهير الناس ووفقه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون وحافظ منهم خاصة »

ولم يقف أمر الشيخ عبد العزيز جاویش بالفتى عند هذا الحد ولكنه علمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة الهداية وطلب الى الفتى أن يشارك فى تحريرها ثم ترك له أو كاد يترك له الاشراف على هذا التحرير .. وأنشأ الشيخ جاویش مدرسة ثانوية وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرا



أما لطفى السيد .. فقد فتح أمام طه آفاقا جديدة « فقد عرف الفتى الى الكثيرين من الذين كانوا يلمون بمكتبه فى الجريدة من الشيوخ والشباب وفى مكتبه اتصل برفاق له أحياء عمل معهم فيما بعد ، ولقى معهم خطوبا أى خطوب .. عرف عنده «هيكلى» ومحمود عزمى ، والسيد كامل وكامل البندارى » ، وعرف بفضل لونا من المعرفة لم يكن يقدر انه سيتاح له فى يوم من الايام

ومن أساتذة طه حسين الذين كان لهم به صلات تاريخية لها دوى. وصدى ، أستاذه محمد المهدي أو الشيخ مهدي كما كان يطلق عليه وللشيخ مهدي قصة ، فقد سافر طه حسين الى فرنسا عام ١٩١٥ في بعثة علمية ، ولم ينقض عام حتى استدعت الجامعة أعضاء البعثة .. وكان استدعاؤها لهم نتيجة لظروف مالية فرضت عليها أن تطلب منهم العودة ، الا من يريد أن يبقى على حسابه الخاص ، وعاد طه حسين وأتيح له أن يحضر درسا في الجامعة المصرية عن الأدب العربي ألقاه الشيخ مهدي ، فلما انتهى من سماعه خرج فكتب فصلا نشرته مجلة السفور « ٣٠ نوفمبر ١٩١٥ » جاء فيه :

« في مثل هذا اليوم من السنة الماضية سمعت لأول مرة درس الآداب في جامعة مونيخ ، وكان الاستاذ يدرس قصة وضعها « الفريد دي فيني » على المثال الذي اخترعه الكاتب الانجليزي « ولتر سكوت » من القصص ، فلما خرجت من الدرس سألت صاحبي ضيفا « يقصد أحمد ضيف » كيف ترى هذه المحاضرة فقال لا بأس بها ولكنها شديدة الاختصار ، قلت انك لمسرف شديد الطمع يا ضيف ، فلو سمعت درس الآداب في الجامعة المصرية ورأيت الاستاذ وقد مر في محاضرة واحدة بشمانية من الشعراء في عصر المأمون لعرفت أن صاحبنا في مونيخ قد بلغ الغاية القصوى في الاطالة والاسهاب

ورجعنا بعد ذلك الى مصر ، وفي اليوم نفسه من هذه السنة سمعت درس الأدب العربي في الجامعة المصرية وأبى ضيف أن يحضره معي ، لأنه كان عنه في شغل ، كان درس الأستاذ المهدي في تاريخ الأدب العربي الاندلسي أشبه بمعرض الصور المتحركة تمر فيه ظلال الشعراء ولما يتبين منها الطلاب أكثر من أسمائهم لم يكن في هذا الدرس شيء يدل على انه درس في الجامعة وانما هو نوع من الحديث يستفز سامعيه بما يعرض من الغزل والوصف ومن آيات البديهة والارتجال ..

« ولا ألوم الجامعة فانها لم تأل جهدا في حسن الاختيار ، ولا ألوم الأستاذ فانه قد بذل ما يملك وجاد بما يستطيع أن يجود به ، ولكن أرثى لصاحبي ضيف لأنه حرم نفسه لذة الاستماع لهذا الدرس الجميل وحرّم معها هذا الألم يشعر به من سمع العلم في جامعات فرنسا ، ثم في جامعة مصر وقارنه بين الأساتذة والطلاب هنا وهناك ..



وما كاد هذا المقال ينشر حتى قامت القيامة على طه حسين ، ونشرت الصحف أياما متوالية أنباء الأزمة التي أحدثها ، وكيف طلب الشيخ المهدي الى مجلس ادارة الجامعة أن تعاقب طه حسين وأن تقسو عند توقيع العقاب على هذا « الجرم الشنيع » فتشطب اسمه من قائمة متخرجي الجامعة الذين يتعلمون على حسابها في فرنسا

وقيل ان على بهجت ، سكرتير مجلس الجامعة ، استدعى الشيخين عنده فاعتذر الشيخ طه وانه انتهت المسألة ، وزاد لطفى السيد في ترضية الشيخ المهدي فحضر مع طه وآخر من أساتذة الجامعة درسا من دروس الشيخ فلما انتهى وقف لطفى السيد ووجه الشكر للأستاذ ..

وقالت صحف أخرى انه ليس صحيحا ان طه اعتذر عما نسب اليه الى الشيخ المهدي من الخطأ العلمي ، ونشر سكرتير مجلس الجامعة بيانا في الصحف قال فيه :

« اجتمع لدى الأستاذ الشيخ محمد المهدي والشيخ طه حسين وتكلما في شأن ما نشر بجريدة « السفور » فيما يخصهما جميعا ، وتفاهما تفاهما حسنا ، واعتذر الشيخ طه حسين الى الأستاذ الشيخ مهدي عما رآه الشيخ مهدي ماسا بكرامته »

٥ - أزمة العودة :

ولكى تستكمل صورة هذه الفترة من حياة طه حسين لابد من تصوير مأساة اعادته من البعثة .. فقد سافر الى أوروبا في نوفمبر عام ١٩١٤

وكانت الحرب العالمية قد استعرت في يوليو فتأخر سفره حتى هذا الموعد ، واشترط ألا يذهب الى باريس لقربها من ميدان الحرب فسافر الى مونبلييه ، وبقي هناك الى سبتمبر عام ١٩١٥ حيث قررت الجامعة اعادة مبعوثيها فعاد الى مصر فأمضى بها أربعة أشهر كانت من أقسى أيامه .. ومن حسن الحظ انه سجل مشاعره في هذه الفترة في شبه يوميات نشرتها مجلة السفور فوراً طرفا منها :

٥ نوفمبر ١٩١٥

تريدوننى على أن أكتب أيها الأصدقاء ولقد علمتم مالى بالكتابة من طوق ولا الى الاجادة من سبيل . ماذا تريدون من رجل لم يكد يأنس الى حياة النور والهدى حتى رده الاقدار الى حيث الظلمة الداجية والضلال المبين .. ماذا عسى أن نصنع بذكائنا في بلد قانع كمصر. قد رضى أهله بالقليل في كل شيء ، فحسبهم من العلم والأدب ، ومن الفلسفة والحكمة ، ألفاظ يلوكونها وجمل يرددونها بين الشفاه ..
ياعجبا كل العجب ، يعود الناس الى بلادهم بعد الغربة فرحين ، ولقد عدت الى مصر آسفا محزوناً ، ولقد أستحي أن أقول الحق فأعلن انى استقبلتها باكياً ..

١٤ نوفمبر ١٩١٥

ليس لى ماض أنعم بذكره ، ولا مستقبل ألهو بالتفكير فيه ، ولكن لى حاضرا يهيج فى قلبى ألوانا من الحزن ، ويفرى بنفسى فنونا من الأسى ، ذلك الحاضر هو هذه الساعة ، أذكر فى هذه الساعة ثلاثة أيام ، يوم ولدت ، ويوم سافرت الى أوربا ، وهذا اليوم ..
فى مثل هذا اليوم ولدت منذ ست وعشرين سنة ، وفى مثل هذا اليوم سافرت الى أوربا منذ سنة واحدة ، وأنا الليلة فى القاهرة أرجو ألا يصبح على الغد الا وقد رحلت الى حيث لا يرجع ظاعن ولا يرجى لمرتحل اياب . لا تصبح ايها الليل عن هذا الغد ..

تلك الأشهر التي أمضيتها في فرنسا هي التي جعلت ليوم ميلادى في نفسى قيمة ما ، فقد رأيت قوما ليس فيهم من لا يتخذ هذا اليوم لنفسه عيدا ..

لم يجب الله دعائى فقد أشرقت على شمس يوم الأحد ، ولو قد أشرقت على هذه الشمس في غير هذا البلد لكنت حريا أن ألقى من أنواع البشر وألوان الابتهاج ما يسر هذه النفس الحزينة ويسلى عن هذا القلب الكئيب ، ولكنها قد أشرقت على فى مصر فأقسم ما لقيت طول اليوم شيئا يسر ، ولقد لقيت كثيرا مما يسوء .. حيا الله وفاء فرنسا وبرها فى هذين الشخصين يذكرا نى من وراء البحر ، فلولا انى قرأت كتابيهما آخر هذا اليوم لأشفقت على نفسى أن أقضى صريع الأسى ..

٢٤ نوفمبر ١٩١٥

فى مثل هذا اليوم منذ سنة كاملة وصلت الى موبلييه ، بلد لم أعهده ولم أكن أقدر أن أراه .. على انى لم أكد أمضى فيه ساعات حتى احتجت الى كتاب فذهبت الى المكتبة ، وأخذت ما أردت ، ودفعت الى البائعة نقدا كان عليها أن ترد الى فضله ، ولم يكن لديها هذا الفضل ، فردت الى ما دفعت اليها وهى تقول : ستؤدى الى ذلك متى شئت ، قلت ولكنك لا تعرفينى يا سيدتى ، ولم ترينى قبل اليوم فانى بمديتك حديث العهد ، قالت مستضحكة :

— لا عليك ..

ما أكثر ما زار الناس أوربا ، وما أكثر ما سعدوا بزيارتها وشققوا بفراقها ، ولكن ما أسرع ما تسلوا عنها وعادوا من حياتهم القديمة الى ما كانوا فيه غير ضجرين ، ولا والهين ، ولكنى أقسم ما تطاولت الأيام على أوبتى الا أذكى تطاولها فى نفسى اللوعة والحسرة ، وضاعف فى قلبى الهم والأسى ..

حتى لقد بغضت الى الوحدة وكره الى الاجتماع
 بغضت الى الوحدة لأنها تذكرنى بتلك الحياة اللذيذة ، فقد عذب فيها
 كل شئ حتى البؤس ، وحسن فيها كل شئ حتى الشقاء
 لو انى رضيت بحظى فى الحياة ، ولم أرحل الى حيث بلوت لذة غير
 دائمة ، وصفوا غير مقيم ، لجنبت نفسى هذه العقبة التى اعترضت
 طريقى ، لقد مللت وأمللت فما آنس الى حديث وما أطمئن الى كتاب

٢٤ ديسمبر ١٩١٥

تركت فرنسا مستعبرا ، واستقبلت مصر مستعبرا ، وأقمت فيها هذه
 الأشهر آسفا محزونا ، لا ينام لى ليل ولا يصفو لى نهار . ضجرا بكل
 شئ ، ضيق الحظيرة بكل نازلة . متبرما حتى بحديث الأصدقاء والأحباء ..
 ما أكثر ما حزنت ، وأنا الآن أتأهب للعودة الى فرنسا ، فما أكثر ما كنت
 خليقا أن أجد من السرور والبشر ومن الغبطة والرضا ، حين دنوت من
 أمل طالما رجوته وطمعت فيه ، ولكنى لا أكذب الناس ولا أخفى على
 الناس ، لا أشعر بهذا السرور ، كما كنت أنتظر أن أشعر به ، انما هو
 سرور يشوبه الخوف ، ولذة يمازجها الألم ، وبشر يخالطه الأسى .. ومالى
 لا أحزن ولا أتألم وأنا عازم على رحلة لا أدرى ماذا أستقبل فيها ..



وبعد ..

فان هذه الصورة التى حاولت أن أرسمها لهذه المرحلة من حياة طه
 حسين تعطى جذور فكره كله فى تحوله ، وتطوره ، تعطى صورة الشاب
 القلق المتطلع الى المجد والشهرة والبروز ، الذى عرف طريقه الى
 الصحافة والأدب ، وعوالم الفكر والجامعة والبحث ، جريئا يكوئن آراءه
 فى أمور الحياة والمجتمع ، ويتأرجح - على حد تصويره - بين المدرستين
 القائمتين فى مصر اذ ذاك : مدرسة التعقيل والبرهان ومدرسة العواطف
 والحماسة ..

ولقد تحول طه حسين في آرائه واختلف مع كثير من أساتذته بعد أن اعتنق المذهب الحديث في الفكر ، على النحو الذي صورته حين قال : « ثم تكون الرحلة الى أوربا والاقامة في باريس في أشد الأوقات حرجا ، وأحفلها بما تغيرت له قيم الأشياء تغيرا تاما ، وإذا كل صلة بيني وبين الشيخ - يقصد الشيخ محمد عبده - قد انقطعت وعفت عليها الأحداث والخطوب وإذا أنا أعود الى مصر رجلا آخر يكبر الاستاذ الامام ويعجب به ويحبه ، ولكنه لا يتابع منهجه ، ولا يجب أن يبقى طريقه في التفكير أساسا للحياة العقلية للشباب »

وقد وقع هذا التحول أيضا بالنسبة لأحمد زكي باشا ، وعبد العزيز جاویش ، والشيخ المهدي والشيخ الخصري

طه حسين بين ضمير الغائب وضمير المتكلم

د. عبد الحميد يونس

لقد حرصت دائماً ، على أن أقرن الترجمة الذاتية الرائعة
المعروفة باسم « الأيام » ، بتلك المحاولة الجريئة الثائرة في
مجال النقد وتاريخ الأدب حول « الشعر الجاهلي » . ولم يكن
من قبيل المصادفة أن تنشر فصول « الأيام » متتابعة في مجلة « الهلال »
عام ١٩٢٦ ، وكأنها استجابة نفسية شرطية للمحنة التي مرَّ بها مؤلفها
بسبب رأيه في انحلال الشعر الجاهلي ، وهي محنة ترددت أصداؤها في
المحافل العامة ، وفي الصحف ، وفي المدارس . وقدم من أجلها المفكر
الجامعي الأول طه حسين إلى النيابة العامة . وهذا الاقتران بين الكتابين
الرائدين يوضحان الطريق بين المواجهة الصريحة للذات ، وبين ما يفرضه
الاطار الاجتماعي على التعبير من رمز أو ما يشبه الرمز ..
وقدر لي في عام ١٩٢٥ أن أتعرف بطريق غير مباشر على أحد ممثلي
الجيل الجديد في الفكر والأدب ، وهو عباس محمود العقاد ، وكان ذلك
عن طريق أستاذ ظل طوال حياته في التعليم يفاخر بأنه كان أستاذاً موجهها
للعقاد ، وهذا المعلم هو الشيخ « فخر الدين » الذي توسم في شخصي
أن أكون شبيهاً بالعقاد في تطلعه إلى المعرفة ، وفي قريحته المعبرة ، وفي
قدرته على حسن الصياغة ، وفي منطقته المقنع الرصين . وأحببت العقاد
منذ ذاك ، وتعلقت بشعره وثره على السواء ، وكنت ممن يطمحون إلى

البحث عن أصول معارفه وآرائه في الآداب الأوربية . وفي العام التالي عرفت طه حسين ، ولكن بوسيلة أخرى لا يتاح مثلها للكثيرين .. أعجبت « بالأيام » ، وقرأت بنفسى فقراتها الأولى .. ثم رددت إليها بعد شهر لأقرأها مجتمعة ، ولعل الأصح أن أقول لأستمع الى قارئ يسيلها الى مسمعى فتجد طريقها محفورا في ذهني ، وكنت أتساءل : لماذا آثر الدكتور طه حسين استعمال ضمير الغائب . وكان يستطيع أن يستعمل ضمير المتكلم ؟.. ولم أعرف الجواب الا بعد أمد طويل ..



ولست أريد أن أعرض لأبعاد العلاقة النفسية بيني وبين « الأيام » وصاحبها ، فقد رددت ذلك في كثير من الفصول والأحاديث وحسبى أن أسجل ان لهذه الترجمة الذاتية وظيفتين أساسيتين : أولاها أنها تعبير عن الذات في مرحلة التكوين وهي أهم مراحل العمر ، وثانيتهما انها تعبير عن موقف نفسى خاص استتبع بالضرورة تداعى صور الطفولة وبواكير الصبا ، فانتزعها من أعماق الذاكرة ، وصورها بما يناسب الموقف النفسى ، وهو الاكبار من شأن الفكر الانسانى والالاحاح على حريته والاستخفاف - بل الاستعلاء - على المحافظة والسلفية والجمود . ولقد ظلت أفسر كتاب « الأيام » على أساس اقترانه بمحنة الشعر الجاهلى ، وكنت أعد ذلك اجتهدا منى يستلزم الظن ، أو الترجيع فى أحسن الأحوال ، حتى اذا طلبت الى الدكتور طه حسين أن يكتب بنفسه مقدمة خاصة للطبعة البارزة منه وجدته يسجل هذه الحقيقة ، وهى انه كان استجابة للهموم الثقالة التى كان يحس بها وقتذاك ابان الاضطهاد الذى وقع عليه من أجل تحرير الفكر باصطناع الشك فى الروايات القديمة التى جعلها المحافظون فى مكان المسلمات والمقدسات والبدعيات ..

والواقع ان مكانة أستاذ الجيل طه حسين انما تحددها المعركة المتواصلة فى سبيل الحرية ، وأيا كانت المحاولات التى بذلت فى نقد كتاب « الأيام » ومحاوله التعرف على أبعاده ، فان القليلين هم الذين يستطيعون أن يتبينوا

ان ظرفه الخاص ، كان بعيد الأثر في استشعاره بذاته أولا ، ويمكن هذه الذات من الأطر الاجتماعية في الحياة ثانيا ، وفي اندفاعه . انطلاقا من واقعه وتحديا له ، يحقق ذاته بالدعوة الى حرية الفكر وبالالحاح على تعقيل الحياة ، وهذه هي الأصول التي يقوم عليها منهجه المعروف في النقد وتاريخ الأدب . ويرتكز عليها عمله في الجامعة وفي الحياة العامة . وتستند اليها دعوته الى الثقافة والتوير واشاعة المعرفة لكل طالب علم ..



ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان صاحب « الأيام » ، في مواجهته لتحديات الظروف والأوضاع ، قد قام بما يشبه العمل الخارق . فان تحوله الى الجامعة المصرية القديمة التي فتحت أبوابها عام ١٩٠٨ ، كان بمثابة الانتقال المفجائي من بيئة محافظة سلفية أحالت ، أو كادت تحيل ، العقول الى أجهزة تجتر المحفوظ من الأقوال والصيغ والروايات ، الى بيئة أخرى تكبر من شأن الفرد وتحترم قدرته على التفكير ، وتعينه على التقويم والنقد وتدفعه الى الابتكار اذا كان من أصحاب الاستعداد له ، وتفتح له أبواب البحث لكي يضيف الى العلم جديدا . والحق ان الرائد العظيم استطاع أن يقوم التراث العربي ، تقويما يضعه في مكانه من تاريخ حضارة الانسان ..

واذا كان كتاب « الأيام » يعد تصويرا لموقف المؤلف من المحافظين بسبب الشعر الجاهلي ، فان كتاب « أديب » يمكن أن يعد هو الآخر تصويرا لموقف السلطة من الفكر الحر حين لم تجد أمامها غير إحالته الى « المعاش » وكأنها تصورت ان الفكر جهاز مادي مرتبط بظروف تقيده بالعمل ، ونسيت أن إبعاده عن منبر الجامعة أتاح له أن يشع نوره عن طريق الصحافة . وكما تصورت من الواقع التاريخي ، ان نشر « الأيام » في مجلة « الهلال » عام ١٩٢٦ يوضح التجربة النفسية للمؤلف فكذا تصورت ان صدور كتاب « أديب » عام ١٩٣٤ يوضح هو الآخر موقفه من السلطة التي أبعدته عن الجامعة . ولست أنسى ان الشبان

الأربعة الذين ترجموا دائرة المعارف الإسلامية هم الذين نهضوا بمسئولية نشر هذا الكتاب الأخير عام ١٩٣٤ ، ولذلك يضاف الى كتاب «الأيام» باعتباره حلقة من حلقات الترجمة الذاتية .. وان كان الأمر فيها يختلف بعض الاختلاف ، لأننا نجد القدرة على التحول من ضمير الغائب الى ضمير المتكلم ، وان لم يخل التصوير من الاحالة على شخصية أخرى ، ومن الاقتراب الى الرمز الفنى ..



وحسبى ان أسوق هذه العبارة الصريحة : « كنت أريد أن أكون شيخا من شيوخ الأزهر مجددا فى التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون بالشيخ محمد عيده . أستعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافا عن الأزهر ونفورا من دروسه وشيوخه ، وحرصا على أن أهجّر مصر وأعبر البحر الى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه » ..

وقد تعجب اذا قلت ان تفرغى لدراسة الأدب الشعبى العربى ما هو الا امتداد لمنهج أستاذى طه حسين فى تقويم الأدب ، وقد سبقنى على هذا الدرب جامعيون لا ينكر فضلهم فى هذا الميدان بحال من الأحوال ، فقد واجهت الدكتورة سهر القلماوى حكايات « ألف ليلة وليلة » بالتحليل والنقد ، وعرضت لمكوناتها ومقوماتها ومدى تأثيرها فى الآداب العالمية ، وعكف الدكتور فؤاد حنين على « قصصنا الشعبى » وتوقف عند سيرة « عنتره » وغيرها وفضل الكلام على التمثيل غير المباشر المعروف بخيال الظل ، وقدم تمثيلات لم تكن معروفة من قبل الا للقليلىين من المتخصصين .. ولم يكن من المستطاع أن تستوعب الدراسة الجامعية هذه المآثورات الشعبية ، لولا ان منهج طه حسين قد مهد الطريق للتعرف على وجوه التعبير فى ما يسمى باللهجات العامية ، ومن اشاراته فى كتاب

« الأدب الجاهلي » الذي تقح به « الشعر الجاهلي » قوله : « .. ان في لغتنا المصرية لهجات مختلفة وأنحاء متباينة من أنحاء القول ، فلاهل مصر العليا لهجاتهم ، ولأهل مصر الوسطى لهجاتهم ، ولأهل القاهرة لهجتهم ، ولأهل مصر السفلى لهجاتهم . وهناك اتفاق مطرد بين هذه اللهجات وبين ما للمصريين من شعر في لغتهم العامية ، فأهل مصر العليا يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل القاهرة ولا أهل الدلتا ، وهؤلاء يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل مصر العليا ، وهذا ملائم لطبيعة الأشياء . فما كان للشعر أن يخرج عما ألف أصحابه من لغة ولهجة في الكلام .. »



وعلى الرغم من ان الجامعى الاول قد حدد مهمته منذ اللحظة الأولى بدراسة النصوص القصيدة وحدها ، الا انه كان يشير أحيانا الى الآداب الشعبية ، ولم تكن اشاراته عارضة ولا على سبيل الاستشهاد ، ولكنها كانت بمثابة توجيه النظر مع الموازنة بينها وبين الأشكال الأدبية الرسمية ، وكان طبيعيا أن يكبر من شأن القصة باعتبارها شكلا ممتازا من أشكال التعبير الأدبي ، في الوقت الذي كان المحافظون يحتقرونها ويؤثرون عليها ما ألفوا من اعتبار اللغة والأدب وسيلة الى فهم القرآن والسنة والتاريخ وطه حسين الذى تخصص فى الآداب اليونانية واللاتينية ، والذى فام بتدريس التاريخ اليونانى والرومانى قد استغل التقاليد الكلاسية فى تقويم الأدب العربى ، ومن اشاراته الى عراق القصة العربية قوله : « والقصص فى نفسه ليس من السياسة ولا من الدين ، وانما هو فن من فنون الأدب العربى ، توسط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية ، وكان مرآة للون من ألوان الحياة النفسية عند المسلمين ، وأزهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية ، أزهر أيام بنى أمية وصدرا من أيام بنى العباس ، حتى اذا كثر التدوين وانتشرت الكتب واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال الى مجالس القصص ضعف أمر هذا الفن ، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئا فشيئا حتى

ابتذل وانصرف عنه الناس « وظل هذا الابتذال دهرًا طويلًا حتى ان مصطفى لطفى المنفلوطى كان يخفى بعض كتاب « الأغاني » فى عب ققطانه خوفًا من شيوخ الأزهر !

وأنت تجد فى الموضع نفسه من كتاب « الأدب الجاهلى » هذه الفقرة التى لها مغزاها البعيد فى الاعتراف بمكانة القصة العربية وعراقتها . وهذه الفقرة هى : « .. ومهما تكن الأسباب التى دعت الى نشأة فن القصص عند المسلمين ، فقد نشأ هذا الفن ، وكانت منزلته عند المسلمين هى بعينها منزلة الشعر القصصى عند قدماء اليونان ، وكانت الصلة بينه وبين الجماعات هى بعينها الصلة بين الشعر القصصى اليونانى وجماعات اليونان القدماء » . وليس من العجيب اذن أن يمهّد طه حسين للجامعيين بعدء دراسة الآداب الشعبية بصفة عامة والملاحم أو السير الشعبية بصفة خاصة ، فيعكفون على دراسة « عنتره بن شداد » و« سيف بن ذى يزن » و « بنى هلال » ، ومنهم من يطوع تلك النصوص لأغراض التعبير فى العصر الذى نعيش فيه ، ومنهم من يستلهمها لتكون عنده بمثابة المادة الأولى التى يعيد صياغتها بقريحته المعبرة ..



وان اعتماد طه حسين على حاسة السمع قد مكّنه من تصحيح مفهوم اللغة تصحيحًا يخلصها من ذلك التصور الخاطىء الذى يراها صورًا ورموزًا تقرأ بالعين فحسب ، مع ان هذه الصور وتلك الرموز عبارة عن وسيلة تعسفية للتسجيل ، وانها ، مهما بلغت من الضبط والاحكام ، لا تستطيع أن تحكى تفاصيل اللغة التى تقوم على التبر والايقاع ، والتى تركز على الموسيقى . ولقد أخطأ الذين يسلكون أستاذنا طه حسين فى عداد الكتاب وأصح من ذلك أن يأخذ مكان الصدارة من الأدباء . واذا كان يتلقى المعرفة والتعبير عن طريق الأذن ، فهو أيضا يبعث المعرفة والتعبير عن طريق الصوت المسموع ، ومن هنا يكون من الضرورى أن نغنى بالنبرة والايقاع عنايتنا بالتراكيب اللفظية .. ان أسلوب طه حسين له

أبعاده التي تتجاوز المصطلح اللغوي ، وهي أبعاد موسيقية .. ولقد عنّ لبعض تلاميذه - وأنا واحد منهم - أن يخضعوا أسلوبه للتقطيع الموسيقي فأدهشتهم أن يجدوا ان كثيرا من فقراته يمكن أن تخضع حتى لعروض الشعر العربي التقليدي ، وكأنها نظم مرسل بلا قافية ، وكان منا واحد تخصص في الغناء ، فانتخب فقرات من « دعاء الكروان » ولحنها ورجعها على سامعنا كما يفعل المغنون بالقصيد ..



ومن هذه النقطة نلمح ادراكه منذ البداية للعلاقة الوثيقة بين الشعر والموسيقى . وها هو يسجل رأيه صريحا في كتاب « الأدب الجاهلي » أيضا فيقول : « والشيء الذي يظهر ألا سبيل الى الشك فيه هو ان وزن الشعر العربي كوزن غيره من الشعر ، انما هو أثر من آثار الموسيقى والغناء . فالشعر في أول أمره غناء . ومن ذكر الغناء فقد ذكر اللحن والنغم والتقطيع . أو قل بعبارة موجزة : فقد ذكر الوزن . والواقع اننا لا نعرف من تاريخ الأمم القديمة ان الشعر والموسيقى قد نشأ مستقلين ، وانما نشأ معا ونما معا أيضا ، ثم استقل الشعر عن الموسيقى فأخذ ينشد ويقرأ ، وظلت الموسيقى محتاجة الى الشعر في الغناء مستقلة عنه في الايقاع الخالص ، أو قل ظل الغناء نقطة الاتصال بين هذين الفنين » ..

وكان طبيعيا أن يشدو طه حين في بواكير حياته الأدبية بالشعر ، وأن تجد قصائده طريقها الى المحافل العامة ، ذلك لأن أذنه المرهفة قد سرت له من غير شك ، ادراك الاطار الموسيقي العام للشعر العربي التقليدي ، كما ان تلك المرحلة من مراحل سيرته الأدبية من طبيعتها أن تعتصم بالتقليد ، فاذا أضفنا الى هذين السببين ان الأذن أكثر محافظة من العين ، اتضح لنا الباعث على اثاره للقوالب المألوفة في النظم العربي ، وفهمنا لماذا يتخذ في أسلوبه النثرى أبعاد المصارع والأيات الكاملة والمجزوءة في أكثر الأحيان .. ولقد دعتني هذه الحقيقة الى إعادة النظر في مفهوم الشعر ، وأنا أعترف بأن الموسيقى جزء لا يتجزأ من المضمون

التعبيرى فى اللغة اللسانية.. الموسيقى توجد فى كل ما يصدر عن الانسان من كلام ، وليس الشعر هو الذى يستأثر بالعنصر الموسيقى دون النشر الفنى ولا بد من البحث عن مقوم آخر يرتبط بمدى الموسيقى فى التعبير ، لكى نفرق بين الشعر وبين النشر الفنى ..



وما نريد الاسترسال فى هذه المسألة التى قد تبدو خلافية بين الأدباء والنقاد ، ولنعد من حيث بدأنا ، فقد استعمل أستاذ الجيل ضمير الغائب فى كتاب « الأيام » للأسباب التى أوضحتها فى صدر الحديث ، وكان من المنطقى للجيل الذى كرر بعده ، أن يستعمل ضمير المتكلم تحقيقا لتجربة مماثلة ، وأشهد اننى ظللت ثلاثين عاما أحاول مواجهة تجربتى مواجهة مباشرة وتفصيلية بضمير المتكلم . وكنت كلما بلغت قمة التجربة شعرت بالعجز عن مواصلة التعبير ، مع وجود الحافز ووضوح الرؤية ، والقدرة على الصياغة .. وهأنذا الآن أتغلب على تلك الصعوبة النفسية فأستعمل ضمير المتكلم فى تصوير « التجربة الأولى » لكى أقدمها الى صاحب « الأيام » .. واذا كان قد أثار لى الطريق الذى سلكته لأكون رائدا متواضعا فى دنيا الفكر والأدب ، فإن من حقى أن أقدم له أيضا رائدا فى الجيل الصاعد يتخصص مثله فى الأصول الكلاسية لحضارة الانسان ، ويبدل جهده فى تقويم الفكر وتحقيق التجربة بالفن الأدبى ..

طه حسين المؤرخ الإسلامى

ابراهيم الابيارى

لا أحب أن أدخل الى هذا الحديث دون أن أذكر شيئاً عن التاريخ علماً ، ومدارسه ، ليستوى لى بعد ذلك الحديث عن المؤرخ .. والحديث عن التاريخ علماً يردنى الى الوراء قليلاً لأعرض ما قيل حول أصل هذه الكلمة ..

فماجنا اللغوية تذكر الكلمة وتذكر لها أفعالا وكلها تدور حول التوقيت ، يقول الجوهري : التاريخ : تعريف الوقت . والتورخ مثله ، يقال : أرخت وورخت

ويزيد الأصمعي فيقول : بنو تميم يقولون : ورخت الكتاب تورخا ، وقيس تقول : أرخته تأريخا

ونحو هذا أو قريب منه تردد في معاجنا العربية ، غير أن فى بعضها مزيدا يشير الى أن ثمة شكاً فى أصل الكلمة ، من ذلك قول الجوهري : قيل اشتقاقه من الأرخ ، بفتح الهمزة وكسرهما ، وهو صغار الأتشي من بقر الوحش ، لأنه شئ حدث كما يحدث الولد

وهذا التأويل الذى ارتضاه نفر لم يطمئن اليه نفر ، فنجد أبا منصور الجوالقي يقول فى كتابه « العرب » : يقال ان التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض ، وإنما أخذه المسلمون من أهل الكتاب

ونجد من بعد الجواليقي من يملك أن يقولها صريحة ، وهو محيى الدين محمد بن سليمان الكانيجي فيقول في كتابه « المختصر في علم التاريخ » : « ولقطة التاريخ معربة مأخوذة من « ماه روز »

والأصل فيه أن أبا موسى الأشعري كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : انه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندرى على أيها نعمل ، قد قرأنا صكا محله شعبان ، فما ندرى أى الشعبان هو ؟ أهو الماضى أو الآتى ؟ ..

وقيل انه رفع الى عمر صك محله شعبان فقال : أى الشعبان هذا ، أهو الذى نحن فيه أو الذى هو آت ؟ ثم جمع وجوه الصحابة وقال : ان الأموال قد كثرت ، وما قسمناه غير مؤقت فكيف التوصل الى ما يضبط به ذلك ؟ فقال الهرمزان ، وهو ملك الاهواز ، وقد أسر عند فتوح فارس وحمل الى عمر وأسلم على يده : ان للعجم حسابا يسمونه ماه روز ، ويسندونه الى من غلب عليهم من الأكاسرة ، فعربوا لفظة ماه روز بمؤرخ وجعلوا مصدره التأريخ ، واستعملوه في وجوه التصريف .. واتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الاسلام من لدن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد ..

وثمة احتمال أن الكلمة من أصل سامى يعنى القمر أو الشهر ، فهى فى الأكديّة « أرخو » ، وفى العبريّة والآرامية « يرخ » ، ولكن هذا الاحتمال عليه ما يدفعه لاستبعاد استعارتها من الأكديّة ، ثم لوجود الياء فى الصورتين العبريّة والآرامية . والذين يدفعون هذا بهذه الأسباب يرجحون أن الكلمة من العربيّة الجنوبيّة ، ويستندون فى هذا الى ما يروى من أول من أرخ التاريخ بعلى بن أمية حين كان باليمن ، فلقد كتب الى عمر كتابا من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر فشرع فى التأريخ هذا الى أن ثمة نقشا عريبا جنوبيا كشف عنه أخيرا ، فيه جذر لهذه

الكلمة (أرخ) وهو في هذا النقش يحتمل معنى قريباً من معناه في العربية ..

ونحن اذا نقبنا في الأدب الجاهلي لا نجد لهذه الكلمة « تاريخ » ذكر فيها ، كما لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم ولا في الحديث الشريف . ونجد أن الحديث الوحيد الذي أشار الى التقويم الاسلامي ذكر كلمة « عد » ولم يذكر كلمة « أرخ » . يروي البخاري في صحيحه يقول : حدثنا عبدالله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز عن أبيه عن سهل بن سعد قال : ماعدوا من بعث النبي ولا من وفاته عددا الا من مقدمه المدينة (١).

وهذا ما يرجح ما أشرنا اليه من قبل من أن دخولها في الآداب العربية كان مع دخول التقويم الهجري على يدى عمر بن الخطاب . وثمة ورقة بردى يرجع تاريخها الى سنة ٢٢ هـ ، وأظنها أقدم ما انتهى اليها من مدونات ذلك التقويم الهجري - وانها لم تعرف طريقها الى الآداب العربية قبل ذلك مع أن العرب في جاهليتهم كان لهم توقيت يربطونه بهبوط آدم . ثم بالطوفان ، ثم بنار الخليل عليه السلام ، ثم بزمان يوسف عليه السلام ، ثم بخروج موسى عليه السلام من مصر . ثم بزمان داود عليه السلام ، ثم بزمان سليمان عليه السلام . ثم بزمان عيسى عليه السلام ، وهم في الاشارة الى هذا كله لم نجد في استعمالهم كلمة « تاريخ » ..

ومنذ القرن الثانى الهجرى أخذت كلمة « تاريخ » معنى جديداً غير ذلك . المعنى الذى بدأت به ، وهو الدلالة على وقت الشئ وزمنه ، فأصبحت تطلق على الكتاب التاريخى ، وكان مما هيأ هذه الكلمة لهذه الدلالة أن الكتب التى كانت تطلق عليها كانت تحمل أزمناً ، وكان كل كتاب لا يحمل هذه الأزمنة لا يسمى كتاب تاريخ ، وهكذا كان ذكر سنى الولادة وسنى الوفيات فى هذه الكتب سبباً لهذه التسمية ومبرراً لدخول هذه الكلمة.

إلى هذا المعنى الجديد ، ثم أخذت تتسع لكل كتاب في التاريخ وإن لم يحمل مثل تلك الأسباب . وكان ذلك منذ القرن الثالث الهجري

غير أن التاريخ لم يأخذ مكانه علما بين العلوم إلا متأخرا ، وأكبر الظن أن الكندي يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ) — وكان أسبق المؤلفين إلى تعداد العلوم — لم يعرض له في كتابيه « أقسام العلم الانسى » و « ماهية العلم وأصنافه » إذ لو كان فعل لتأثر به من جاء بعده مثل الفارابي محمد بن محمد بن طرخان (٣٣٩ هـ) في كتابه « احصاء العلوم » ، وابن سينا الحسين بن عبدالله (٤٢٨ هـ) في كتابه « رسالة في أقسام العلوم العقلية » ..

وبقى هذا ديدن من جاء بعدهم ، مثل ابن عبد البر يوسف بن عبدالله (٤٦٣ هـ) فلم يذكره هو الآخر في كتابه « جامع بيان العلم » ثم الأكفاني محمد بن ابراهيم (٧٩٤ هـ) في كتابه « ارشاد القاصد إلى أسمى المقاصد » فنجاه لا ينظر إليه علما مستقلا . وعلى نهج الاكفاني نرى معاصره الذهبي محمد بن أحمد (٧٤٨ هـ) لا يذكره في كتابه « بيان زغل العلم » الذي يتحدث فيه عن العلوم

غير أننا نجد في القرن الذي أظل ابن عبد البر رجلا آخر هو ابن حزم على بن أحمد (٤٥٦ هـ) حين يضع كتابه « مراتب العلوم » يعرض فيه لعلم التاريخ فيقول : العلوم القائمة اليوم سبعة أقسام عند كل أمة وفي كل مكان وزمان : علم الشريعة ، وعلم أخبارها (وهو يعنى علم تاريخها) ويتبعه الرازي فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦ هـ) فيذكره في كتابه « جامع العلوم » ويجعله العلم الثالث عشر ، ثم يتناوله الصفدي خليل ابن أبيك (٧٦٤ هـ) في مقدمته لكتاب « الوافي بالوفيات » وكذلك ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) في مقدمة تاريخه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ثم المقرئ أحمد بن علي (٨٤٥ هـ) في كتابه « الخبر عن البشر »

ومن بعد هؤلاء جميعا نجد الكامنجي محمد بن سليمان (٨٧٨ هـ)

يقول في كتابه « المختصر في علم البشر » : « وأما علم التاريخ فهو علم يبحث عن الزمان وأحواله وعن أحوال من يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته » . وهذا التعريف على ما فيه يعد أول اعتراف بعلمية التاريخ ويعد الكامنجي به أول من عد التاريخ علما من العلوم ..

ولقد كان كتاب الكامنجي هذا هو المدد الذي استمد منه السخاوي محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ) كتابه « الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ولعل الكامنجي قد أفاد هو الآخر من كتاب « نقائس الفنون في عرائس العيون » للعالم الفارسي محمد بن محمود الآملي (٧٤١ هـ) فقد كان للتاريخ مكانه بين العلوم الدينية والاسلامية وبين العلوم الأدبية العربية . وقد سمي التاريخ « علم التواريخ والسير »

وهذا الذي تعرض له التاريخ في الشرق تعرض لمثله في الغرب ، وما نراههم فرغوا من ذلك أو كادوا الا منذ عهد قريب . فقد كان الفلاسفة الطبيعيون يعدونه دون العلم بكثير على حين كان رجال الأدب يعدونه فوق العلم بكثير . وكان الفلاسفة الطبيعيون يحتجون لرأيهم بأن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتجديد ، وانه من غير الميسور أن نعين وقائع التاريخ معاينة مباشرة . وان الاختبار والتجربة أمران غير حاصلين في الدراسة التاريخية . وان كل واقعة من واقعات التاريخ المسلم بها قائمة بذاتها . وليس في الامكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها ، وانه من أجل ذلك لن يتأتى تقسيم الواقعات على وجه الدقة ، وانه غير ممكن أن نصل في التاريخ الى شيء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية ، وان مادة التاريخ بعد ذلك كله مركبة تركيبا لا نهاية له ، وانه ليس ثمة اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الواقعات وما ليس بهام ، وان عنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق ويحبط كل محاولة ترمى الى توقع الحوادث والاخبار بها قبل وقوعها كما كان رجال الأدب يذهبون الى أن التاريخ سواء أكان علما أم غير علم فهو لا ريب فن من الفنون ، وان العلم بالغا ما بلغ لا يعطينا من

التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة ، وانه لا مندوحة عن خيال الشاعر .
اذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها ، فاذا ما أحيانا الخيال فهي .
بحاجة الى دقة براعة الكاتب التحرير لتبرز في الثوب اللائق بها وتعرض .
بحيث تصبح قوة فعالة في عالمنا هذا ..

ثم ينتهون الى ان التاريخ يتضمن أشياء ثلاثة : الأشخاص الذين
حولهم يدور الحديث بما أوجدوه ، الحديث الذي يصور هذا ، البحث
والاستقصاء وطلب الحقيقة ..

وهم فيما انتهوا اليه لم يبعدوا عما انتهى اليه المشاركة في ذلك . فمثل
هذا قاله الكامنجي في كتابه « المختصر في علم التاريخ » والسخاوي في .
كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » . وهو مما يثبت ان التاريخ
علم . وهو ليس كالفلك علم معاينة ومباشرة ، ولا كالكيمياء علم تجربة
واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، أقرب شبا بعلم « الجيولوجيا »
فكما ان الجيولوجي يدرس الأرض كما هي ليعرف جاهدا كيف انتهت
الى ما هي عليه ، كذلك المؤرخ يدرس آثار السالفين ليفسر بها ما عليه
الحاضرون ، وكما ان الجيولوجي يجد مادته فيما سلم له من بقايا أدلة
في الطبيعة تدل على التطورات . كذلك المؤرخ يعتمد في تعرف الماضي .
بآثار مادية أو نقوش أو صكوك سلمت من عوادي الزمن

فالتاريخ ليس علما من العلوم الفيزيكية كما قلت لك يعتمد على المعاينة
والتجربة ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، ومواده كما رأيت ليست المواد التي
فנית وانقطع وجودها بل المواد التي لا تزال موجودة ، سواء أكانت .
روايات تحدث بما وقع ، أم بقايا أشياء كانت موجودة ، أم نتائج أحداث
حدثت . وتكاد مراحل استقراء التاريخ تنحصر في ثلاث مراحل :

- ١ - المرحلة الأولى : مرحلة التجميع ، أي تجميع المواد
- ٢ - المرحلة الثانية : مرحلة النقد ، أي مناقشة ما جمع
- ٣ - المرحلة الثالثة : مرحلة التأويل ، وهي أشق المراحل كما يقولون ،

اذ على المؤرخ فيها أن يجمع من أشتات الخيال صورة أقرب ما تكون الى الحق ..

هذا ما أثاره « هرثسو » أستاذ التاريخ بجامعة لندن في أوائل القرن العشرين الميلادي ، وتكاد آراؤه هذه وآراء غيره التي ضمنها كتابه « علم التاريخ » مما تناوله من قبله مؤرخون شوقيون ، مثل الكامنجي والسخاوي مع اختلاف في العرض كما قلت لك ، فهم حين يعرفون التاريخ يقولون :

من يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثة التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم

وحين يتناولون موضوعه يقولون :

وأما موضوعه فالانسان والزمان . ومسائله : أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للانسان وفي الزمان
وحين يعرضون لفائدته يقولون :

وأما فائدته معرفة الأمور على وجهها مع الضبط والتوثيق وما أشبههما .
مما مرجعه الفحص عن الأحوال

وهم يشترطون في المؤرخ شروطا فيقولون :

وأما شرط المعنى به فالعدالة مع الضبط التام الناشئ عنه مزيد
الاتقان والتحري ..

ويحضرني هنا قول التاج السبكي في كتابه « معيد النعم » : « وهم ... أي المؤرخون - على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق ، فلا بد أن يكون المؤرخ عالما عادلا عارفا بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ولا من العداوة ما قد يحمله على الغضب منه »

ثم هم يرون ان هذا العلم تشارك فيه علوم أخرى .. يقول السخاوي :

« ويستفاد من أنباء هذا الفن ما لعله يندرج في علوم آخر كالسياسة ،

الذي يتعرف منه أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات الفاضلة

والمردية ، وكعلم الأخلاق الذى تعلم منه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها ، وكعلم تدبير المنزل الذى تعلم منه الأحوال المشتركة بين الانسان وأهله .. »

وهذا العلم الذى اكتمل للعرب على أطوار، كما مرّ بك ، وأصبح من أجل العلوم العربية شأنًا . بدأ أول ما بدأ أحاديث يتناقلها سكان البوادي ويخط بعضها سكان الحواضر في اليمن والحيرة ..

وحين أطل الاسلام الجزيرة العربية وخط الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته وجهاده صفحات الرسالة أصبح للعرب تاريخ تتوفر فيه المراحل الثلاث التى أشرت اليها من قبل . وهى التجميع . ثم النقد ، ثم التأويل . لم تأخذ هذه المراحل معاً على أقدار واحدة ، بل كانت المرحلة الأولى وهى التجميع . هى الغالبة ، وحين امتد بالعربى الزمن شيئاً فشيئاً أخذت المرحلتان الثانية تغلبان ..

وكان هذا التاريخ الذى أخذ العرب فيه وبدءوا به ، خاصاً بسيرة هذا الرسول الكريم ، وكان أول من كتب فيه عروة بن الزبير بن العوام (٩٣ هـ) ثم أبان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ) ثم وهب بن منبه (١١٠ هـ) وشرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) .

ومن بعد هؤلاء كان محمد بن اسحاق (١٥٢ هـ) ومحمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) اللذان انتهى اليهما علم السير والمغازى ، وللأول منها كتاب السيرة الذى اختصره من بعده ابن هشام بن عبد الملك (٢١٨ هـ) ، وللثانى - اعنى الواقدي - كتاب المغازى ..

وهذه السيرة الكريمة التى شملت حياة الرسول ما لبثت أن اتسعت لحياة الأمة العربية المسلمة، وأخذت تدخل فى التدوين التاريخى بمعناه العام . لا أعنى ان هذا البدء بالتأليف فى السيرة عوق غيره الى أن اكتمل ، بل أعنى ان هذا البدء أملى غيره وانه جاء سابقاً وجاء غيره لاحقاً ..

ولم يأخذ التاريخ العربى معناه العام طرفة بل هو حين اتسع لغير السيرة أخذ فى أطراف أخرى قريبة مثل سير الأشخاص وأنسابهم وطبقاتهم

يعنى بهذا كثيرا ويعنى بما يقربه من معناه العام فنيلا . وتعنى به التاريخ المتكامل الذى يجتمع فيه هذا كله ولا يكون فيه بعضه مقصودا لداته ولم يتأخر الزمن بالعرب كثيرا الى أن يبلغوا هذا المبلغ المتكامل فى التاريخ . فلم يكد يظلمهم القرن الثالث الهجرى حتى رأى من بينهم من توفرت لهم أسباب هذه الدراسات التاريخية المتكاملة مثل ابن قتيبة عبد الله بن مسلم (٢٧٠ هـ) صاحب كتاب المعارف . والبلاذرى احمد ابن يحيى (٢٧٩ هـ) صاحب كتابى فتوح البلدان وأنساب الأشراف . واليعقوبى أحمد بن يعقوب (٢٧٨ هـ) صاحب التاريخ المنسوب اليه ، والدينورى أحمد بن داود (٢٨٢ هـ) صاحب الأخبار الطوال ، وابن جرير الطبرى محمد (٣١٠ هـ) صاحب تاريخ الأمم والملوك ..

وحين أخذت الوحدة السياسية تتداعى منذ منتصف القرن الثالث الهجرى ، وأخذت الدولة العربية الكبيرة تنقسم دويلات ، وأخذت ثمة مدن تبرز الى الوجود لتزاحم بغداد عاصمة الخلافة ، أخذ التاريخ هو الآخر طابع العصر واذا هو يعنى بأقاليم لا بدولة واحدة ، وكان منه ما هو خاص بمصر مثل ولاية مصر وقضاتها للكسندى محمد بن يوسف (٣٥٠ هـ) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى أبى بكر أحمد بن على (٤٦٣ هـ) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر أبى القاسم على بن الحسن (٥٧١ هـ) ..

غير ان هذا لم يحل بين التاريخ العام وبين أن يمضى فى سبيله ، فترى :المسعودى أبا الحسن على بن الحسين (٣٤٦ هـ) يضع كتابه أخبار الزمان ثم مختصره الذى سماه مروج الذهب ، كما ترى ابن مسكويه أبا على احمد بن محمد (٤٢١ هـ) يضع كتابه تجارب الأمم ، ثم ابن الأثير أبا الحسن على بن محمد (٦٣٠ هـ) يضع كتابه الكامل فى التاريخ ، ثم أبا الفدا اسماعيل بن على (٧٣٢ هـ) يضع كتابه المختصر فى أخبار البشر

وحين منيت الدولة الاسلامية الكبيرة بالغزو المغولى ثم بخروج الأندلس من حوزتها ، وأحس العالم العربى ثقل الخطوب أحسها معه-

المؤرخون ، فاذا هم يملون عز، فلسفة وفكر، وذلك مثل ما فعله ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) في مقدمة تاريخه العبر ، وأخذ التاريخ تجتمع له مراحل التي تم بها أن يكون علما ، وأخذ المؤرخون في مرحلتى النقد والتأويل بعد مرحلة التجميع ، وكان من ذلك ما كتبه الصفدى خليل ابن ايبك (٧٦٤ هـ) في مقدمته لتاريخه الوافى بالوفيات ثم الكامنجى فى كتابه المختصر فى علم التاريخ ، والسخاوى فى كتابه الاعلان بالتوييح لمن ذم التاريخ ، كما أشرت الى ذلك من قبل ..

وأنا أعنى هنا النقد بمعناه التاريخى الخاص : ومناقشة الأحداث التاريخية فى دلالاتها لا فى صحة رواياتها ، اذ هذا المعنى الثانى - وأعنى صحة الروايات - نشأ فى التاريخ العربى مع مرحلة التجميع لم يخلف عنه ، فلقد كان التاريخ العربى منذ نشأته خاضعا لأسلوب المحدثين ومنهجهم ، يروى الخبر موصولا برجاله الذين رووه كما يروى الحديث يجرح الراوى هنا أو يعدل كما يجرح الراوى ويعدل فى الحديث . فكان النقد خاصا بالراوى أكثر مما هو خاص بالمروى ، ولكن حين استقام التاريخ علما أصبح النقد خاصا بالمروى خالصا له بعد أن عز تتبع الرجال وتعرف أحوالهم وبعد أن أصبح الخبر حقيقة تناقش بعد أن كان شيئا يؤثر فحسب ..

وقد اضطرت الطريقة الأولى المؤرخين العرب الى عرض أخبارهم كما يمليه أسلوب الرواية ، وقد يروى الخبر مرة ومرة اذا اختلف رواته وبهذا حرمت الأخبار من عرضها عرضا متصلا يجتمع الخبر الى الخبر لينساق من هذا حديث متصل يحمل رأى احقاقا وابطالا ..

ولقد نشأت فى ظل هذين النهجين مدرستان : مدرسة أخذت بسوق الأخبار على ترتيب السنين ، وكان شيخ هذه المدرسة الهيثم بن عدى (٢٠٧ هـ) ، ومدرسة التزمت بسوق الأحداث على مساق القصة مرتبة على العهود ..

وانك لتحس الفرق بين المساقين فيما كان على أيدي رجال المدرسة

الأولى الذين كان منهم الطبرى محمد بن جرير (٢١٠ هـ) وابن مسكويه
 أحمد بن محمد (٤٢١ هـ) وابن الأثير على بن محمد (٦٣٠ هـ) وأبو الفدا
 اسماعيل بن على (٧٣٢ هـ) وما كان على أيدي رجال المدرسة الثانية
 الذين منهم اليعقوبى أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (٢٧٨ هـ) والديثورى
 أحمد بن داود (٢٨٢ هـ) والمسعودى على بن الحسين (٣٤٦ هـ) وابن
 خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ)

وكان منهج المدرسة الثانية هو الأساس للتمييز النقدى الذى استوت
 به للتاريخ مرحلته الثانية ، وهى مرحلة النقد بمعناها الخاص . أغنى
 النظر فى المروى لا فى الراوى . ولكنها لم تكتمل الا متأخرة على الرغم
 من أنها أخذت فى الأسباب مبكرة . لأنها على الرغم من انفصالها عن
 الأولى الا انها كانت تملى متأثرة بها ..

وحين أهل القرن التاسع عشر الميلادى ونزح الفرنسيون عن مصر ،
 وأخذت الحياة تنتعش بعد خمود ، والأفكار تستيقظ بعد سبات ، وظهرت
 ثمة كتب فى التاريخ مترجمة عن اللغات الأوربية مثل كتاب أسباب قيام
 دولة الرومان وانحطاطها ، الذى نقله الى العربية حسن الجبيلى ، وهو أول
 كتاب فى فلسفة التاريخ ، ثم كتاب روح الشرائع لمونتسكيو ، وتاريخ
 فرنسا العام . أخذت فكرة النقد التاريخى تقوى وكسب المؤرخون العرب
 بما قرأوا كسبا جديدا أعانهم على املاء جديد وتشتت مدرسة فى التاريخ
 استوى لها أسلوب متميز كل التميز ، وكان من رجال هذه المدرسة
 الجبرتى عبد الرحمن بن حسن (١٢٤٠ هـ) وله كتابه المعروف « عجائب
 الآثار فى التراجم والأخبار » ويعرف بتاريخ الجبرتى ، أرخ فيه للقرنين
 الثانى عشر والثالث عشر الهجريين ، ثم كتابه « مظهر التقديس بذهاب
 دولة الفرنسيين » ومن بعد الجبرتى كان الالوس شهاب الدين محمود
 (١٢٧٠ هـ) ومحمد يرم التونسى (١٣٠٧ هـ) ثم على مبارك (١٣١١ هـ)
 صاحب الخطط التوفيقية ، ثم جرجى زيدان (١٩١٤ م) ومن كتبه
 « تاريخ مصر الحديث » ..

ولم تشغل هذه المدرسة الحديثة بالتاريخ الحديث وحده كما يبدو لك مما عرضنا من بعض مؤلفاتهم ، بل منهم من كان له في الماضي البعيد مؤلفات ، ولكن على غير الأسلوب الأول ، والمؤرخ كما يشغل بحاضره يسجله لن ينسى ماضيه يذكر ما فيه ، وقد يكون هذا الماضي جزءا من الحاضر وأساسا له لا يمكن الحديث عن الحاضر دون التمهيد به وذكر ما فيه ..

والاسلام وما اليه ماض قبل أن يكون حاضرا ، والمشتغلون به من رجال المدرسة الحديثة ناظرون الى هذا الماضي سائقون له سوقا حديثا تحقق فيه مرحلة النقد ثم مرحلة التأويل بعد أن توفرت له مرحلة التجميع فتلك مرحلة سبقت ولا عناء معها غير عناء تقصى المكتوب هنا وهناك . وقد يكون مع مرحلة النقد شيء من هذا سبق ، وهو الذي أشرت اليه من قبل من وزن للرجال يلقي ضوءا على الحديث المروي ، ولكن الذي نجد منه شيئا هنا وهناك في هاتين المرحلتين : مرحلة التجميع ، ومرحلة النقد ، لا نجد منه شيئا مع المرحلة الثالثة وهي مرحلة التأويل ، اذ تلك المرحلة تكاد تكون بنت العصر الحديث كلها وتكون دليل نضج علم التاريخ وبلوغه كماله ..

وهذا التمهيد الذي مهدت به كان لا بد منه كله لأعرض في ضوئه أعمال مؤرخنا الاسلامي الدكتور طه حسين ..

ولقد عاش مؤرخنا كما يعيش المؤرخون الجامعيون بشقى هذا العلم ، وأعني بهذين الشقين : النظرة فيما بين أيديهم ، والنظرة فيما بين أيدي الغابر ، يؤرخون لحياتهم التي يحيونها ، ويؤرخون للحياة التي عاشها السلف ..

ومؤرخنا الدكتور طه حسين حين شغل نفسه بالتاريخ لمن سلف لم يدخل في عموم وانما دخل في خصوص ، أحب أن يكون لجانب خاص وجانب أهم هو الجانب الاسلامي دينا وسياسة لا تاريخا عاما يؤرخ للأمة العربية تاريخا عاما

أما عن النظرة الاولى وهى النظرة المعاصرة فنستطيع أن نعد له فى ذلك كتابيه الأيام وأديب

وعهدنا بهذا اللون من التأليف التاريخى يرجع الى أيام المأمون ، فابن النديم يذكر فى كتابه « الفهرست » أن ثمة وزيرا يدعى الفضل بن مروان بن ماسرجيس، كان وزيرا للمأمون (١٧٠ - ٢١٨ هـ) ثم للمعتصم (١٧٩ - ٢٢٧ هـ) ، وأن هذا الوزير كانت له مذكرات أو يوميات

ونستطيع أن نعد من هذا مؤرخين من مؤرخى القرن السادس الهجرى، وهما عمارة البمنى (٥٦٩ هـ) وأسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) فقد بدأ عمارة كتابه « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » بترجمة حياته ومضى يتحدث عن نفسه الى أن استقر بمصر ، كما فعل شيئا مثل هذا أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار »

وهذا اللون من التاريخ الذى أهمل اهمالا كثيرا ولم يعرض له الا فى القليل من خير ما يؤلف فى التاريخ ، وقد يجىء عرضا جامعا للأحداث أشبه بما كان يعرف عند الفرس باسم « روزنامجة » أى يوميات ، وكان هذا لا شك منهجه يوم كان التاريخ قاصرا على مرحلة التجميع لم يجمع اليها النقد والتأويل ، ولكن حين نضج التاريخ وأصبح يجمع الى التجميع النقد والتأويل أخذت هذه اليوميات هذا الاسلوب النقدى التأويلى لا تعنى بالجمع عنايتها بالنقد والتأويل ، بل يكاد هما كله يتضام حول هذه المرحلة النقدية

والأيام لمؤرخنا الدكتور طه حسين من هذا اللون الجديد القائم على النقد أكثر من قيامه على الجمع

وعلى الحالين فهذا اللون من التأليف التاريخى كما قلت لك من خير ما يؤلف ، فنحن نعرف ان صفحات التاريخ العام من صفحات هذا التاريخ الخاص ، ولو أن هذا التاريخ الخاص اجتمعت له عناصره كاملة لم يحجب منه شيء ، لجاءت صفحات التاريخ العام واضحة غير مشوبة بزيغ ..

والانسان حين يكتب عن نفسه لا يكتب عن فردية منعزلة بل يكتب عن مجموعة تدور حول فرديته ، وبيئة تمثلها بيئته ، فهو بهذا يكتب عن كل باسم جزء ، ويكتب عن مجموع في فرد ، ثم هو اذا كتب ناقدا ناقش جزئيات تبني عليها كليات وعرض قضية خاصة لتكون نبذة في قضية عامة ..

وعلى قدر مشاركة الفرد في الحياة تنتظم فرديته أفرادا وتجمع صفحته صفحات ، فاذا هو بحديثه يعرض دولة صغرى في محيط دوله كبرى ، ويرز أكثر من حياة باسم حياة

لهذا كله أعد مؤرخنا طه حسين قد أدى رسالته لعصره حين كتب عن عصره ، كتبه بالأسلوب الذى يراه ، والمؤرخ يملئ عن فن بعد علم ، يجتمع له علمه أولا ثم كيف علمه بفنه ، فاذا العلم فن ، وهذا ما يظهر جليا في هذا اللون من التاريخ الذى نعرضه ، وأعنى به الايام أو اليوميات حين لا تكون عرضا جامعا بل حين تكون نقدا خالصا

أقول هذا عن طه حسين هنا لأنى سوف أقول مثله عن شقه الآخر ، فهو ناقد ولد للنقد التاريخى ، وقد اجتمعت له مادة عصره ، اجتمعت له مروييات وأخبارا وأحاسيس فعرضها هذا العرض الناقد ولم يعرضها العرض الجامع ، فذاك أسلوب وهذا أسلوب وللمؤرخ أن يختار كما يملئ هو لا كما يملئ عليه ، ولهذا العرض وذاك أثره ، والتاريخ لا تستطيع أن تتلقفه بمادته وعظاته كاملتين مجتمعتين من لسان واحد بل لا بد من لسان ولسان تختلف كلها املاء ليجمع لك من اختلافها آخر الأمر برأى واحد

فهذا الكتاب الايام بما صدر منه تاريخ للعصر ، تاريخ ناقد لا جامع ، تاريخ يناقشك في قضايا ولا يعنيه أصحابها وعلى يد من وقعت فلقد ترك هذا المؤرخ آخر من شأنه أن يجمع لا من شأنه أن ينقد

ولقد حقق طه حسين بهذا جانبا على المؤرخ أن يسجله ، فالملكة التاريخية في المؤرخ من رسالتها الأولى أن يكون لعصرها منها نصيب .

واذا مضى المؤرخ ولم يؤرخ لعصره وحاضره كان مفرطاً في رسالته الأولى ، شأنه في ذلك شأن الأديب الذي يشغل بماضيه ولا يلتفت لحاضره ، أو العالم الذي لا ينفعا بعلم ما في محيطنا ، فهؤلاء جميعاً مقصرون ان لم يفعلوا ، ولو أن طه حسين مر دون أن يعطى عصره حقه أو يلتفت اليه التفاته لناله من هذا التقصير شيء ..

هذا عن النظرة الأولى ، أى النظرة المعاصرة ، ولقد رأيت كيف كان نصيب طه حسين منها ، ولنتقل الى النظرة الثانية . وأعنى نظره الى الماضى ..

وقد اختار من هذه النظرة كما اختار من تلك جانباً خاصاً . فلقد لجأ هناك الى العموم كما قلت لك ولم يلجأ الى الخصوص ، أراد الحياة ولم يرد الأفراد . وعنى بسوق الأحداث وبيان مداها وأثرها ولم يعنه أن تكون لواحد بعينه ، وهو هنا كما كان هناك لاجيء الى هذا العموم وان بدا انه خصوص ، فهو حين يتحدث عن واحد بعينه هناك لم يردده هو ليحمله تبعه ما عمل وانما أراد به طائفة وهذا الفرد صورة لها ، وهو هنا قريب من هذا ولكنه لم يملكه على عمومه كما ملكه هناك ، فالأشخاص هنا غيرهم هناك ، لم يكونوا هناك ذوى بال فى الأكثر بذواتهم وانما بدلاتهم على فئاتهم ، والأشخاص هنا يجمعون بين الاثنين : دلاتهم على أنفسهم ودلاتهم على فئاتهم ، من أجل هذا كان الحديث هنا يخالف الحديث هناك فى شيء ويوافقه فى شيء ، يوافقه فى أنه يراد منه هنا كما أريد منه هناك، العموم، ويخالفه فى أنه قصد فيه هنا الى الخصوص لأن أشخاصه كما قلت لك دلاتهم على أنفسهم أكثر من دلاتهم على فئاتهم ، وتكاد تكون فئاتهم محمولة عليهم على العكس من الحال هناك اذ تكاد تكون الأشخاص محمولة على الفئات

ولقد كتب طه حسين فى ظل هذه النظرة الثانية كتاباً سبعة ، هى :

١ - على هامش السيرة (ثلاثة أجزاء)

٢ - الوعد الحق (جزء)

- ٣ - الفتنة الكبرى ومعها كتابان :
 (١) عثمان (ب) على وبنوه
 ٤ - مرآة الاسلام
 ٥ - الشيخان ، يعنى أبابكر وعمر
 ٦ - أديب
 ٧ - قادة الفكر
 ٨ - الأيام



وهذه الكتب ذات مناح ثلاثة ، كما تبدو لك :
 منحى عن الاسلام ، وهو الجانب العام ، فى ظل رجاله ، وهو الجانب الخاص ، وهذا الشق ينتظم الكتب الأربعة الأولى ، وقد تؤكد لك عناوينها نزوعها الى هذا الجانب العام . وثمة ما هو صريح منها فى هذه الدلالة العامة ، مثل الأول والثانى والرابع ، وترى الثالث والخامس منها وهما عن جانب خاص يكاد عنواناهما يميلان بها الى الجانب العام ومنحى عن حياة أخرى غير حياة الاسلام ، عن حياة غريبة عاشها المؤرخ وقرأ لها ، وكان لا بد أن يتأثر بها شيئاً ويملى فيها شيئاً ، وهو كتابه السادس ..

ومنحى عن نظرة معاصرة ، مثلها كتاباه : « أديب » و « الأيام » ، كما قلت لك قبل ..

وقد قلت لك ان الشق الأول من هذه الكتب السبعة عن الاسلام ، لأنه يتناول الجانب العام وان بدا أنه يتناول رجالاً ، وعلى رأس هذه الكتب « على هامش السيرة » وأحب قبل أن أصلك برأى عن هذا الكتاب وأنه أقرب الى الجانب العام منه الى الجانب الخاص . أحب قبل هذا أن أحدثك حديث التأليف فى السيرة ونشأته

وأقدم من نعرفهم من رجالات هذا الباب عروة بن الزبير بن العوام (٩٣ هـ) وقد مكنه نسبه من قبل أبيه الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر

من أن يروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . وحسبك أن تعلم أن ابن اسحاق والواقدي والطبري أكثروا من الأخذ عنه ولا سيما فيما يتصل بالهجرة الى الحبشة والى المدينة ، وفيما يتصل بغزوة بدر

ومن بعد عروة نجد ابان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ) وقد جمع في السيرة صحفا ، ثم وهب بن منبه (١١٠ هـ) وله كتاب ألغى في المغازي ، وعبدية هيدلبرج بألمانيا قطعة منه

وغير هؤلاء كثيرون منهم من قضى نحبه قرب تمام الربع الأول من القرن الثاني الهجري ، مثل شرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) وابن شهاب الزهري (١٢٤ هـ) وعاصم بن عمر قتادة (١٢٠ هـ) . ومنهم من جاوزه بسنين مثل عبدالله بن أبي بكر بن حزم (١٣٥ هـ) . وكان هؤلاء الأربعة ممن عنوا بأخبار المغازي وما يتصل بها ..

ومنهم من عاش حتى أوشك أن يدرك منتصف القرن الثاني أو جاوزه يقليل مثل موسى بن عقبة (١٤١ هـ) ومعر بن راشد (١٥٠ هـ) ثم شيخ رجال السيرة محمد بن اسحاق (١٥٢ هـ)

وجاء بعد هؤلاء غيرهم نذكر منهم زيادا البكائي (١٨٣ هـ) والواقدي محمد بن عمر صاحب المغازي (٢٠٧ هـ) ومحمد بن سعد (٢٣٠ هـ) صاحب الطبقات الكبرى ، وقبل أن تستأثر المنية بابن سعد عدت على ابن هشام أبي محمد عبد الملك سنة ٢١٨ هـ ، وابن هشام هو الرجل الذي انتهت اليه سيرة ابن اسحاق فعرفت به وشاع ذكره بها

ثم لم ينقطع التأليف في السيرة الى يومنا هذا ، غير أن المشتغلين بها كانوا أولا محدثين ناقلين ، ثم كانوا جامعين مبوين ، وحين استوى للمتأخرين ما جمع المتقدمون جاءت فكرة النقد والتعليق

وعلى الرغم من أن التأليف في السيرة لم ينقطع بموت ابن هشام ، وأن ثمة مؤلفات في السيرة لغيره من بعده على نمطه أو قريبة منه ، إلا أنها

لم تشع شيوع سيرة ابن هشام ولم يقبل عليها الناس اقبالهم على سيرة ابن هشام ..

فلا بن فارس (٣٩٠ هـ) ولمحمد بن علي بن يوسف الشامي (٦٠٠ هـ) ولا بن أبي طي يحيى بن حميد (٦٣٠ هـ) ولظهير الدين علي بن محمد الكازروني (٦٩٤ هـ) ولعلاء الدين علي بن محمد الخلاطي (٧٠٨ هـ) ولا بن سيد الناس (٧٣٤ هـ) وللرعي شهاب الدين الغرناطي (٧٧٩ هـ) ولا بن جابر الأندلسي (٧٨٠ هـ) وللصالح محمد بن يوسف (٩٤٢ هـ) ولا بن برهان الدين (١٠٤٤ هـ) لهؤلاء جميعا ولغيرهم كتب في السيرة ولكنها لم تشع كما قلت لك شيوع سيرة ابن هشام . لأنها كانت منها كالشروع من الأصل لم تخرج عنها في نهجها ولا في سردها الا في القليل مما يمس الترتيب والتبويب ..

وهذه النظرة المحدودة الرتيبة لهذا العلم لم تتجاوز ذلك المنهج الذي كانت تعيش في إطاره الا متأخرة ، فقد بدأت كما قلت لك رواية ثم جمعا وتبويبا ، وأخذ هذا الجمع والتبويب يصور صورا مختلفة وعاش في شله شراح ومعلقون ، وحين أوشكت الجهود أن تستنفد كان الناس قد بلغوا حالا من الجمود ورثوها عن التخلف الذي انتهوا اليه فلجئوا في هذا التأليف السيري الى ألوان تتفق وما انتهوا اليه كانت منها الموالد والسير المنظوية . وبقيت الحال على ذلك مدة امتدت الى أوائل هذا القرن الذي غير من نظرتنا الى الكثير مما بين أيدينا من علوم وفنون ، وكان منها علم العميرة ، وكان لنا من ذلك ما طالعنا به المرحوم الامام الشيخ محمد عبده عن قصة تزويج النبي صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش من زيد بن حارثة ، ثم حياة محمد للمرحوم الدكتور هيكل ، ثم هذا الكتاب « على هامش السيرة » ...

غير انه ثمة فرق بين هذه العروض وأشباهاها ، فمنها ما كان جزئيا كما كان في جهد المرحوم الشيخ محمد عبده ، ومنها ما كان شاملا يحكي في شموله أساليب السير الأولى ويخالقها في المنهج عرضا وتحليلا وتقدا

مثل ما كان في جهد المرحوم هيكمل ، ومنها ما كان ذا لون جديد وعرض جديد أخذ من الماضي كله ويكفيه كله تكييفاً جديداً لصوغه صياغة جديدة فيها الخيال وفيها التصوير ، مثل ما كان في جهد الدكتور طه حسين .. وثمة فروق بعيدة بين هذا المنهج وغيره من المناهج الجديدة ، فغيره من المناهج تلتزم العرض العلمي وهو لا يلتزمه ، أو قل هي تلتزمه على نحو وهو يلتزمه على نحو فهي تسوقه لك كما روى لتناقشه ، وهو يناقشه قبل أن يسوقه اليك وقد ينتهي اليه وقد ينتهي الى غيره ..

وغيره من المناهج يضيق به الأسلوب العلمي عن أن يجاوز في النقد أسسه ويحملة على غير قواعده ، وهو لا يضيق به الأسلوب القصصي عن أن يجاوز في النقد أسسه وعن أن يحمله على غير قواعده ، اذ له من الخيال فسحة ومندوحة تعفيانه من تبعات الاستنباط العلمي ..

لهذا كان هذا المنهج أجراً من غيره على أن يقول وأطلق من غيره في أن يتصور ، كما كان أبعد أثراً في النفوس لما يلبس من خيال ..

ولقد كان طه حسين أقدر على أن يكون من أصحاب المنهج الآخر ، وأعنى به المنهج العلمي ، فهو من رجال هذا الميدان أو قل على رأس رجال هذا الميدان ثم هو الى ذلك موصول بالأدب الغربي يعرف ما لهم فيه حول هذا الموضوع ، ثم هو صاحب رأى ثاقب وفكر عميق ، وكل هذا يجعله في مقدمة من يكتبون هذا التاريخ العلمي ..

ولكن الرجل بعد هذا كله ثائر ، نشأ لا يقبل الرأى قبل أن يخاصمه مخافة أن يدلسه عليه أنسه به .. لهذا كان نزوعه الى هذا الجانب الأبعد حرية والأفسح فكراً ، ولهذا أنس بأن يضع سيرته في أسلوب القاص لا في أسلوب المؤرخ ..

ولقد كان هذا شأن طه حسين فيما أرخ لا يكاد يبعد عن هذه السبيل كثيراً حتى يرتد اليها ..

وانك لتحس له هذه النزعة الحرة التواقة الى الطلاقة الراجعة في أن تلقى عنها عبء الالتزام بقواعد لتعلمي هي ما تشاء من قواعد ، شأن

النفوس الكبيرة التي تطل على الوجود لا لتكرر ما هو موجود ولكن لتنفيذ بجديد ، فهو يقول في مقدمة كتابه على هامش السيرة :

انما الأدب الخصب حقا هو الذي يلذك حين تقرأه ، لأنه يقدم اليك ما يرضى عقلك وشعورك ، ولأنه يوحى اليك ما ليس فيه ، وينهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصبا ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة ، وينطقك كما أنطق القدماء ، ولا يستقر في قلبك حتى يتصور في صورة قلبك ، أو يصور قلبك في صورته ، واذا أنت تعيده على الناس فتلقيه اليهم في شكل جديد يلائم حياتهم التي يحيونها ، وعواطفهم التي تثور في قلوبهم ، وخواطرهم التي تضرب في عقولهم ..

فهو لا ينظر الى التاريخ مادة ولكنه ينظر اليه روحا ، لا ينظر اليه ألفاظا ولكنه ينظر اليه معاني ، يجب ألا تغطي الألفاظ على المعاني فتحصرها في حيز ضيق ، ويؤثر أن تغطي المعاني على الألفاظ فتسترسل بها حيث تشاء ، وهو بهذا ضامن أن يحمل التاريخ أسمى ما يراد له وما يتفق وحاجة الناس اليه .. هو يريد من التاريخ تتيجه ، يريد منه أن يكون العظة التي تقرر في النفوس وتشغل بها العقول . ولا يريد منه أن يكون كلاما يحفظ لتردده الألسنة بحججه وبراهينه ..

هذا النهج الذي أكشف لك عنه هنا هو الذي ستطالعك به كتب الدكتور طه حسين كلها في التاريخ ، مع شيء من التلوين القليل ..

وكتبه التي في التاريخ الاسلامي تنزع كلها الى الجانب العام ، وان بدا بعضها في الجانب الخاص ، كما قلت لك ، لأنها بهذا النزوع تكون ألصق بمنهج صاحبها وأقدر على استخلاص العظة العامة الجامعة ، ولأنها بهذا النزوع تحلق في حياة أمة لا في حياة فرد ، ولأنها بهذا النزوع تستطيع أن تملأ في أفصح مدى تريد ..

وهذه الكتب هي كما سقتها لك — غير هذا الكتاب الذي قدمته — وهو « على هامش السيرة » ..

١ - الوعد الحق

٢ - الفتنة الكبرى بجزئها : عثمان ، وعلى وبنوه

٣ - الشيخان : أبو بكر ، وعمر

٤ - مرآة الاسلام

فأولها وهو الوعد الحق يكاد يكون امتدادا للكتاب الأول على هامش السيرة ، فهو حديث عن تلك الحياة ، يعرض مكان الحقيقة والعظة منها ، يؤثر المعنى على الألفاظ كما قلت لك ، يؤثر اجمال الحياة على تفصيلها ، لأنه يعنى هذا الاجمال ويعنى العظة التى فيه ولا يعنى أن يسوق لك الأخبار بتفصيلها فتخرج منها بغير ما يريد وهو الحريص على أن تخرج منها بما يريد ، ثم هو فى هذا الكتاب كما كان فى كتابه السابق « على هامش السيرة » قاص كى يبلغ ما لا يبلغه المؤرخ من ضمان القارئ على ما يقدم له ثم ضمانه على ما يراد له من عظة تقر فى نفسه ..

ثم ودع الدكتور طه حسين بهذين الكتابين « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » حياة الرسول وما امتلأت به من أحداث ليدخل فى حياة رجاله الأربعة من بعده أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، لا يريد بهم بأعيانهم كما قلت لك ، وإنما يريد من صفحاتهم صفحات تنضم الى التاريخ العام لا صفحات تنضم الى صفحاتهم الخاصة ليمضى بذلك فى رسالته التى بدأها بكتابه « على هامش السيرة » والتى أراد فى ظلها أن يؤرخ للاسلام وأن يكون مؤرخ الاسلام ، وأعنى بذلك ما مهدت له قبل من أنه كان يهدف الى القضية العامة وإن بدت فى صورة أفراد ، من أجل ذلك ضم حياتين معا وهما حياة أبى بكر وعمر لأنه أراد من هاتين الحياتين الجانب العام ولم يرد الجانب الخاص ، أراد الجانب الذى ينضم الى صفحات التاريخ الاسلامى ، ثم ضم حياتين أخريين معا وهما حياة عثمان وعلى ، لأنه أراد منهما هذا الجانب العام الذى

كان فتنة كبرى اصطلى المسلمون في ظلها الكثير وأودى الاسلام منها
بالكثير ..

غير اننا نرى مؤرخنا الدكتور طه حسين هنا في هذين الكتابين أو
هذه الكتب الثلاثة : الشيخان ، وعثمان ، وعلى .. يخرج عن أسلوبه
الأول أسلوب القاص الى أسلوب المؤرخ ، ولكنه على هذا كان قاصا
وهو مؤرخ ، والفرق بين قصته هنا وقصته هناك أنه لم يترك أسلوبه
للتخيل كما تركه للتخيل هناك ولم يتركه للاملاء الحر كما تركه هناك ،
بل جعل من الحقيقة التاريخية هنا مادة قصته ، وجعل من هذه المادة
مستلأه ..

ولا تحسبن ان ثمة خروجاً عن الحقيقة التاريخية ليس مثله هنا ، بل
الذى أعنيه وأريده ان الحقيقة التاريخية ليست مقصودة هناك كلها ،
بل المقصود منها ما تراد منه العظة .. فالمؤرخ هناك لا يسوق حقيقة
ليستنبط حقيقة شأن المؤرخ الذى يدعم قضايا بالاستنباط كما قلت لك
وانما هو يضم الحقائق التى تثير العظات لا يعنى أن يدعم بوحدة
للأخرى وانما يعنيه أن يجسم كل حقيقة لتبدو أبلغ ما تكون وأن
يضى على كل حقيقة أضفى ما يكون من خيال لتبلغ أقصى ما يكون
من أثر ..

وهو هنا مثله هناك ، غير أن ثمة فرقاً .. فهو هنا قاصد للعظة قصده
لها هناك ولكنه يعنيه أن يدعم بالحقيقة حقيقة لأنه يريد هنا تاريخاً
متصلاً أقرب الى السرد منه الى التصوير ، وهذا هو الفرق بين الاثنين ،
فلقد كان هناك مصوراً قبل أن يكون مؤرخاً وهو هنا مصور ومؤرخ ،
وهذا التصوير الذى سبق هناك وصاحب هنا هو صفة المؤرخ اللازمة
التي تجعله يميل الى القص ليكون أقرب الى حرية الرأى وحرية النقد
وليكون أقوى على املاء عظته واسماع رأيه ، وهذان ما لا يملكهما
المؤرخ غير الصور فى الكثير ..

وهو بهذه الكتب التى ذكرتها « على هامش السيرة » و « الوعد

الحق» و « الشيخان » و « الفتنة الكبرى » ، قد أرخ للاسلام على هذه الصورة العامة التي ذكرتها لك الى أن انتهت أيام على وبنيه ، وكان لابد لمؤرخنا الدكتور طه حسين من أن يمضى ليبر تلك الحقبة الطويلة منذ انتهى الى أيامه هذه التي يعيشها ..

وهذه الحقبة الطويلة التي تمتد قرابة ثلاثة عشر قرنا عاشها الاسلام وكان له فيها تاريخ لا يصح أن يهمله مؤرخ بدأ هذا البدء ، ولو ان مؤرخنا كان تعنيه الخصوصيات لكان عليه أن يفتح لها صفحات لكي يوفيهما ، ولكنه كما قلت لك ملتزم الجانب العام ، وملتزم أسلوب القاص أكثر من التزامه أسلوب السارد ، وهذا الأسلوب الذي يعطيه الى ما أعطاه أن يضم ما يشاء من الأحداث وأن يسقط ما يشاء من الأحداث ، وأن يجتزئ منها بما يعنيه في ابلاغ العظة وإيراد العبرة .. لهذا لم يهمل مؤرخنا أن يتوج هذه الجهود التاريخية السابقة بهذا الجهد الذي طوى به تلك الحقبة الطويلة المتتالية ، وأعنى بها الحقبة التي مرت منذ انتهى بعلى الى أيامنا هذه ، فكان كتابه « مرآة الاسلام » ..

وهذا الكتاب كان لابد منه لمؤرخ شغل نفسه بقضيته ونصب نفسه له ، وهي قضية الاسلام ، وما كان يليق أن يبدأ بها دون أن يملأ رأيه الأخير فيها ودون أن يكون هذا الرأي موصولا بعصره الذي يعيش فيه ، اذ فرض على المؤرخ أن تكون حياته جزءا من عمره التاريخي ، ولن يتحقق له هذا الا اذا أرخ لعصره أو جعل لعصره ظلا على ما يؤرخ ..

وكتاب « مرآة الاسلام » هذا يحمل ذلك الظل فلقد طوى فيه المؤرخ تلك الحقبة الطوال الى أن بلغ بها هذا العصر الذي يعيشه ليجعل منه ظلا على هذا كله ، وليضم هذا العصر الى ما يسبقه ليكون قد انتهى بالتاريخ الى حيث هو والى زمنه هو ، ويكون قد أخذ الجبل ممن قبله ليسلمه لمن بعده ..

ومؤرخنا الاسلامى الدكتور طه حسين دل فى هذا الكتاب أغنى «مراآة الاسلام» على اسلامية تاريخه أو قل على انه مؤرخ الاسلام كما قلت لك ، كما قد دل على انه معنى بالجانب العام لا الجانب الخاص ، وعلى انه القاص لا السارد ، يملى فى ذلك عن طبع ثائر يميل به الى التحرر كثيرا ، والى أن يتخير ما يجب أن يبلغ به لا أن يجبر على ما لا يرى انه بالغ به من سرد طويل تضيع معه العظة ويضيع معه النفع الأسمى ، وهو مغزى التاريخ لا حقائقه ..

فهو قد حدثك عن الاسلام منذ ظهر الى يومنا هذا ، طوى هذه القرون الكثيرة فى كلمات قصيرة ، وحدثك فيه عن أعوام سبقت الاسلام فى الجزيرة العربية طوى هذه الأعوام الطويلة فى صفحات قليلة ، لم يرد فيه — شأنه فى غيره — أن يكون المؤرخ المعنى بالأحداث يسلسلها وانما كان فيه المؤرخ المعنى بالعظات — وهى زبدة ما فى التاريخ — يبرزها ، وفرق بين تاريخ وتاريخ ، فرق بين تاريخ يعنى بهذا الكثير يحملك أثقاله وتاريخ يختار لك القليل ليصرك بما كان فيه من خير أو شر ذلك كان منهج مؤرخنا الاسلامى الدكتور طه حسين فيما أرخ به للاسلام لم يؤرخه وقائع وانما أرخه حقائق ، ولم يؤرخه رجالا وانما أرخه أعمالا جرت على أيدي هؤلاء الرجال القليلين الذين عرض لهم .. ولم يؤرخه على السنين وانما أرخ به السنين فاذا السنون السنة بما كان فيها لا أوعية لما كان فيها ..

وهذا المؤرخ الذى فرغ لهذا كله فرغ لجانب آخر من التاريخ أجنبى عن الاسلام وليس أجنبيا على التاريخ ، وهو هذا الشق الذى قلت لك عنه من قبل انه عن حياة غربية عاشها وقرأ لها وتأثر بها ، ثم هذا الشق الثالث الذى خص به حياته المعاصرة ..

ولقد كان له فى الشق الثانى كتاب ، وهو :

١ — قادة الفكر

وكان له فى الشق الثالث كتابان ، وهما :

١ - أديب

٢ - الأيام

أما عن كتابه « قادة الفكر » الذى كان أثرا لحياة غربية عاشها وقرأها
 نها فقد عرض فيه أيضا للجانب العام وان بدا انه يعرض الجانب
 الخاص ، فلقد تحدث فيه عن : هوميروس ، وسقراط ، وافلاطون ،
 وأرسطاطاليس ، والاسكندر ، ويوليوس قيصر، وهو يريد أن يتحدث
 عن الحياة الفكرية لعصر بعينه يجتمع نشاطها وتجتمع ألوانها حول
 هؤلاء الرجال الذين اختارهم . وهو لم يرد أن يكون فى هذا الكتاب
 الصغير مؤرخا لعصر كبير ، فذلك يتطلب منه أن يكون مؤرخا
 مستوعبا لا مؤرخا متحيزا ، والفرق بين الاثنين كما قلت لك ، ان أولهما
 يعيش للأحداث يسلسلها ، والثانى يعيش للعظات يتخيرها ، ولم يكن
 مؤرخنا الدكتور طه حسين من رجال الصنف الأول ، وانما كان من
 رجال الصنف الثانى ، لهذا أعد نفسه مذ شغل بالتاريخ ومذ كتب فى
 التاريخ ..

ويسلمنى هذا للحديث عن كتابيه :

١ - أديب

٢ - الأيام

وهذان الكتابان كما قدمت يؤرخان للعصر الذى عاشه المؤرخ ،
 يؤرخان له من زاوية خاصة فيما يبدوان ، ولكنهما مع هذا يتناولان
 جانبا عاما ، يتناولان الحياة العامة فى ظل الحياة الخاصة ، فأولهما وهو
 « أديب » عن حياة صديق رحل الى أوربا مبعوثا ، فهو حديث عن
 شطرين من الحياة ، شطر لهذا الأديب فى مصر ، وشرط له فى فرنسا ،
 وهو على هذا ليس سيرة بقدر ما هو حديث عام عن الحياة هنا ،
 والحياة هناك ، هو لا يترجم لهذا الأديب ، وانما يترجم للون من
 ألوان الحياة له هنا ، ولون من ألوان الحياة له هناك ، وما تناول
 مؤرخنا هذا الا لذاك المغزى الذى عن له ، فهو لم يرد سرد أحداث.

الحياتين ليجعل منهما ترجمة متصلة ، وانما أراد ما فى الحياتين من مغزى وقع عليه فمضى يحيك من هذا المغزى السيرة التى يرسمها لهذا الصديق ..

وثانى الكتاين هو « الأيام » ، وهو وان بدا هو الآخر سيرة للمؤرخ خاصة الا انه سيرة للحياة التى أظلت المؤلف ، فهو لم يقصد فى هذا الكتاب الى نفسه كما يبدو ، وانما قصد للحياة التى شارك فيها يصف ما تضمنه ليقول كلمته فى هذا كله ..

وهذه السير المعاصرة نكاد نفتقدها بلونها ، لونها الخاص الذى هو ترجمة لكل ما كان لصاحبها ، ولونها العام الذى انتهجه مؤرخنا ليعطى صورة عن الحياة من حوله ، ونحن من أجل هذا سوف ندخل الى التاريخ بصفحات منقوصة .. نحن الذين تلقينا عن السلف صفحات غير منقوصة عرفناهم بها ، وما أظن الخلف سيعرفنا كما عرفنا نحن السلف ، لهذا كان هذا العمل من مؤرخنا له نفعه ، وهو وان لم يكن الغاية التى خصصناها بالحديث عن مؤرخنا ، ألا وهى الجانب الإسلامى .. الا اننا آثرنا ألا تمضى دون أن نشير الى هذا الجانب الخاص ..

وبعد .. فثمة صفات يتميز بها مؤرخنا تضى على تاريخه الكثير مما لا يتوفر لغيره ، فهو يتميز بالعمق الذى يبلغ به كنه الأمور ، وهو يتميز بالرأى السليم الذى تستقيم به قضاياها ، وهو يتميز بالوعى الذى لا تفوته معه الحقائق ، وهو بعد هذا كله يتميز بذلك الأسلوب الرصين ، وتلك الديباجة المشرقة والألفاظ المختارة .. وبهذا الأسلوب وتلك الديباجة وهذه الألفاظ قدم لنا ما قدم من أعمال تاريخية فى أروع طراز لا تكاد تقبل عليه حتى يجذبك اليه جذبا فإذا بك غير منفك عنه حتى تستوعبه كله ، وإذا بك بعد أن تفرغ منه رغب فى تلاوته ثانية وثالثة ، وإذا بك بعد أن تخلص الى نفسك قد لقنت الكثير وتمثلت الأحداث وشاركت فيها ، وأصبحت هذه الأحداث تشغلك ، لا تنفك تتدبرها بينك وبين نفسك ..

وهكذا أصبحت هذه الكتب القليلة بصفحاتها المحدودة تحكى ما فى كتب كثيرة فى صفحات لا حصر لها ، وأصبح هذا التاريخ الإسلامى الحافل الذى يعز على كثيرين أن يحيطوا به فى مراجعه الكثيرة المختلفة المتعددة سهلا على الجميع أن يحيطوا به فى مراجعه هذه المحدودة ، وأصبح مكان العظة منه بارزا بيّنا بعد أن كان غامضا ملتويا ، وانى اذ أقدم للقراء الدكتور طه حسين مؤرخا اسلاميا أقدمه بهذا الذى بينته له وبهذا الذى أوضحته من عمله ، وبهذا المنهج الذى نهجه ، وأحسبني قد قاربت أن أوفيه حقه ..

طه حسين المسحوق

جورجيو ديلافيدا

تجلى نبوغ طه حسين الفذ ونشاطه المتعدد الجوانب ككاتب منذ ظهور بحوثه الأولى الجريئة في اتجاهين مختلفين لم يكونا مع ذلك متعارضين ، بل كان كل منهما يكمل الآخر .. هما الفن الذى أوحى له به خياله المبدع والذى كان يقف جنبا الى جنب ، أو بالأحرى يندمج بالنقد القائم على الحجج الدامغة .. ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح هو فى مجموعه علم من العلوم أو بالأحرى نوع من النقد والفن ، فمن الواضح ان جانباً كبيراً لا يستهان به من إنتاج طه حسين الأدبى العظيم يدخل فى نطاق التاريخ ..

وفى الحق انتنا من الممكن أن نعتبر من صميم التاريخ بأوسع معانى الكلمة سواء ما كتبه طه حسين أيام شبابه عن الشعر العربى الجاهلى والاسلامى وعن بلاد اليونان القديمة فى مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية ، أو ما كتبه بعد أن بلغ سن النضوج وخصصه لأصول الأدب العربى القديم وتطوره ومميزاته . كما ان ما كتبه عندما اشترك فى مناقشة عن مشاكل التعليم والثقافة فى العالم العربى المعاصر يعتبر أيضاً فى جوهره نوعاً من التاريخ ولو ان هذا البحث العلمى الهادى قد

(*) جيورجيو ديلافيدا : استاذ الحضارة والاداب الاسلامية فى جامعة نابولى ، ثم فى جامعة تورينو ، ثم فى جامعة روما ، ثم فى جامعة بنسلفانيا بأمريكا . . وهو عضو أكاديمية لينشيني

صاحبه تشوقه الشديد الى تطبيق المثل العليا السامية تطبيقا عمليا . كما ان ذكرياته العجيبة عن حياته التى كتبها بنفسه تعتبر نماذج من التاريخ الصميم رغما من ان ابداعه الفنى فى كتابتها يجعل القارئ ينسى انه يقرأ صفحات من التاريخ ، ولعمري ان هذه الذكريات تمثل ولا شك - اذا طرحنا جانبا جمال أسلوبها - مصدرا من الدرجة الأولى من مصادر معرفة المجتمعين : المصرى ، والفرنسى ، وثقافة هذين البلدين فى الثلث الأول من هذا القرن .. ومن كل هذه السلسلة الطويلة من المؤلفات القائمة على أساس تاريخى نجد ان الأمر يتعلق - كما يتضح ذلك بسهولة - بتاريخ الأدب أكثر مما يتعلق بالتاريخ السياسى ..

هذا ويجب ألا يخدعنا عنوان الأجزاء الثلاثة من كتابه « على هامش السيرة » الذى يوحى للقارئ بالاعتقاد بأن الكتاب يضم بحوثا نقدية عن أصول الاسلام وأيامه الأولى بينما لا تقدم لنا أبواب هذا الكتاب شيئا آخر سوى سلسلة من الروايات التاريخية الصغيرة ، وقد استخدم طه حسين فى سرد هذه الروايات على أوسع نطاق معرفته الكاملة بالأساطير والروايات التاريخية العربية وبتاريخ الديانة المسيحية الشرقية والأمبراطورية البيزنطية ليطلق العنان لخياله المبدع الخصب ..

أما الكتاب الوحيد الذى أضافه طه حسين الى اتجائه الغير العادى فى كثرته وتنوعه وخصصه للتاريخ البحت فهو ذلك الكتاب الذى يتحدث عن الخلفاء الراشدين الأربعة ، وفى الحق انه لم يكن من باب المصادفة أن المؤلف عندما أراد تقديم صورة كاملة لعهود الاسلام السياسية والدينية الأولى قد بدأ بالكتابة عن آخر عهد من هذه العهود وهو عهد خلافة عثمان وعلى الذى تحدث عنه فى جزءين أطلق عليهما عنوان « الفتنة الكبرى » أى الحرب الأهلية التى تعد فى الحق بلاء من الله لاختبار مدى إيمان عباده واخلاصهم لذاته . ولذلك فان الحديث عن الحريين الأهلتيين الثانية والثالثة اللتين أعقبتا تلك الحرب الأهلية التى عكرت صفو خلافة على ، جاء مكملًا لها فى الجزء الأخير من الكتاب الذى تضمن وصفا

ودراسة لتلك الفترة الهامة من فترات تاريخ الاسلام الأولى الواقعة بين عامي ٢٣ و ٦١ هجرية ، وقد اعتمد المؤلف في كتابة هذا الجزء اعتمادا كبيرا على المصادر التاريخية وقام بتحليل الفترة المذكورة تحليلا دقيقا وأصدر رأيه فيها بعد جهد جهيد وبمنتهى البراعة والذكاء ..

وقد يبدو لنا من بعض اشارات واردة في سياق الكلام ان المؤلف بعد أن ختم حديثه عن تاريخ الحروب الأهلية كان يعتزم الاستمرار في سرد تاريخ تكوين الأمبراطورية العربية وازدهارها وتدهورها والوصول به على الأقل الى نهاية عهد الخلافة الأموية عندما تغير شكل الدولة الاسلامية ونظامها تغيرا جذريا . وفي الحق ان حقيقة هذا التغير لم ينكرها أو يستبعدوها المؤرخون الغربيون الأخيرون حين اعترفوا بأن الأمويين كانوا قد أدركوا مغزى الخلافة ووظيفتها الدينية ، الأمر الذي أجمعت المصادر التاريخية الاسلامية على انكاره . ولكن المؤلف لم يقم بتنفيذ ما كان قد اعتزم عليه . ولقد خالف طه حسين مجرى الزمن فجمع في الجزء الثالث والأخير من كتابه صورا جلية للخليفين الأولين الشيخين أبو بكر وعمر كما يظهر ذلك من عنوان هذا الجزء من الكتاب ..

أما الجزءان الأولان اللذان يحمل أحدهما اسم عثمان ، وثانيهما اسم علي وأبنائه ، واللذان ظهرا في عامي ١٩٤٧ و ١٩٥٣ ، فانهما ثمرة من ثمرات نضوج الكاتب العربي الكبير ، ذلك النضوج الهائل الذي بلغ ذروته في وقت نشر الجزءين الخاصين بالخليفين الشيخين في عام ١٩٦١

كان طه حسين قد تخلى من زمن بعيد عن تلك الراديكالية المتطرفة التي امتازت بها مؤلفاته الأولى . تلك المؤلفات التي كان قبوله فيها لاستنتاجات النقد الغربي المتطرفة بدون تحفظ يؤدي به الى انكاره كل قيمة لما ورد في الروايات من معلومات أصبحت الآن مسلما بها في مجموعها لا في تفاصيلها . وقد ظهر في الغرب أيضا حتى في ميادين أخرى من ميادين الدراسات التاريخية التي تختلف عن الدراسات الاسلامية ميل عام للتخفيف من وطأة النقد القائم على التشكك والى إعادة تقدير قيمة

الروايات التاريخية التي تختلف عن الدراسات الاسلامية ..

على ان ما هو أهم من ذلك هو ان التسليم بمبدأ النتائج العملية في التاريخ أمر مقبول قبولاً تاماً ، وهكذا أصبح الحكم الذي يعطيه المؤرخون العرب القدماء على الحوادث التي وقعت في المدة البطولية للتاريخ الاسلامي مؤكداً ، وكذلك الحال بالنسبة لفضائل أبطالها وأخطائهم ولا يعنى هذا ان طه حسين عندما تحدث عن الخلفاء الأولين قد زهد في تطبيق المعايير التي أوحى له بها نشاطه بوصفه مؤرخاً للفلسفة والأدب ، وكذلك فانتا نراه قد خصص للمؤلفات التي نحن بصددتها جانباً كبيراً لدراسة ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه اسم الأساس الاجتماعي للتاريخ الذي في حالتنا هذه هو المجتمع العربي القديم البدوي والحضري الذي تفسر صفاته المميزة سر تطور الأحداث التي وقعت بعد موت النبي والوقائع التي حدثت في أيام الخلفاء الأولين والأزمة التي أدت الى نشوب الحرب الأهلية والى انقسام الوحدة السياسية والدينية ..

هذا وان المقدمة المستفيضة التي وضعها طه حسين للجزء الأول من كتابه « الفتنة الكبرى » لها أهمية خاصة ، فقد بسط فيها نظرية جديدة خاصة بالتعريف الصحيح للدولة التي أنشأها النبي محمد والتي تمسك بها كل من أبى بكر وعمر كل التمسك ، فقال ان هذه الدولة لم تكن دولة دينية بأضيق معانى الكلمة ، ولا ديمقراطية ، ولا ملكية ، ولا دولة تحكمها القلة ، ولكنها نظام من نوع خاص على نسق النظام السياسى القبلى العربى ، بعد أن أضيف اليه العنصر الدينى بما تضمنه من عناصر التهذيب والاستقامة ..

وقد صرح الدكتور طه حسين عندما أورد تلك القائمة الطويلة التي اشتملت على المراجع التي اعتمد عليها عند وضع كتابه « الفتنة الكبرى » (الذى تختلف طريقة وضعه كل الاختلاف عن الطريقة التى سار عليها عند وضع كتابه عن « الشيخين ») فى شيء من الزهو بأنه لم يرجع الى

أى كتاب من كتب المستشرقين باستثناء كتاب حوليات الاسلام الذى وضعه « ليونى كايثانى » وبعض المقالات الواردة فى دائرة المعارف الاسلامية ، ويعتبر الاستثناء الأول والثانى من الكتابات الرائعة (ولدى كاتب هذه السطور بوصفه ايطاليا من الأسباب ما يجعله يفخر كل الفخر بهذين المرجعين) وليس من غير المحتمل انه ترجع الى كتاب كايثانى العظيم بعض التحليلات السعيدة للأسباب التى كان من نتيجتها خلق ذلك الجو المتوتر بسبب ذلك التغير العميق فى المجتمع الذى شمل جميع المظاهر الاجتماعية والاقتصادية فى حياة العرب الذين عاشوا فى البلاد التى فتحوها ، ذلك الجو الذى أوقفته عند حده شخصية عمر القوية والذى ما لبث أن طغى على شخصية عثمان التى كانت أضعف بكثير من شخصية عمر

على ان الأسس والتقديرات التى اعتمد عليها كل من كايثانى وطه حسين تختلفان كل الاختلاف . فبينما يميل أولهما الى النزول بتلك الشخصيات الكبيرة التى اشتركت فى الأحداث التاريخية الى المستوى الأدبى العادى (ومن المعروف عداؤه الشديد للخليفة على بن أبى طالب ذلك العدا الذى يرجع دون شك الى تأثره بما كتبه الأب « لامانس ») يخص الثانى أى طه حسين باجلاله واحترامه أبطال تاريخ الاسلام الدينى . وبالرغم من انه يعترف بما وقع من بعضهم من تقصير ومن البعض الآخر من أخطاء فقد حاول أن يبرر ما وقع منهم من أخطاء ، أو تقصير أو على الأقل أن يفرض فيهم صدق الايمان وسلامة النية ، حتى انتهى به الأمر الى الموافقة كل الموافقة على آراء المؤرخين المسلمين من أهل السنة الذين رغما من استنكارهم للخلافات التى قامت بين كبار صحابة النبى مسلمون كل التسليم باستقامتهم الأخلاقية ، ويمتنعون عن اصدار حكم نهائى على أى واحد منهم ولم يكن عثمان وحده (الذى نال بميته الشنيعة الجزاء على ضعفه) بل ان أولئك الذين شنوا حربا علنية ضد الخليفة على وفى مقدمتهم طلحة والزبير ان لم تقل وأم المؤمنين عائشة قد لقوا التسامح من جانب طه حسين كما وجدوا ذلك أيضا عند واضعى أسس الشريعة

الاسلامية (ولم يجدوا ذلك التسامح بطبيعة الحال عند أهل الشيعة) وربما كان الخلاف الوحيد هو ان هؤلاء يقولون بأن ما وقع هو القدر المقدر في حين ان طه حسين يرجع ذلك الى حكم الظروف . وهكذا يثبت استقلاله بوصفه مؤرخا ، ويؤكد عدم رغبته في المبالغة في تأليه المخلوقات البشرية الفانية وتمجيدها ..

واننا اذا جاز لنا أن نبدو ولو لمدى لحظة واحدة « ملكيين » أكثر من الملك « لكان في وسعنا أن نأخذ على طه حسين افراطه في القسوة على « معاوية » خصم الخليفة على اللدود ، ومؤسس الدولة الأموية الذي أظهرت كتب التاريخ نحوه أقل جانب من العطف . على ان كونه من صحابة الرسول أو بالأحرى أحد كتابه وأمناء سره جعله بمنجاة من صدور حكم نهائي عليه كالحكم الذي استحقه كل الاستحقاق – سواء في نظر الروايات التاريخية الصالحة أو في نظر مؤرخنا المعاصر – ابنه وخليفته « يزيد » بينما يتردد المؤرخ المستقل والغير المتحيز في اصدار حكم قاس مثل هذا الحكم على معاوية ..

هذا واننا نجد ان طه حسين عندما يبدى رأيه عن رابع الخلفاء الراشدين « على بن أبى طالب » يتعد عن تصويره في تلك الصورة التي صوره بها المؤرخون العرب القدامى الذين وان لم يتسامحوا في ذلك التعصب الشيعى الذى بلغ ذروته في تأليه ابن عم النبى – يصورونه في صورة أول وأفضل المؤمنين ويقولون انه كان يعمل في جميع الظروف طبقا للمبادئ الدينية والأخلاقية الصحيحة بعيدا عن كل ضعف بشرى وكل مطمع دنيوى ، وأنموذجا للاستقامة البعيدة عن كل مواربة وثفاق ورغم التسليم العام بصحة هذه الروايات ، فان الناقد الذى لا يريد أن ينسى تكوينه العقلى يجب عليه ألا يتردد في التشكك في قبول كل خبر من تلك الأخبار اذا كان يتعارض مع طبائع الأشخاص التى نسبت اليهم ، تلك الطبائع التى استطاع طه حسين بما أوتي من مقدرة على تعرف دخائل النفوس البشرية أن يصورها في أشكال تطابقها تمام المطابقة

وفي قبول أى خبر لا يقوم على أساس مراجع لا يتطرق الشك الى صحتها (كما هو الحال بالنسبة لعبد الله بن سبأ الذى من المعتقد انه هو الذى أوجد ذلك التطرف الشيعى بقصد بذر بذور الفتنة فى صفوف المسلمين)
 وطه حسين على علم تام بالمصادر ويعرفها حق المعرفة ، فقد سمح له امتناعه عن الرجوع الى ما كتبه المستشرقون المعاصرون بالاقتراب من هذه المصادر وعقله خال من كل رأى متحيز سابق ، وقد جمع هذه المصادر واستغلها على نطاق واسع وببراعة تدعو الى الاعجاب ورغبة منه فى الافادة من مواد لم يسبقه أحد الى الافادة منها لجأ الى ذلك المؤلف العظيم المعروف باسم « انساب الاشراف » الذى وضعه المؤرخ الشهير البلاذرى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ولم يطلع فقط على المجلد والنصف المجلد من كتاب « أنساب الأشراف » هذا ، اللذين نشرهما وعلق عليهما المستشرقان س . د . جويتاين و م . شلوسينجر من أساتذة جامعة أورشليم والذى أشار اليه أكثر من مرة ، ولكنه اطلع أيضا على أجزاءه الأخرى الكثيرة التى لم تنشر بعد والتى نقلها أو أخذ منها أو لخص عددا كبيرا من فقراتها والتى ليس ثمة شك فى انه قد اطلع عليها فى صورة منها منقولة بالتصوير الشمسى من المخطوط الموجود فى مدينة اسطنبول ، وقد كان له بعمله هذا فضل لا يستهان به على تفهم الدراسات التاريخية ..

هذا واننا نجد فى تاريخ المجتمع الدينى والسياسى الذى أسسه النبى محمد ان السنوات التى أعقبت وفاة النبى مباشرة تضع أمام نظر الباحثين سلسلة من المسائل الصعبة . ويكفى أن نذكر منها تلك المشاكل الخاصة بانشاء الخلافة وبتولى عمر هذه الخلافة بعد وفاة أبى بكر وبوصيته وبمجلس الشورى الذى أسسه عمر وهو على فراش الموت فضلا عن تلك المشكلة التى ربما كانت أكثرها كلها صعوبة وهى مشكلة الأسباب التى دعت الى الفتوحات الاسلامية وتكوين الامبراطورية العربية . وان هذه المشاكل جميعها وان كانت معقدة وذات حلول متعارضة لم تكن تشوش على أذهان المؤمنين كما حدث على العكس من ذلك بالنسبة للمشاكل

الخاصة بالفتنة الكبرى . وانا لنجد طه حسين في أحدث مؤلفاته الذى نشره أخيرا عن الشيخين أبى بكر وعمر يسير فى شىء كثير من الحرية والصراحة فى سرد تاريخ تلك السنوات الحاسمة بما عرف عنه من براعة ومقدرة ، وهنا نجد ان موافقته على ما جاء فى الروايات التاريخية الدينية كانت بوجه عام موافقة مطلقة ، وان تقده لا ينصب الا على بعض المسائل الخاصة مثل انكاره وجود وصية سياسية تركها النبى وتصحيح بعض التفاصيل الغير المطابقة للواقع فى قصة اسلام عمر وما شاكلها ..

أما فيما يتعلق بعدة مشاكل أخرى هامة فى حد ذاتها ولكنها ليست ذات أهمية بالنسبة لمظاهر الأحداث الأخلاقية الدينية فان طه حسين لا يعيرها أى اهتمام ونذكر من هذه المسائل موقفه من الخلاف حول تاريخ قيام حملة خالد بن الوليد على بلاد الشام ، وبنوع خاص حول تاريخ واقعة اليرموك التى لقى كائتانى عند بحثها شيئا كثيرا من التعب والجهد والتى كتب عنها صفحات طويلة ، ولما كان طه حسين لم يقصد وضع كتاب علمى بحث بل بالأحرى نشر خلاصة تاريخية فان عدم اهتمامه هذا جدير بكل موافقة ..

أما فى المسائل الجوهرية التى تتعلق بأعمق وأوثق خصائص تلك الظاهرة الفريدة التى لم يتم حتى الآن تحليلها تعليلا تاما وهى مسألة سرعة تحول سيطرة أهل المدينة على قبائل بلاد العرب البدوية الى امبراطورية عالمية متركزة كل التركيز، ومنظمة تنظيما قويا ولو أنه بدائى ، فانا نجد أن طه حسين له فى مثل هذه المسائل كلمة يقولها وفكرة شخصية يعبر عنها جديرة بالانتباه اليها والمناقشة فيها دائما حتى ولو كنا لا نريد أو لا نستطيع أن نتقبلها بحذافيرها . ويدخل فى هذا الموضوع الرأى الذى يديه طه حسين حول الفتوحات العربية اذ يقول انها لم تكن نتيجة لخطة مرسومة لنشر الديانة الاسلامية عن طريق السلاح كما جاء فى الروايات التاريخية القديمة ، وما كانت حسب رأى دينكلاير وكائتانى المعروف نتيجة لحركة تهجير غير منظمة تمت تدريجيا ، وكانت قد بدأت بدافع بعض العوامل

الاقتصادية ، ولكنها بدأت بقصد الدفاع عن سلامة أراضى جزيرة العرب الموحدة ضد ما كان من الممكن أن يقع عليها من عدوان من جانب الأمبراطورية البيزنطية والأمبراطورية الفارسية وبقصد تحرير العرب القاطنين فى الشام وفى العراق والخاضعين لسلطة هاتين الأمبراطوريتين وكذلك رأيه فى تعليل مقتل عمر اذ افترض وجود مؤامرة أوحى بها شعور وطنى وتعصبى لا يمكن تحديد مصدره ..

هذا وليس ثمة شك فى ان ما ذكره طه حسين عند تقديمه شخصيتى أبى بكر وعمر قد جعل منهما شخصيتين مثاليتين اذ تبدو سيرة حياتهما أقرب ما تكون الى سير القديسين ولكننا لا نستطيع القول بأن الصورة التى صور بها هذين الشيخين اللذين أتما العمل الذى بدأه النبى ليس فيها من خلال تفسيراته ملامح لا تقبل الجدل . وانا نجد ان طه حسين فى بداية الكتاب يصرح بأنه لم يشأ تقريظ الشيخين الجليلين وانه قد بذل كل جهده لكى يفهم أو لكى يجعل القراء يفهمون حقيقة شخصيتيهما . ولقد نجح فى ذلك أيما نجاح كما نجح فى هذا الكتاب أيضا وفى جزءى كتاب « الفتنة » فقد استطاع أن يظهر فى صورة حية أبطال قصته الأساسيين وأبطالها الثانويين واستطاع أن يقدمهم جميعا لا فى شكل شرائق باردة لا دماء فيها ولا حياة ولكن فى شكل آدميين من عظم ولحم يتحركون ويتحدثون ويمثلون أدوارهم على مسرح التاريخ ..

هذا وان السحر الذى امتاز به فن طه حسين ، ذلك الفن الواعى رغم تلقائيته قد خلع على النشر العربى ثوبا جديدا وجعل وسائل التعبير به مقصورة على ما هو جوهرى وجرده من تلك المحسنات البلاغية التى لازمتها من عهد بعيد دون أن ينتزع ما فى عباراته الأصلية من جزالة . كما انه حول تلك العبارات النحوية المعقدة الى جمل قصيرة بسيطة دون أن يفقدها حلاوتها الأصلية . وانا نشاهد كل هذه المزايا فى كل ما كتبه من صفحات تبدو لنا فى كل صحيفة منها صورة المؤرخ العلامة مرتبطة كل الارتباط بصورة أستاذ فى فن الكتابة والأسلوب ..

طه حسين والثقافة اليونانية

د. شكرى عياد

أكانت مصادفة أم قصدا ان بعثة طه حسين الى فرنسا بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٩ ، قد حملته الى أجواء جديدة غير أجواء الثقافة العربية الخالصة من أدب وفلسفة وتاريخ ؟.. ان طه حسين لم يذهب الى فرنسا ليتلمذ للمستشرقين الذين كان قد درس فعلا على عدد من فحولهم فى الجامعة المصرية القديمة ، أو لم يذهب لهذا وحده ، ولكن بعثته تركزت بقصد منه أو من الجامعة التى أوفدته على دراسة المجتمعات القديمة ، فدرس اليونانية واللاتينية والتاريخ اليونانى والرومانى ، وكانت رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه من السربون « الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون » هى فى الواقع رسالة فى علم الاجتماع ، والأستاذ الذى أشرف عليه فى إعدادها هو شيخ علماء الاجتماع الفرنسين فى عصره المفكر الكبير « اميل دوركايم » ..

وهكذا كان أول عمل تولاه طه حسين فى الجامعة المصرية هو أستاذ التاريخ القديم «اليونانى والرومانى» وبقي فى هذا المنصب من عام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٥ عندما انتقلت الجامعة الى ادارة الحكومة فأصبح أستاذا لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب ..

واستأثرت الثقافة اليونانية بالجانب الأكبر من انتاجه فى هذه الفترة :

« صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان » (١٩٢٠) « نظام
الاثنيين » (١٩٢١) - « قادة الفكر » (١٩٢٥)

على ان طه حسين في هذا الانتاج الأدبي لم يكن مجرد أستاذ شاب
متحمس ، يريد أن يثير اهتمام الجمهور القارئ بالعلم الذي يدرسه
لطلابه بين أروقة الجامعة ، كما انه في تخصصه وعكوفه على الثقافة
اليونانية زمنا لم يكن مجرد عضو بعثة توجهه الجامعة الى نوع من
الدراسة ليعود فيضطلع بتعليمه للطلاب ..

لقد كان اقتران عصر النضج عند طه حسين بالثقافة اليونانية - بل بهذا
المزيد بالذات من الثقافة اليونانية والدراسة الاجتماعية - حلقة حاسمة
في تطوره الفكري ، ومن ثم في تطور ثقافتنا المعاصرة جميعا . كانت له
أسبابه العميقة في المناخ الفكري كما كانت له آثاره التي تشابكت بقوة
في نسيج حياتنا الثقافية من بعد ..

ان طه حسين - الطالب الأزهرى الذى أبعد الى الجامعة الناشئة -
لم يكن ليستريح قط الى دراسة أدبية أو لغوية مقفلة على نفسها ، تمنح
وتصب في نفس البئر التي لم تعد قادرة على أن تروى أحدا أو شيئا .
ولعل « ذكرى أبى العلاء » هى أول دراسة في تاريخ الأدب العربى
تستخدم الدراسات الاجتماعية والنفسية استخداما واعيا لاضاءة الظواهر
الأدبية ..

وما كانت الثقافة العربية في عصور ازدهارها لترضى بالعزلة والانطواء ،
انها لم تكد تخرج من أحضان شبه الجزيرة العربية حتى انطلقت تغترف
من ينابيع الثقافة العالمية لذلك العهد ، ثم أصبحت هى نفسها لغة الثقافة
العالمية الأولى في العصور الوسطى . فاذا أرادت أن تعود لغة للثقافة
العالمية مرة أخرى فلا بد لها أن تستأنف ذلك التعامل الحر بينها وبين
ثقافات العالم ، بل بينها وبين الثقافة اليونانية بالذات ، فهذه الثقافة
هى أم الثقافات الأوربية الحديثة جميعا ..

لن يفهم المرء شعر كورنى ، وراسين ، وميلتون ، وجوته .. الا اذا

قرأ هوميروس ، واسكيلوس ، وسوفوكليس ، ويوريديس . ولن يعرف أصول فلسفة اوجست كونت الا اذا درس ارسططاليس ، بل ان العلم الأوربي الحديث لا يتنفس الا بروح البحث العقلى التى نفخها فيه الفكر اليونانى ..

تلك أفكار لابد انها راودت طه حسين الشاب قبل بعثته ، وان لم تتجسم الا فى كتبه التى أنشأها بعد أن تزود ما شاء من الثقافة اليونانية ومن الثقافة الأوربية الحديثة . وستظل تنمو معه وتتطور من « الصحف المختارة » و « قادة الفكر » الى « من حديث الشعر والنثر » - الذى يجب أن تؤرخ بظهوره نشأة الأدب المقارن عندنا - وترجماته عن سوفوكليس ..

على ان العوامل التى دفعت طه حسين نحو الثقافة اليونانية ونحو الدراسة الاجتماعية فى الوقت نفسه لم تكن عوامل نوعية متصلة بالانتاج الفكرى فحسب ، بل كانت فى الوقت نفسه عوامل حضارية عامة معبرة عن روح العصر ..

كانت سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى فى مصر مزيجاً من الثورة الرومانسية ومن عصر التنوير ، ومع ان الألوان تختلط وتتداخل فأننا نستطيع أن نميز بين التيارين بوضوح ..

نستطيع أن نميز بين عاطفية المنفلوطى المتمتجة بالقلب الانشائى وتشاؤمية عبد الرحمن شكرى وانفراديته من ناحية ، وبين محاولات فرح انطون لتقديم التفكير الاجتماعى العلمى فى قالب المقالة والقصة والمسرحية من ناحية أخرى ..

على ان التيارين لم يكونا - كما سبق أن أشرت - مجرد تيارين أدبيين أو ثقافيين ، بل كانا تيارين حضاريين أصليين ، ولعلهما أقرب الى تفسير تاريخ تلك الحقبة ومعقاتها فى المراحل اللاحقة من الكلام عن المحافظة والتجديد اللذين يتضاءل خطرهما بالتدرج كقوتين متعارضتين ..

كان مصطفى كامل هو التعبير القومى عن الثورة الرومانسية ، وكان

لطفى السيد مثل عصر التنوير . وكانت الثورة الرومانسية تستأثر بولاء الأغلبية العظمى .. ولكن سلطان العقل كان يفرض نفسه بقوة واستمرار على الفكر والمجتمع والسياسة جميعا ..

كان الرومانسيون يتكلمون باسم الحق والعدل ويندفعون الى اثبات وجودهم بقوة الحياة نفسها ، وكان العقليون يتكلمون باسم المنطق والواقع ويطالبون أولا باستقامة التفكير ووضوح الأهداف . وكان الفكر اليونانى - والفكر الارسطى بوجه خاص - هو عمدة أنصار العقل . وهكذا لم يذهب طه حسين الى الفكر اليونانى أدبيا فحسب ولكنه ذهب اليه أدبيا يغلب عليه طابع المفكر . ومن هنا لم تكن مصادفة أيضا ان جاءت الكتب الثلاثة التى ألّفها عن الفكر اليونانى عقب عودته مقسمة على ميادين ثلاثة : الأدب ، والسياسة ، وتاريخ الحضارة ..

وبينما كان الكتاب الأول محاولة - لم تستكمل - لعرض أعمال الشعراء التمثيليين اليونان فى صورة تصلهم بجمهرة القراء من أيسر سبيل ، فقد كان « نظام الاثنيين » ترجمة دقيقة محكمة لنص من أهم نصوص التاريخ اليونانى . ولعل طه حسين قد أراد أن يقدم فيه مفهوما واضحا لمعنى « الديموقراطية » التى كانت قد أصبحت هدفا من أهداف الحياة السياسية ، وهو يصرح بذلك بقوله فى مقدمة الكتاب ..

« والكتاب كما هو أحسن صورة موجودة تمثل الحياة السياسية اليونانية ، وهو مع ذلك صورة حية لنشأة الديموقراطية واستحالتها ورقبها قليلا قليلا حتى تصل الى أقصى ما يقدر لها من النمو وسعة السلطان » ..

أما الكتاب الثالث « قادة الفكر » فانه يعبر عن فكرة متكاملة فى تاريخ الحضارة . وطه حسين لا يترجم لهؤلاء القادة (هوميروس - سقراط - افلاطون - ارسطو - الاسكندر - يوليوس قيصر) حتى يوضح فكرته عنهم ، ولكن كيف ان القائد ليس شخصية منفصلة عما حولها بل هو قبل كل شيء مثل عصره وبيئته ..

فاذا تنقل بين فصول الكتاب رأيته يعرض فكرة في تاريخ الحضارة ،
قد لا يمكننا أن نسميها « نظرية » ولكنها على الأقل تهيب الأذهان
لقبول هذا النوع ..

فالمجتمعات في تطورها تحتاج أولا الى قيادة الشعراء ثم الفلاسفة ثم
الحكام المفكرين ، وهذا هو أساس اختياره لمن اختارهم من القادة ،
ولكنه لا ينفصل بنظريته عن الواقع قط ، وان كان الواقع الذي ينظر
اليه أكثر من غيره هو واقع الحضارة الأوربية ..

ولهذا يتحدث عن قيادة الدين للفكر في العصور الوسطى ثم عن تعدد
القيادات في العصر الحديث ، فلا الشعراء ولا الفلاسفة ولا العلماء ولا
الحكام هم قادة الفكر في العصر الحديث ، ولكن هؤلاء جميعا ، ومعهم
كثيرون غيرهم ..

ولقد كانت سياحة رائعة تلك التي قام بها طه حسين في مجال الفكر
اليوناني ، سياحة جسمها بعد ذلك في « رحلة الربيع » (١٩٤٨) ..

ولم ينقطع قط عن الالمام بمشاهدها ، وما من شك انها كانت ذات أثر
كبير في تشكيل ما استطعنا أن نسميه « أسلوبا كلاسيكيا » في أدبنا
الحديث ..

أسلوب طه حسين في امتداده وتماسك أجزائه وتصفحه لجوانب
الموضوع الواحد في موسيقاه وتوازن مقاطعه ووقار عبارته مهما تمتلىء
بالعاطفة .. أسلوب لا يمكن أن يكون الا ثمرة التقاء الثقافة اليونانية
بالثقافة العربية في ذهن خلاق ..

طه حسين والأدب الفرشى

د. ريمون فرنسيس

ان هذا الموضوع من الاتساع بحيث لا يمكننا أن نقصره ، بلا
أسف ، على بحث يقع في بضع صفحات.. واني لأسعد لو أن
هذه الصفحات أوحى ، على الأقل ، الى طالب ماجستير أو
دكتوراه بفكرة تكريس جهوده لدراسة موضوع قد يهم علماء الاجتماع
ومؤرخى الحضارة ، أو يتعدى اطار الأدب المقارن بمعنى الكلمة ..
سيأخذ طه حسين اذ ذاك ، بلا أدنى شك ، مكانه بين كبار كتّاب العالم
الذين ، نظرا لتمكنهم من لغة أجنبية الى جانب لغتهم الأصلية ، عرفوا
كيف يعودون مواطنيهم على ذخائر ثقافة وفكر لم يكن هؤلاء المواطنون
ليكتشفوها بدونهم ..

ان الحوار بين الغرب (وبالأخص فرنسا) وبين العالم العربى يرجع
الى زمان بعيد . والصدام السياسى ، والخلافات الايديولوجية ، وعدم
الفهم ، وألوان شتى من الصعاب ، عاقت أحيانا هذا الحوار أو عكرت
صفوه أو حرقته ، ولكنها لم تتوصل ، والله الحمد ، الى ابطاله . ولكن
هذا الحوار ، وان كان حقيقيا ولا مناص من انكاره على مستوى الهيئات
والعلاقات الدولية ، الا انه كان ينتظر ، ليؤثر على الأفئدة والقلوب .
أن يدرك مفكر له مكانة استثنائية مداه ، وأن يقف حياته لا للمحافظة

عليه فحسب ، وانما لتدعيمه أيضا . والصدفة التي تحسن صنع الأشياء أحيانا شاءت أن يكون هذا الرجل المنتظر هو طه حسين ..

أقول الصدفة لأن لا مولده ، ولا بيئته العائلية ، ولا تعليمه الأول في كتاب قريته ، ولا حتى سنى دراسته في الأزهر التي يحكيها لنا الجزء الثانى من « كتاب الأيام » فى رواية بالكاد قصصية ، لم تكن لتنبئ بأن طه حسين سيلعب ، منذ شهر نوفمبر عام ١٩١٤ حيث ذهب لأول مرة الى باريس ، دور همزة الوصل بين فرنسا وبلدنا ..

ربما لم يعلم طه حسين جيدا فى ذلك اليوم انه بتخليه عن زيه الأزهرى ، يسلك طريقا أصبح منذ ذلك اليوم طريقه .. طريق تمرين شاق ، ولكن كم هو غنى بالثمار ..

● همزة الوصل ●

بين أول اتصال له بالجامعات الفرنسية قبيل الحرب العالمية الأولى ويوم قريب أهداه فيه رئيس الجمهورية العربية المتحدة أرفع وسام تقديرا لجهوده فى خدمة الثقافة . مضى نصف قرن . نصف قرن من الجهود ، والبحوث ، والمشروعات ، والتحقيقات التى شكلت الملامح الجميلة لهذا الوجه الذى يتفق الشرق والغرب على سلطانه ونفوذه .. نصف قرن من ذكاء مقدام ، وسعة أفق ، وانصات الى الناس ، واخلاص داخلى ، يسيطر عليهم بلا كلل ، واهتمام دائم بثقافة انسانية لا تحدّها أية حدود ولا تقلل من شأنها أية حزية ..

هذه الملحوظة أساسية اذا أردنا ألا نخطئ تقدير المكانة التى تحتلها فرنسا والفكر الفرنسى فى مؤلفات طه حسين وحياته ، فلو لا تمسكه الذى لا يتزعزع بقيم الفكر ، لما استطاع أن يوفق بين التراث الغربى والكنوز الشرقية وأن يحتفظ فى ذاته وقبل أن ينقله الى الآخرين ، بتوازن فكرى هو شرط أساسى لكل تبدال مشر ..

هناك لحظة — وهى أفضل لحظة — يختلط فيها ما يعطى بما يقبل ،

لحظة أسلم بأنها مميزة ونادرة يعود فيها النور سرا الى مصدر انبثاقه ،
دون أن يفقد شيئا من قوته وبريقه ولمعانه ..



حرص كل الفرنسيين الذين تعرضوا للحديث عن طه حسين على أن
يؤكدوا بالذات طابع التبادل هذا بموضوعية قد أتعرض معها أنا لمخالفة
أبسط قواعد النزاهة اذا كتبت أمر هذا الطابع ، أو حتى قللت من شأنه
وفي الحقيقة اذا كان طه حسين يدين بالكثير للفكر الفرنسى فان الفكر
الفرنسى مدين بدوره بالكثير لطه حسين ..

والخواطر القليلة التى تلى تعتزم أن تدلل على ذلك ..

استعمل كلمة « خواطر » عمدا : ان اسهامى فى هذا الكتاب المخصص
لأستاذ تدين له أجيال بأكملها - ومن ضمنها الجيل الذى أتمى اليه -
أيا كان مستواها وأيا كان تخصصها ، بالميل الى التطلب والمجهود . أقول
ان اسهامى لايمكن أن يأخذ شكل عمل شامل أو حتى عملا علميا بسيطا .
وللإلمام بجوانب موضوع يمثل هذا الاتساع ، يجب أن نكشف أسرار
مؤلفات ضخمة ومتنوعة ، وأن نجمع التفاصيل والاشارات ، وأن ننظر
الى هذه المؤلفات من آلاف الزوايا ، وأن نثير ألف قضية . باختصار
يجب أن نطبق على هذه الدراسة الدقة المنهجية التى لايمكن اغفالها فى
بحث أكاديمى . لذا تعمدنا أن نترك جانبا وجود فرنسا فى قصص مثل
« أديب » أو « الحب الضائع » أو « فى الصيف » .. حتى لا تثقل
على القارئ ..

نقول فى بادىء الأمر ، موجّهين حديثنا الى الذين قد تستهويهم هذه
المحاولة يوما ، ان وجود فرنسا فى كتابات طه حسين الانتقادية لا يقتصر
على ثلاثة أجزاء « صوت باريس » حيث جمع المؤلف المقالات التى خص
بها أعمالا درامية فرنسية (أو مترجمة الى الفرنسية) أتاحت له فرصة
مشاهدتها أو قراءتها فى كتاب أو فى عدد أو آخر من الالوستراسيون .
حتى فى هذا المضمار المسرحى (الذى قد يصلح وحده موضوعا لرسالة

ممتازة) من الضروري أن نكمل المرجع الذي أشرت اليه بجزئي « لحظات » ، ولنلاحظ ان عنوانها أقل تعبيراً ..

وفي الواقع ، اذا استثنينا بعض صفحات من ديوان شعر عنوانه « انت وانا » لبول جيرالدى . وجدنا ان « لحظات » ، شأنها شأن « صوت باريس » ، مجموع دراسات — نشرت مبدئياً فى السياسة من يناير عام ١٩٢٣ ، الى مايو عام ١٩٢٤ — لمسرحيات كل من بول جيرالدى ، وهنرى لافدون ، واسكندر دوماس الابن ، وفيكتور هيجو ، والفريد سافوار ، وميتزلنك ، وادوارد بورديه ، وهنرى باتاى ، وجاك دوفال ، وموريس دونيه ، وغيرهم كثيرون ..

أخيراً يجب أن نرجع الى مؤلف عنوانه « فصول فى الأدب والنقد » اذا أردنا أن نعرف رأى طه حسين فى ارتجال فرساي لموليير ، أو ارتجال باريس ، أو بين بين (انترمزو) لجيرودو ..

● المسرح الفرنسى ●

ليس فى نيتى الاشارة الى كل شىء ، وانما يهمنى أن أوضح انه ، فيما يتعلق بالمسرح الفرنسى وحده — وأعترف بأنه يحتل مكاناً كبيراً فى مؤلفات طه حسين الانتقادية — على الباحث أن يتصفح أعمال طه حسين كلها ، ولا يكتفى بالفهارس التى عادة ما تكون موجزة ، ولا تدل عما اذا كان العنوان الذى تنقله عنوان قصة أم مسرحية ..

ولكن طه حسين لم يهتم بالمسرح الفرنسى دون غيره . من المؤكد ان قراء مجلة الثقافة القديمة أو الكاتب المصرى تابعوا فى حينها — والا فبامكانهم أن يجدوها مجمعة فى أجزاء مثل « فصول فى الأدب والنقد » أو « ألوان » — المقالات الدسمة التى خص بها المؤلف موضوعات تبين ، بتلونها وعمقها ، سعة قراءاته وحب استطلاع.. ولو أننا علمنا ان طه حسين يكرس يومياً ، منذ سنوات طويلة ، وأياً كانت أوجه نشاطه أو واجباته الاجتماعية ، ثلاث ساعات لمخالطة المؤلفين الأجانب ، لفهمنا بلا غناء

اهتمام قرائه بموضوعات لا رابط بينها الا الاهتمام الذى أوحى بها ..
هذا مقال عن السلطان الكامل لجيرودو سيحمله على الاهتمام بخيانة
المثقفين لجوليان بندا والدفاع عن الأدب لدوهاميل ، ونحن الفرنسيين
لجورج برنادوس ..

ومن نبذة تاريخية عن الأكاديمية الفرنسية ، سنراه ينتقل بلا سابق
انذار - ما دامت الفرصة قد سنحت له - الى أسبوع قضاء جول رومان
فى القاهرة ، وألقى خلاله محاضرتين وأجرى اتصالا مع المفكرين المصريين
وما دامت حكايات فولتير قد استرعت انتباهه ، سيشارك فى المتعة
التي وجدها فيها بنشره دراسة عن صور من المرأة فى قصص فولتير .
ولكن فولتير لن يحوله عن مدموازيل دى لسيناس التي سيدرسها فى
كتاب تحت عنوان « الساحرة المسحورة » ، ولا عن مدام دى ديفون
التي سيدرسها فى كتاب تحت عنوان « الأمل اليأس » ، ولا حتى عن
« اوجست كونت » وحبه اليأس لكلوتيلد دى فو الذى سيحلل خيبته
فى قصة « فيلسوف عاشق » ..

ولاهتمامه بعقد مقارنة بين اثنين من المؤلفين - أحدهما مسلم وقديم
والآخر مسيحي وحديث - عالجا الموضوع نفسه فى قرون مختلفة ،
واضعين فيه مع ذلك ما يميز تكوين وثقافة كل منهما ، سنرى طه حسين
يحدثنا عن كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم وعن الحب لستندال

يحدث أيضا أن يتجاوز المؤلف حدود مأساة خاصة فى حياة كاتب ،
أو حدود عمل معين ، كما هو الحال فى الأمثلة التي ذكرناها . فى خطاب
الى « مى » ، سيدفع مثلا عن الغرب تهمة الاتجار التي لا يمكنه أن
يقبلها . وفى مقام آخر ، يتفق الأسلوب والجدال ذاته عقب إثارة سارتر
موضوع التزام الأدب ، يبحث طه حسين ويدرس موقف الأدب بين
الاتصال والانفصال لا فى ضوء الملابس الحديثة فقط وانما خلال
تاريخ الآداب العالمية أيضا . وخوفا من أن يظل غامضا ، يعود الى
الموضوع ويعرض ، فى مقالين جمعتهما فى ألوان ، ملحوظاته على « ما هو

الأدب ؟ » لجان بول سارتر ، ويوضح الى أى حد تتجاوب مؤلفات هذا الأخير القصصية والدرامية مع وجهات نظر سارتر الفيلسوف صاحب نظريه الوجوديه . نحن هنا على بعد خطوة من فكرة اللامعقول . ويخطو طه حسين هذه الخطوة بدراسته لقصة البير كامى الوباء التى يفضل عليها سوء التفاهم ، وكاليجولا

● الشعر الفرنسى ●

لا ينبغى أن نعتقد أن الشعر الفرنسى لا وجود له فى مؤلفات طه حسين الانتقادية . يكفى ، للاقتناع بعكس ذلك ، أن نقرأ بعناية صفحات مؤلفنا الممتاز عن بول فاليرى (الذى أعجب به بشدة قبل أن يعرفه شخصيا) فى « ألوان » وعن « القبر البحرى » فى فصول فى الأدب والنقد الذى حال خوفه من أن يخون المؤلف دون ترجمته لبعض أبياته أيا كان أهمية المكانة التى يحتلها الكتاب الفرنسيون ومؤلفاتهم فى بحوث طه حسين الانتقادية يجب ألا تنسينا أنه لجأ الى وسائل أخرى ، أكثر بساطة وأكثر فعالية فى الوقت نفسه ، ليعرف العالم العربى ، بطريقة مباشرة ، ببعض نماذج الأدب والفكر الفرنسى

أعنى تفكيره فى تنمية ملكة الترجمة لدى من كشفت لهم اللغة الفرنسية عن دقتها وأسرارها من بين تلاميذه وأصدقائه .. أكثر من ذلك ، أقول ان طه حسين ، لاهتمامه بوضع روائع الأدب الفرنسى ، كلاسيكية أم حديثة ، فى متناول يد القارئ العربى ، وفى لغة سليمة ومفهومة فى آن واحد ، لم يخش أن يجعل من هذا الأمر واجبا معنويا بل قوميا . تكبد المشاق ليسهر على تمثيل اللغات الأجنبية فى التعليم الجامعى ، ولم يتردد ، وهو عميد كلية آداب القاهرة عام ١٩٤٠ ، فى انشاء قسم فرنسى يزود طلابه بتعليم أحسن الكليات الفرنسية ، وأكثر من البعثات العلمية ، ولم يخل بالانفاق عليها ، وعمل على أن يتناول الدارسون فى رسالاتهم حتى الموضوعات الشائكة

غايته من كل هذا هي ألا يغار المنتفعون بهذه العناية على علمهم ، بل على العكس أن ينقلوا الى الذين لم تتح لهم مثل هذه الفرص ، الثروة التي حصلوها ، في شكل منشورات وتراجم . وتدعيما لفكرته تلك ، ترجم طه حسين ، من بين ما ترجم ، « أندروماك » لراسين ، و « زاديغ » لفولتير ، ولأندريه جيد ، « أوديب » و « تيسوس » في مجلد ، و « بروميتيه غير محكم الأغلال » في عدد من أعداد الكاتب المصرى ..

● أندريه جيد ●

ولنقف بعض الوقت ، ما دمنا بصدد الحديث عن أندريه جيد ، عند المكان الذى أفرد له طه حسين ، لا فى أعماله ك مترجم وناقد فحسب وانما فى فكره وقلبه كذلك

اذا كان قد أشار الى صاحب « الباب الضيق » فى هذا المقال عن فاليرى (ألوان ص ٥٠ - ٦٤) أو ذاك عن « جون بول والسينما » (نفس الجزء ص ٣٣٣) فانه يفرد له ، بمناسبة تجديده لأساطير فيلوكتيت وأوديب ، اثنتى عشرة صفحة كبيرة فى (فصول فى الأدب والنقد ص ١٥٢ - ١٦٣) ، تتيح له فيها اليوميات المنشورة عند جاليمار الفرصة للتعبير عن اعجابه بلا تحفظ ..

أخيرا ، قدم طه حسين للنص العربى لأوديب وتيسوس بست وخمسين صفحة ، ولنضف إلى ذلك رده على خطاب جيد الموجه الى نزيه الحكيم معرب « الباب الضيق » كمقدمة لهذا الكتاب

والصداقة ، شأنها شأن الحب ، لا سلطان للارادة عليها . ولكن عندما تنمو هذه الصداقة وتشب بين اثنين من رجال الأدب مثل جيد وطه حسين ، من حقنا أن نتساءل عن الأساس الذى تقوم عليه ، مهما كان واهيا . ولكنه ، فى الحالة التى نحن بصدددها ، متين وسيتأثر به ويعرف أصالته المحبة من يقدر الصداقة فى حد ذاتها ومن كان ليس بغريب على جيد أو طه حسين بصفة خاصة .. ولندع الكلمة لهذا الأخير :

« لا غش ولا محاولة للغش » ..

« لا يستطيع الا أن يكون صريحا صادقا »

« الصراحة والصدق هي المميز الأول والأخير ، المميز الأساسي لشخصيته المعقدة الخصبة البسيطة المتعددة الواحدة مع ذلك »
« عود نفسه الاستقلال التام »

« ينفرد بالملاءمة بين تمرده الداخلي وسيرته الخارجية »

مما لا شك فيه أنه ، بموجب هذه الصراحة المتبادلة وحب الاستقلال في التعبير عن أكثر الآراء جرأة ، حدد المؤلفان ، أعني الصديقين ، موقفهما من موضوع هام أثاره جيد بمناسبة تعريب « الباب الضيق » . كان يخشى ألا يجد مثل هذا النص قراء : « ذلك ان واحدة من الخصائص الجوهرية في العالم المسلم ، فيما بدا لي ، انه وهو الانساني الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة »
وأوضح طه حسين الأمور في رد بالعربية والفرنسية نشره في مدخل الترجمة . هذه بعض جمل منه لها دلالتها :

« لم يكن من اليسير أن يظهر كذا الذين لقيتهم من المسلمين على حقائق الاسلام ، فلو قد تعمقوا الدين تعمقا دقيقا لأظهروا على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب »

لن نقف أكثر عند هذا التباين في وجهات النظر . وفي الحقيقة ، لم يكن جيد ليطلب الا أن يكون مخطئا . ونجاح « الباب الضيق » في نصه العربي دليل قاطع على ذلك . لم يكن هذا هو المؤلف الوحيد لجيد الذي نقله معاونو طه حسين الى العربية

ولكن الشواهد المكتوبة عن هذين الاسمين اللامعين في أول القرن العشرين لا تقف عند هذا الحد . لقد نشر جيد في الصفحة الأولى من الليتيرير (الذي أصبح فيما بعد الفيجار ليتيرير) الصادر يوم السبت ١٢ ابريل ١٩٤٧ مقاله المعروف تحت عنوان : « مقابلة مع الكاتب العربي طه حسين » . واستخدم نص المقال ، باستثناء جملة أو اثنتين ، كمقدمة

لكتاب الأيام المنشور في العام نفسه عند جاليمار
وأقف بعض الوقت عند ما قاله جيد ، لا لأن جيد اسم لامع وانما
لأن أقواله تتضمن أهم ما سيقوله فيما بعد نقاد مثل هنرى موميريه في
«أسبوع في العالم» ، وموريس دروون في «بارى بريس لانترونزيجون» ،
وروير لاندري في «هذا الصباح» ، وأ. ف. في «الآداب الفرنسية» ،
وآخرون مثل توماس بودوان وايديت توماس ، الخ .. عن مؤلفات من
أجل مؤلفات الأدب العالمى

نقول ان ما من أحد مثل جيد كان ليستطيع أن يتحدث عن عزلة طه
حسين و مرجعها ضرارته ، ولا عن انطوائه اللارادى والنتائج المعجزة
التي ترتبت عليه

ومن الطريف أن تقرأ ، في هذا المقال ، وبشكل يكاد يكون مختلفا ،
الكلمات التي كان طه حسين قد قالها في جيد والذي يبدو أن هذا الأخير
نم يعلم بها . « طه حسين متمرّد ، وراء مظهره الهياب . وتواضعه الظاهري
ليس الا ستارا لكبرياء عظيمة شرعية »

ان هذه الكبرياء انتصار على القدر . وبصيرة طه حسين مزيج من
السكون الداخلى والتأمل الذى تولد أثناء الفكرة وتتحرك وتثبت
وجودها وتتفتح ، بشجاعته وعنده ، يعرف طه حسين كيف يقول لا
بلا تحفظ خطابى أو انصاف حلول . ولكن أية ضحكة مستريحة جليلة ،
وأى حماس متجدد دائما اذا ما اتفق مع محدثه

ان هذا الرجل المهيء للأنوار القيمة فقط كسيل من الأفكار ، ومنجم
للمعرفة ، وساحر بالكلمة . ويختتم المقال بهذه السطور التي يلخص فيها
جيد اعجابه ويرتقى ، على طريقته ، بالجدال :

« ما قد يدهشنا ، ونحن ثملون ، أدبيا على الأقل ، بالاقلاص والفشل ،
هو أخيرا هذا المثال للنجاح وتغلب الارادة وانتصار النور الفكرى حيثما
على الظلمات ، مما يجعل هذا الكتاب الغريب الغير حالى مشجعا »

بعد ذلك بثلاث سنوات ، أى عام ١٩٥٠ ، أكد كل من ايتامبل في

« العصور الحديثة » واندريه روسو في « الفيجارو ليرير » واميل هنريو في مركز البحر المتوسط الجامعي في مدينة نيس - ونكتفى بذكر هؤلاء - بعبارات مؤثرة معجبة ما تدين به الثقافة الفرنسية للذي عين اذ ذاك وزيرا للمعارف المصرية . هذا وكانت الصحافة الباريسية والاقليمية قد أشارت ، في نوفمبر ١٩٣٨ ، وبمناسبة درجة الدكتوراه الفخرية التي منحتها اياه جامعة ليون في احتفال مهيب ، الى طابع الوصل هذا بين الفكرين الفرنسي والعربي . مما يدعم العمل الانساني الكريم لخدام الفكر المخلص العبقرى العظيم : الدكتور طه حسين

طه حسين مفكرًا

محمود أمين العالم

في عام من تلك الأعوام التي تلت الحرب العالمية الثانية ، لعله عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٧ ، لا أكاد أذكر ، ذهبت مع صديقين عزيزين للقاء الدكتور طه حسين في بيته .. وكانت بلادنا آنذاك تحتدم بالصراع الوطني والاجتماعي معا .. على ان حديثنا مع الدكتور طه حسين كان في البداية حديث الشعر وحديث الأدب ، وراح ثلاثتنا يعرض على عميد الأدب بضاعته من شعر وقصة ، نستأنس منه الرأي والمشورة .. ثم ما لبث مجلسنا أن عرج على السياسة .. لقد اشتتم منا الدكتور طه حسين اتجاهها فكريا معينا ، ونشاطا سياسيا عمليا ، فما لبث أن اندفع بكليته الى حديث السياسة .. وأحسست في حديث الدكتور طه حسين اهتماما وحماسا بهذا الحديث أكثر مما أحسست به في حديث الأدب .. ودار الحديث حول الصراع المحتدم بين اليمين واليسار ، وحول حاجة البلاد الى تغيير اجتماعي عميق .. وأذكر ان الدكتور طه حسين قد اختتم هذه الجلسة بهذه المعاني التي لا أذكر كلماتها ، ولكني ما زلت أعيها وأتمثلها .. قال الدكتور طه ما معناه : انكم تتحدثون كثيرا عن الثورة ، وتكتبون عن ضرورة الثورة ، ولكنكم لا تعرفون ولا تتقنون فن العمل الثوري .. ما أحوجكم الى دراسة

التكتيك الثورى والاستراتيجية الثورية !.. وخرجنا من مجلس عميد الأدب فى شبه ذهول .. لا تملأ نفوسنا آراؤه الأدبية وملاحظاته النقدية ، بقدر ما تهزها هذا هذه الكلمات ، هذه الدعوة الحاسمة الى العمل الثورى العلمى المنظم .. ولعل هذا اللقاء المبكر مع الدكتور طه حسين كان عاملا من العوامل الحاسمة فى تشكيل مجرى حياتى خلال الأعوام التى تلت هذا اللقاء ..

ولست أسوق هذا كله ، لأحكى حكاية لقاء مع الدكتور طه ، أو لأحمل الدكتور طه مسئولية حياتى الفكرية والسياسية ، وانما قصدت أن أتخذ من هذه الحكاية وهذا اللقاء بداية للحديث عن جانب من جوانب عميد الأدب ما زال بعيدا عن الدرس والتحليل والتفسير والتقييم لقد ذهبنا الى الدكتور طه حسين لنستأنس برأيه فى شأن من شئوننا الأدبية ، وخرجنا من مجلسه بتوجيه فكرى ، ودعوة الى موقف عملى ، ومسلك ثورى ..

والحق ، اننى منذ هذا اللقاء المبكر ، وأنا أتأمل الدكتور طه حسين فى كل ما أقرأ له ، وأسمع عنه ، وأرى منه ، وما أكثر ما اختلطت فى وجدانى حقائق ثلاث لهذا الرجل العظيم ، حقيقة الأديب الشاعر الفنان الذى تكاد تغنى لغته ويرقص أسلوبه ، وحقيقة المفكر العالم الباحث الذى تعمق نظره وتحلق أفكاره ، وحقيقة الرجل العملى ، الذى لا تغيب عنه وقائع الحياة ، ولا يغيب أبدا عن وقائع الحياة ، بل هو حاضر معها ، فعال فيها ..

أين حقيقة الدكتور طه حسين وراء طه حسين الأديب ، طه حسين الشاعر ، طه حسين الباحث ، طه حسين العالم ، طه حسين العميد ، طه حسين الوزير ، طه حسين التوجيه والتقرير والحسم

ما أكثر ما كنت أسمع من أحكام سطحية ، تتهم أسلوبه الأدبى ، بالجرس الموسيقى السطحى الذى لا يكاد يتعمق الأمور ، بل يكرر التعبير ويلونه ، وما أكثر ما كنت أسمع عن مواقف عملية فى حياته

التنفيذية عميدا ، أو مستشارا للثقافة ، أو وزيرا ، يدور حولها الجدل وتستخدم الخصومات ..

على انى كنت فى كثير من الأحيان أحس فى جرسه الموسيقى نفسه تفكيرا عقليا خالصا ، أكثر مما أستمع فيه الى موسيقى ! .. وكنت أجد فى كثير من مواقفه العملية شعرا وأدبا وفكرا خالصا ، أكثر مما أجد فيها عملا وتنفيذا وإدارة !

لقد اختلطت الأمور فى وجدانى ، ورحت أفكر مليا فى حقيقة هذا الرجل ، أين هو من هذه الأمور جميعا ، ما هى حقيقته بين هذه الحقائق الثلاث : الشعر ، والعقل ، والعمل

وقد يكون أفضل سبيل الى الإجابة عن هذا السؤال هو الدراسة المنهجية التحليلية لأعمال الدكتور طه حسين جميعا ، وتلخيص نتائجها ، فضلا عن دراسة مواقفه العملية المختلفة ، ثم بلورة هذا كله فى ملامح فكرية عامة ، هى ملامحه

على ان هذا بحث لا يحتمله هذا المقال السريع ، الذى ما قصدت به الا طرح اجابة محدودة ترسبت فى وجدانى خلال معاشة لبعض أعماله ، وهى معاشة لم ترتفع الى مستوى الدراسة المنهجية ، وقد لا تخلو هذه الإجابة من تعجل ، وقد تكون مجرد انطباع عام ، لتكن على أى حال رأيا أطرحه للمناقشة ، يمهد لتلك الدراسة المنهجية

ومنذ البداية سأطرح هذا الرأى ، لأختبره مع القارئ العزيز خلال الفقرات المقبلة من هذا المقال

فى رأى أن الدكتور طه حسين ليس أساسا بالشاعر ، وأكاد أقول ليس أساسا بالأديب بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، وهو ليس كذلك بالفيلسوف التجريدى الباحث عن العلاقات المطلقة بين الأشياء ، وإنما هو فى جوهره مفكر عملى

وأكاد أزعم منذ البداية أن أدبه نفسه يغلب عليه هذا الطابع الفكرى العملى ، بل ان ما نستمتع به من شعر خالص وموسيقى غنية فى أسلوبه ،

انما هو شعر العقل ، وموسيقى التجسيد الخارجى لقضايا الفكر التى
نسعى كى تصبح واقعا حيا مؤثرا فعلا

وأكاد أزعم كذلك أن دراساته الأدبية والتاريخية والفنية والتربوية
انما هى فى جوهرها فكر فى موقف ، ورأى فى تطبيق.. ان طه حسين هو
بغير شك شاعر وأديب وعالم ومفكر وفيلسوف ، ولكنه ليس بالشاعر
المخلق بعيدا ، ولا بالأديب الحالم بغير هذه الأرض ، ولا بالمفكر
المعتزل ، بل أكاد أجد فيه — عند ما أعود الى كتبه وأتابع مواقفه —
قائدا يدفع ويحرك ويحرض ، ولولا ملابساته الخاصة لكان له شأن فى
حياتنا الاجتماعية ، أعمق أثرا من شأنه فى حياتنا الفكرية والأدبية ، رغم
رفعة هذا الشأن

ولا أدري هل اعتسف رأى اعتسافا عندما أقف عند لحظة عابرة من
لحظات الجزء الثانى من الأيام ؟ لقد وقعت على أذن الشاب الصغير جملة
صغيرة ، وقعت على أذنه كما يقول « فى أول النوم وآخر اليقظة ، فردته
اليقظة ليله كله »

لقد سمع من يقول معرفا الحق بأنه « هدم الهدم » . ما معنى هذا ؟
الحق هو هدم الهدم ، ولست أعرض هنا لهذا التعريف ، وانما أعرض
لهذه اليقظة التى انتابت هذا الشاب الصغير فى غرفته بالقرب من الأزهر ،
وفى لحظة هى فى تقديرى خلاصة عمر

وما أعتقد ان الشاب قد وقف أمام صعوبة التعريف فى هذه الجملة ،
وانما وقف أمام ما فى هذه الجملة من معنى خاص يربط بين الفكر
والعمل ، بين العقل والفعل

لا أقول انه تفهمها ، لا أقول انه وعى معناها ومرماها ، ولكنى أعتقد
ان شيئا فى بناء نفسه وفكره وشخصيته قد وجد فى هذه الجملة الغريبة
ألغة غريبة ! .. ان هذه الجملة الغريبة فى أيامه الأولى تكاد أن تصبح
خلاصة أيامه كلها فى مقبل حياته ، لقد أصبح الحق فى حياته فعلا ،
وأصبح العقل عملا ، وأصبح التفكير توجيها

وفي تقديري أنه كان من الطبيعي أن ينتقل هذا الشاب الصغير من الأزهر الى الجامعة المصرية عند افتتاحها ، وفي هذا الانتقال العلى ملامح لحركته الفكرية الداخلية كذلك

وعندما تنتقل نحن الى هذه الحركة الفكرية الداخلية ، وتأمل أول عمل فكرى لهذا الشاب وهو بعد لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، عندما تتأمل رسالته الأولى التى حصل بها على أول دكتوراه فى جامعتنا المصرية عام ١٩١٤ ، تبين منذ البداية وضوح هذا الفكر الحاسم ، الذى يغلب عليه الطابع العلمى

فى هذه الرسالة يكاد يقيد كل شىء بنظام مطلق من الجبرية والحتمية ، نجده مؤمنا بالجبر التاريخى أى — كما يقول : « بأن الحياة الاجتماعية انما تأخذ أشكالها المختلفة ، وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلى والأسباب التى لا يملكها الانسان ، ولا يستطيع لها دفعا ولا اكتسابا »

وبمقتضى هذا الجبر التاريخى يرى أن « الحادثة التاريخية ، والقصيدة الشعرية والخفية ... كل أولئك نسيج من العلى الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء »

بهذا التحديد العلى الصارم يبدأ رسالته العلمية ، بل يبدأ حياته الفكرية كلها كذلك



قد نحس فى هذه البداية أثرا للنظرية العلمية الميكانيكية فى القرن الثامن عشر ، كما نحس بآثار للمدرسة الطبيعية فى النقد والدراسة الأدبية عامة ، نحس بسانت ييف ، وتين ، ولكننا نحس قبل كل شىء بمفكر صادم التفكير ، يسعى لصياغة ظواهر الوجود والتاريخ ، لا ليلغى ارادته الفردية ، وانما ليتمكن هذه الارادة أن تسيطر وأن تكون فعالة ومؤثرة

ولا أدري لعل اختياره لفلسفة ابن خلدون فى التاريخ عند سفره الى فرنسا موضوعا للبحث الجامعى هناك ، لم يكن اعتباطا ، بل كان امتدادا

لهذا الاتجاه في صياغة مظاهر التجربة الانسانية والتاريخية عامة ، صياغة عقلية صارمة ..

وما أكثر ما يتردد هذا الاتجاه بعد ذلك في دراسات متنوعة ، وقد نجد صدى لهذا في حديث الأربعاء عند مناقشه لنظرية التاريخ مع رفيق العظمة ، غير اننا نتبين أن هذا الاتجاه العقلي قد أخذ يخفف من صرامته ، أو بتعبير أدق من ميكانيكيته ، دون أن يفقد الدقة والموضوعية ، فيسمح بتعدد العوامل في صياغة الظواهر الاجتماعية والتاريخية ، ولا يقتصر على المؤثرات الخارجية فحسب ، وانما يقول كذلك بالمؤثرات والعوامل الذاتية والنفسية فضلا عن المؤثرات والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويبلغ هذا المنهج الفكري أوجه في دراسته التاريخية البالغة العمق والخصوبة للفتنة الكبرى في كتابيه « عثمان » و « علي وبنوه » ، في هذين الكتاين نجد الجبر التاريخي الذي قال به في مطلع حياته الفكرية يصبح أكثر مرونة وحيوية ، تبرز فيه العوامل الموضوعية بالعوامل الذاتية ، العوامل المادية ، بالعوامل الاساسية دون أن يفقد الدقة والموضوعية ، كما ذكرنا ..

ففى تفسير بعض الظواهر التاريخية لا يغفل العوامل المادية البسيطة مثل صعوبة المواصلات مثلا في تفسير ابطاء عمال عثمان مما مكن للشوار من النجاح في تنفيذ خطتهم ، وهو لا يغفل كذلك عوامل المزاج الشخصي والملامح النفسية لعلى والحسن والحسين في تفسير بعض الظواهر البالغة التعقيد ، جنبا الى جنب مع العوامل الاقتصادية والفكرية والسياسية

على اننا لا نحس في هذه الدراسات التاريخية ، مجرد فكر يسعى للتفسير ، وانما نحس به فكرا يسعى للسيطرة على الواقع التاريخي والاجتماعي ، انه يعيد بناء التاريخ ، يعيد صياغة الأحداث وترتيبها وتبويبها على نحو منطقي عقلي صارم ، فلا نكاد نحس فيه بالعالم المؤرخ بقدر ما نحس فيه برجل السياسة ، الخير بنفوس الرجال وأحوال الحياة ، انه يعرض لقوانين الحركة الاجتماعية ، فيحسم فيها بالأمر

القاطع ، ما أكثر ما نجد في « عثمان » و « علي وبنوه » يفسر بعض الظواهر بالقطع واليقين ، ما أكثر ما نقرأ له عبارات « أكاد أقطع » و«يقينا» ، و«لا أشك» وهو يفسر وقائع وأحداثا يشتجر حولها الخلاف ما أكثر ما نجد له عبارات تدل على الترجيح والاحتمال ، ولكن القطع والحسم واليقين يكاد يكون نسيج البناء التاريخي الذي يسوقه أمام أعيننا ، مواكب متحركة يحكمها قانون محدد ، وإن يكن متعدد الأوجه ، معقد الأسباب ، نحس بفكر الدكتور طه حسين محيطا بهذه الظواهر التاريخية ، متحركا معها ، مفسرا لها ، بل أكاد أقول مسيطر عليها كذلك ..

على أن فكره لا يسلك هذا المسلك إزاء الظواهر التاريخية وحدها ، وإنما نراه كذلك بالمنهج الصارم نفسه وهو يعالج ظواهر الحياة الأدبية ، وبهذا المنهج استطاع الدكتور طه حسين أن يحقق إضافاته الخلاقة في تاريخ الأدب العربي كله.. بأداة العقل اكتشف ظواهر وحدد معالم أحداث أدبية وفنية منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحديث ، وما أكثر ما يقال أنه اصطنع المنهج الديكارتي - كما يقول - في كتابه الأدب الجاهلي ، ولكنه في الحقيقة لم يكن في حاجة إلى هذا المنهج الديكارتي ، فجوهر حركته الفكرية هو التحديد العقلي ، وليس الشك الديكارتي إلا وجها من أوجه هذا الجهد العقلي ، ولكنه ليس جوهره ، حقا أنه شك منهجي استطاع به الدكتور طه حسين أن يزيل كثيرا من الأوهام في تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي ، كاشفا حقيقة الأدب الجاهلي الذي يغلب عليه الالتحال ، محددًا عوامل الالتحال ، واضعًا معيارًا موضوعيًا لتحديد معالم الأدب الجاهلي الحقيقي ، ولقد استطاع الدكتور طه حسين كذلك أن يكتشف في الأدب الجاهلي ظواهره الأدبية وأن يحدد معالم مذاهب فنية في دراساته الأخرى

وعلى أني أريد أن أقول أنه لم يكن تبنيًا لفلسفة ديكارتية في التفكير، كان وقوفًا عند حدود الشك المنهجي لديكارت مطبقًا على الأدب ،

والحقيقة انه ليس فيه من الديكارتية غير هذا المظهر الخارجى ، لقد واصل الدكتور طه حسين فى الحقيقة طريقه العقلى الصارم الذى بدأه برسالته عن أبى العلاء ، ولم يكن الشك الديكارتي غير جانب من منهجه العقلى العام ، ولكنه ليس سمته الأساسية بل لعنا نجد فى هذا المنهج العقلى سمات ديكارتية أخرى غير الشك مثل الوضوح والتميز فى الحكم والتعبير والتحليل ، على ان المهم أن أؤكد ان هذا المنهج العقلى فى صياغة الظواهر التاريخية والأدبية ، وتفسيرها ، لم يكن مجرد تطبيق للشك الديكارتي ، لم يكن تبنيًا للفلسفة الديكارتية ، وإشاعة لها كما يقال أحيانا ، وإنما هو امتداد للمنهج العقلى الصارم الذى أخذ به نفسه منذ بداية حياته العلمية

على اتنا فى بعض كتاباته الأخرى قد نلمح فيها جنوحا الى التشكك فى قيمة العقل كأداة منفردة للمعرفة ، نلمح هذا فى حوار الدكتور طه حسين « مع أبى العلاء فى سجنه » بل يكاد يرجع محنة أبى العلاء الى اتخاذ العقل إماما واعتباره نبيا ، ويؤكد ان العقل لا يصلح وحده ملكة للمعرفة ، وقد نجد هذا الرأى كذلك فى كتابه « على هامش السيرة » مؤكدا به كذلك ان العقل ليس هو كل شئ ، وان للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة الى الغذاء والرضا عن العقل ..

وقد نجده فى كتابه « مرآة الاسلام » يتخذ من هذا الرأى نفسه تفسيراً للشقاق والتنازع بين الفرق الإسلامية « آمنوا بالعقل وحكموه فى كل شئ » وزعموا انه وحده مصدر المعرفة .. وقد غرهم ليانهم بالعقل فدفعهم الى شطط بعيد »

ورغم هذا ، فإن الدكتور طه حسين لم يستعن بغير المنهج العقلى فى تفسيره للظواهر غير العقلية ، فى توكيده ان العقل ليس هو الملكة الوحيدة للمعرفة

على ان توكيده لهذه الملكات الأخرى غير ملكات العقل هو فى الحقيقة تدعيم لما بدأنا به حديثنا وهو ارتباط منهجه العقلى بإحساس

عملى واقعى ، انه ليس العقل المنزول بل العقل العملى الذى يتابع الظواهر ويكاد يحسها ويتقراها بل ويسيطر عليها كذلك ..

وفي كتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » مناقشة عميقة — لعلها أعمق مناقشة مجردة تعبر عن فلسفة أبى العلاء فى هذا الكتاب .. يفسر الدكتور طه محنة أبى العلاء ، فيرجعها الى « المعجز عن ذوق الحياة ، والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ، من نعيم ولذة » والدكتور طه فى الحقيقة كما ذكرنا يعبر بهذا عن فلسفته هو ، ان محنة أبى العلاء هى عدم تلاؤمه مع الواقع الطبيعى والاجتماعى ، وهى محنة تدفع الى هذا الاتجاه التشاؤمى فى أدبه .. وفى موضع آخر من هذا الكتاب تنمو هذه الفكرة لتعبر عن تناقض أكثر خصوبة فى حياة أبى العلاء ، بين قوة عقله وتضاؤل قدرته ، يتساءل الدكتور طه « ما هذه الحرية المطلقة التى يستمتع بها هذا العقل اذا فكر ، وما هذا المعجز المطلق الذى يضطر العقل اليه ، اذا أراد أن يعمل أو يدفع الى عمل .. لماذا منح السجين هذه القوة المفكرة المريدة التى تأمل وتعجز عن تحقيق الأمل ، وتريد وتقصر عن انفاذ الارادة ، وترى الخير ولكنها لا تجد اليه سبيلا » ..



خلاصة مأساة أبى العلاء عند الدكتور طه هو انه كان صاحب فكر وشعر وانتقاد ولكنه لم يكن صاحب اصلاح عملى ، خلاصة مأساة أبى العلاء هو هذا الفصام بين العقل والقدرة ، بين الفكر والعمل وفى مقابل هذا تنضج ملامح فلسفة طه حسين الايجابية : عقل مقتدر ، وفكرة شاملة ، ورأى مريد نافذ ، وموقف فعال يسعى للاصلاح والتغيير كما استطاع ..

هذه المعالم العملية الفعالة للعقل هى التى تحدد المعالم الاساسية كذلك لفكر طه حسين عامة

« اقرأ له » فى مرآة الضمير الحديث « ان تغيير الأشياء لا يكرز

بالكلام الذى يقال عن اخلاص أو تكلف ، وعن تفكير أو اندفاع ، وانما يكون بالعمل الذى ينقل الاشياء من طور الى طور »

ويقول كذلك فى موضع آخر من هذا الكتاب القيم « العمل وحده هو الذى يستطيع أن يرضى القلب الذكى ، ويقنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذا الى نفوذ »

بهذا الفهم العميق يلائم الدكتور طه حسين بين الحياة العقلية والحياة العملية ، وبهذا الفهم تتحدد معالم حياته وفكره على السواء ، ولست أعنى بالملاءمة هنا المداراة ، وانما أعنى الفاعلية ، على أننا لا نتكر أن هذا الطابع العملى لفكر الدكتور طه كان يدفعه فى بعض الأحيان الى أن يخفى بعض أفكاره سعيا لنجاح بعضها الآخر

ولعل كتابه « المذبذبون فى الأرض » من أبرز مظاهر هذا المسلك الفكرى العملى ، والكتاب بغير شك هو تعبير عن الصراع الاجتماعى الذى كان محتدما فى بلادنا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وهو فى مضمونه العام ، وأثره النهائى دعوة الى التغيير الاجتماعى ، وإن غلب عليه الطابع الاصلاحى

على ان الدكتور طه حسين أراد — فيما أعتقد — أن يحمى دعوته هذه بكل ما يستطيع من وسائل الحماية ، ولهذا نراه فى هذا الكتاب الذى هو دعوة الى التغيير يقول تمهيدا له : « انى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن اليها كل الاطمئنان ، معجب بها كل الاعجاب ، لا أريد أن أغير قليلا ولا كثيرا ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير ، أول هذا الحديث يدل — فيما أظن — دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددىن فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال »

وتكاد بعض تعابير هذه الفقرة تفضح الدكتور طه ، فكلمة « فيما أظن » ، وحرصه القاطع على تأكيد محافظته المتشددة ، وأنه من أنصار اليمين ، وأنه غير راغب بهذا القطع فى التغيير تكاد تكون غطاء خارجيا ،

بل طلاء سطحيا لاختفاء المتفجرات التي يشتمل عليها هذا الكتاب على أن هذا الغطاء وهذا الطلاء لم يخدع الحكام المحافظين اليمينيين المرجعيين في ذلك الوقت فصادروا هذا الكتاب اليميني المحافظ المتشدد ! وهنا كذلك نستشعر فكر الدكتور طه العلي ، الذي يسعى للملاءمة مع الواقع لتحقيق فكرته ، لوضعها موضع التنفيذ ، انه لا يكتفى بالدعوة الى مدينة فاضلة ، أو بصياغة حلم عزيز ، وانما يسعى بفكره سعيًا عمليًا الى التغيير الواقعي

ونكاد نجد هذا الفكر العملي في عمل أدبي آخر بل في كل أعماله الأدبية بغير تمييز - في مدخل « دعاء الكروان » نستمع الى آمنة وهي تستأذن الكروان كي تقص على الناس طرفا مما يدور بينهم من حديث « لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الذكية ، عن أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق »



لا أقول ان هذه الرواية كتبت بهذا الهدف العلمي وحده ، أو صيغت بمقتضاه ، فجاءت رواية تقوم على التوجيه المباشر ، لا .. وانما أحس بهذا التوجيه العملي في كل ما يكتب من بحث علمي ، أو ابداع أدبي كهذه الرواية على سبيل المثال

بل لعلنا تتبين هذا الاتجاه العملي كذلك في كتابه « على هامش السيرة » عند حديثه عن القديم والجديد ، انه يقول : « القديم لا ينبغي أن يهجر لأنه قديم ، والجديد لا ينبغي أن يهجر لأنه جديد ، والجديد لا ينبغي أن يطلب لأنه جديد ، وانما يهجر القديم اذا برىء من النفع ، وخلا من الفائدة ، فاذا كان نافعا مفيدا فليس الناس أقل حاجة اليه منهم الى الجديد »

وهكذا تصبح الفائدة ويصبح النفع أساسا للحكم على القيمة ، وهو حكم عملي خالص كما نرى ، لا تقول انه حكم برجماتي ، ولكنه حكم يربط بين الفكر والواقع ، بين العقل والعمل ، ويؤكد القيمة الأساسية

لفكر الدكتور طه حسين باعتباره مفكرا عمليا
وبهذا الفهم كان موقف طه حسين من الحرية ، ان الحرية عنده هي
حرية واقعية ، ليست مجرد تحليق في فراغ ، ان الحرية عنده هي جوهر
الفن والفكر والعلم والأدب والحياة جميعا ، نجده في « مرآة الضمير
الحديث » يتحدث عن الفن فيؤكد ان الفن « أثر من آثار الأحرار لا من
آثار العبيد » ونجده يدعو دعوة واضحة محددة المعالم لتحرير الشباب
من الحاجة الاجتماعية حتى تتوفر له أسباب الابداع « حرر الشباب من
البؤس والجوع وهم التفكير فيما يقيم الأود ، وحررهم من الجهل
وأتاح لهم علما وأدبا وثقافة ... الخ »
ان الحرية عنده هي الخبز وهي الثقافة وهي كذلك الهواء والنور
والجمال ، انها ليست غاية في ذاتها بل هي « وسيلة الى أغراض أرقى
منها وأبقى وأشمل فائدة وأعم نفعا »



ولعل كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » من أكثر كتب الدكتور طه
حسين توكيدا لهذه المعاني ، وتجسيدا للملامح الفكرية للدكتور طه
حسين بشكل عام .. انه يعبر عن فكره ، في التخطيط العملي والتطبيق
المباشر ..

وظروف تأليف الكتاب نفسها تكشف عن هذا الطابع الفكري. نفسه ،
كان تأليف الكتاب اجابة عن سؤال وجهه بعض الشباب اليه بعد توقيع
معاهدة عام ١٩٣٦

يكتب الدكتور طه حسين هذا الكتاب ليجيب عن هذا السؤال الكبير:
« ما هو واجبنا الثقافي بعد تحقيق استقلالنا السياسي ؟! »

وبصرف النظر عن حقيقة هذا الاستقلال السياسي ، فان اجابة الدكتور
طه حسين عن هذا السؤال كانت اجابة جادة للغاية ، عميقة للغاية ،
واقعية للغاية ، عملية للغاية كذلك

انه يؤكد في بداية الكتاب انه ليس المهم الاستقلال والحرية ، وانما

المهم ما يتضمنانه من تبعات ، المهم عنده هو تثبيت الديمقراطية وحيطة الاستقلال ، وهو يدعو بشكل حاسم الى أن « نعرض عن الألفاظ التي لا تغنى الى الأعمال التي تغنى »

وفي هذا الكتاب يؤكد ان الحرية لا تستقيم مع الجهل ، ويربط نهذا بين الثقافة وبين الحرية ، بين التعليم وبين الثورة على الظلم ويقول : « يجب أن يتعلم الشعب الى أقصى حدود التعليم ففي ذلك وحده الوسيلة الى أن يعرف الشعب مواضع الظلم والى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله »

وهو يعرض لحظة لتنظيم التعليم في مراحله المختلفة تجمع بين الفكر النظرى والخبرة العملية ، وهو يتعرض - مثلاً - لقضية المعلم الأولى فلا يقف عند حدود واجبات هذا المدرس وانما يعرض لحقوقه كذلك ويؤكد انه « لا يعرف شراً على الحياة العقلية في مصر من أن يكون المعلم الأولى كما هو عندنا سيء الحال ، منكسر النفس ، محدود الأمل ، شاعراً انه يمثل أهون الطبقات في وزارة المعارف »

ان كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » وثيقة لحقيقة هذا الفكر في التطبيق العملى ، وما أكثر ما فى هذا الكتاب مما أصبح حقائق حية فى حياتنا الثقافية والتعليمية ، لا بفضل فكر طه حسين فحسب ، بل بفضل قيامه عملياً كمستشار ثقافى لوزارة المعارف أو كوزير لها بتحقيق ما خطه من قبل بين صفحات هذا الكتاب

ولعل الحديث عن الحياة العملية للدكتور طه حسين ودلالاتها على حقيقة ملامحه الفكرية تستحق دراسة خاصة لا تحتلها هذه الدراسة السريعة ، ولهذا حسبنا أن نختمها بكلمة عن أسلوبه التعبيرى نفسه بعد أن قمنا بهذه الجولة السريعة فيما وراء هذا الأسلوب التعبيرى

ان أسلوبه التعبيرى نفسه كما ذكرنا من قبل يكاد يغلب عليه هذا الطابع العقلى والعلى معاً ، رغم ما تتذوق فيه من عطور شعرية وموسيقية ..

وأكاد أقول ان التقطيع الموسيقى والنغم الشعرى فى هذا الأسلوب ،
 انما هو حركة عقلية ، ودعوة عملية ، تتخذ من هذا التقطيع وهذا التنظيم
 ايقاعا لحركتها ، ولو تأملنا هذا الايقاع بعين لوجدناه تارة ايقاعا
 استداليا قياسيا وتارة أخرى ايقاعا استقرائيا ولوجدناه فى الحالتين
 عملية استنباطية تتدرج لتشمل الظاهرة العلمية أو الأدبية أو التاريخية
 موضع الدراسة ، حتى تسيطر عليها من كل جهاتها ، وتنتهى بها الى
 الغاية العقلية والعملية التى تريدها لها ، بل وتريدها لك أنت كذلك أيها
 القارئ أو أيها المستمع

ان الايقاع فى أسلوب طه حسين يتنوع ويختلف باختلاف موضوعاته
 وهو فى جوهره ايقاع عقلى ، انه تعبير بالشعر والموسيقى عن هموم
 العقل العلمى ، ان لغته كلغة الساحر القديم نغمتها جزء من محاولته
 السيطرة العملية على الطبيعة ، على الحقيقة ، على الانسان

ونكاد نحس بهذا الايقاع العقلى العلمى كذلك فى توقيت صدور
 مؤلفاته ، ان أغلب هذه المؤلفات ، تصدر خلال واقع حى ، استجابة
 لحاجات عملية ، وصدى لملايسات اجتماعية وحضارية معينة ، انها
 لا تصدر عن تأمل خالص ، أو فراغ ، وانما تصدر لتقوم بمهمة فكرية
 وعلمية واجتماعية ، تستلزمها حركة الحياة ، ويعيها فكره العلمى والعملى
 المسئول ..

ان مجموعة كتبه التى صدرت بعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص
 انما هى نموذج رائع للمشاركة الفعالة فى التعبير عن الحياة الاجتماعية
 بل وصياغتها كذلك ، بل ان الفتنة الكبرى فى تقديرى ، وخاصة الجزء
 الأول — رغم طابعه التاريخى الخالص — يكاد يعبر عن أصداء اجتماعية
 للسنوات التى كتب وصدر فيها

وهكذا نستطيع أن نؤرخ لكثير من كتبه بأحداث حياتنا الاجتماعية
 والفكرية ..

وهكذا فى كل ما نعرض له من جوانب فى حياة طه حسين نجد هذا

الفكر العملى ، لا يقوم فصام بينه وبين الواقع ، وانما ملائمة وفعل وتفاعل ، فان قامت عقبة فهى عقبة طريق ، عقبة أوضاع ، تتفجر من حولها معارك الفكر ، ومعارك السياسة ، ومعارك الثقافة عامة ..

وتاريخ طه حسين زاخر بهذه المعارك جميعا ، ذلك لأنه كان يضع دائما تفكيره موضع التنفيذ ، ويجعل من عقله وسيلة لتغيير الحياة من حوله ..

ولعلنا لا نجد فى كتابات الدكتور طه حسين فيلسوفا بالمعنى التقليدى لكلمة الفيلسوف ، ولكننا قد نجد فيها الفيلسوف بالمعنى الذى حدده هو نفسه لهذه الكلمة عندما كان يعرض لفلسفة أبى العلاء المعرى ، فالفيلسوف عنده هو الذى يجمع الحكمة علما وعملا ، وتكون حياته موافقة لنتائج بحثه



وبهذا المعنى نعتبر الدكتور طه حسين فيلسوفا ، فان حياته هى فكره ، وفكره كان حياته دائما ، وكانت حياته وكان فكره ، حياة وفكرا للثقافة العربية لأكثر من نصف قرن ، وستظل هذه الحياة وهذا الفكر منارة ملهمة وهادية لنا ولأجيال عديدة من بعدنا

المنهج الفكري عند طه حسين

د. كامل زهيري

اجتمعت في شخصية طه حسين صورة عصره ، بل وأخص ما في هذا العصر من العناء والجهاد ، ولسنا نجد فيمن سبقوه أو لحقوه بسنوات طويلة من تجمعت فيه الفوارق والنقائص ، ثم اجتمع له هذا الجهاد الطويل ، وذلك السعى الحثيث للوصول ليتعدى تلك العقبات جميعا . ولم يجتمع لكاتب أو أديب أو مفكر في عصرنا الحديث مثل حياة طه حسين الأزهرية القحة ، ومثل هذه البيئة الريفية المحافظة المضطربة ، ومثل هذه الخلطة مع البسطاء والفقراء والباعة المتجولين وطلبة العلم والمجاورين وصغار التجار وأصحاب الدكاكين ، ومثل هذه المعرفة الذواقة - بعد ذلك - لأدب اليونان والرومان والأدب الفرنسي والفكر الأوربي ..

فاذا كان طه حسين قد كسب لقراء العربية أفكارا ، وابتدع فنا ، وصاغ أدبا ، وكشف منهاجا وطريقة تحليل ، فإن ما كسبه قد كسبه عن جدارة ، كما يكسب الفقراء - المخلصون - قوت يومهم بالكاد الضيق والجهاد الأكيد ..

فلقد عانى طه حسين كثيرا من الجهد الخفى مع نفسه ، وكثيرا من الجهاد الظاهر على الآخرين ، وارتطم ارتطاما جريئا وشديدا مع شيوخ

الأزهر ، وكانت حياته الخاصة جهادا ، والعامية نضالا ، ولم ينخرط في هذه المعارك بقصد التشويز والشذوذ ، أو مدفوعا بعقدة نقص

وطه حسين لذلك فريد بين كتاب عصره ، لأنه جمع النقائض ، النى تمر بالأمة نفسها ، ولأنه عايشها ، وذاق وعانى من الدراسة التقليدية الضيقة فى الكتاب وصحن الأزهر ، كما تلمس الجو « غير العقلى » فى القرية بأعلى الصعيد ، وفى أزقة القاهرة ، ثم تقلبت حياته ، فتذوق ما يسمى بالمنهج الفكرى ، وتذوق رفاهية الذوق المصقول ، وعاش بين كفر الطماعين والسوربون ، فاذا به وهو الحريص على ألا تضل خطاه ، لا يضل ولا يتعثر ، لأنه أمسك بزمام عقله فى كل هذه الرحلة الشاقة التى تصور رحلة الأمة نفسها

بل ونستطيع أن ندعى أن طه حسين هو أصدق صورة لهذا العصر . ما بين الحريين ، لأنه أخذ من كل نقائض هذا العصر بطرف ، وهو عصر ارتطمت فيه تيارات فكرية ، ووجدانية عارمة ، وكانت مصر تبحث فيه عن كيائها وكانت تلوح أمامها مسالك عدة وطرق متفرقة . وكان طبيعيا ، وحتما ، والأمة تولد ، وتنقب عن أصلها ، وفى جذور تاريخها الطويل المتراكم ، أن تدور المناقشات ، المخلصة والمتوجسة والحامية الوطيس . حول الشرق والغرب ، والقبة والطربوش ، والقومية المصرية والقومية العربية ، وفكرة الأمة فى نظر الدين وفى نظر القومية ، والفصحى والعامية ، وقدر الحضارة العربية بالنسبة لحضارات الانسانية ، وعلاقة هذه الحضارة بأوروبا وحوض البحر الابيض وبتراث الاغريق والرومان ، وطرق التعليم ، ووسائل الحكم ، ودور الأزهر ، ومهمة الجامعة المصرية ، وأثر التربية الدينية ومهمة التعليم الزمنى أو المدنى وغير ذلك

وقد كابد طه حسين كل ذلك بنفسه ، وجرب هذه المسالك المتعددة ، ومن هنا كان عناؤه « تجريبيا » لم يتوفر لكثير من معاصريه على هذه الصورة التى تجمع بين الأزهر والسوربون ، والجنة والطربوش فلم يستقر طه حسين على نظرية معدة ، أو نظرة جاهزة ، كفته مثونة

البحث ، وزودته بالاطمئنان الكسول ، انما عانى بنفسه مهمة البحث عن كل ما يعتقد انه الصواب

ولهذا فأحب صفات طه حسين الى قرائه هي الصدق وكثيرا ما حاولت أن أتلصص شخصية طه حسين في كتاباته ذاتها بعيدا عما قد يحاط به من تقديس أو نكران ، فاذا بي أجد « ذات » نفسه فيما يكتب . ولهذا فان طه حسين من أكثر كتابنا حديثا عن نفسه وهو اجسه ، على الرغم من انه يبدأ في رسالة الدكتوراه التي قدمها للسوربون عن ابن خلدون ، فيعيب عليه هذا الحديث .. وان كان يعتبره من أوائل الذين كتبوا السيرة الذاتية بين كتاب العربية ! وتستطيع أن تتحقق بنفسك من أن طه حسين كان يأخذ نفسه - قبل الآخرين - بكثير من القسوة الصارمة الجادة



ودعنا نقف عند هذه الفقرة ، في كتابه الأيام ، والتي يصف فيها صباه ، حين يطلب منه أبوه أن يقرأ بعض سور القرآن ، فلا يستطيع ، ويعجز حتى عن أن يقرأ سورة يس ، وهي سورة لا يعجز عنها المبتدئون وأنصاف الأذكياء ، فاذا بالفتى يجف ريقه ، ولا يستطيع أن ينطق بكلمة ، فيستكثر على نفسه مثل هذا العجز والفشل أمام أبيه ، ويأباه ، فينفلت الى غرفة مجاورة ، أتخيلها مع طه حسين ، حين يقول :

ومضى صاحبنا حتى وصل الى الكرار وانعطف الى الزاوية التي فيها القرمة ، وأهوى الى الساطور ، وهو أغلظ ما كان عليها ، وأثقله ، فأخذه يميناه ، وأهوى به الى قفاه ضربا !.. ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه ، وأسرعت أمه اليه ، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مر بها ، فاذا هو واقف يضطرب ، والدم يسيل من قفاه ، والساطور ملقى الى جانبه «

وليست هذه الحادثة بالبسيطة التي لا تدل على شيء فاذا كان الفتى صغيرا ، هزيل الساقين لم يعترف به أحد ، ولم يكشف

بعد قدرته الفكرية ، أو تفوقه الذهني ، لا يزال متخطيا بين ضعفه ونكران أهله ، فان الحادث يكشف انه كان جبار الكبرياء وهو فوق كبريائه الشديد ، لا تأخذه بنفسه رحمة ، حين يعجز أو يفشل . ولقد خاصم طه حسين نفسه ، قبل أن يختصم الآخرين ولعل هذه الخصومة كانت معركة الأولى ، وهو لا يزال صيا

فاذا انتقل الفتى الى القاهرة ، والتحق بالأزهر ، وعاد الى قريته ، بعد عام واحد ، عاد بنفس جياشة بالكبرياء ، متسلحة بالنقد ، عازفة عن الاستسلام أيا كان الاستسلام . واذا به يصطدم مرة ومرات مع شيخ القرية الذي يحدث أهلها وأهله عن التقرب الى الله بالأولياء ، فلا يستطيع الفتى أن يكتف في نفسه حرجا ، أو يخفى نقدا ، واذا به يكشف من هو أكبر سنا وقدرنا برأيه الصريح واستنكاره الساخر .. ويقول طه حسين هنا :

« بل وصل شذوذ الصبي الى المحكمة الشرعية ، فسمعه القاضي ، وسمعه خاصة ذلك الشيخ الذي كان يكتب للقاضي ، ويرى أنه أعلم من القاضي بالشرع ، وأفقه منه بالدين ، وأحق منه بالقضاء ، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التي تسمى درجة العالمية ، والتي تشترط لتولى منصب القضاء ، والتي تنال بالجد والاجتهاد قليلا ، وبالحظ والتعلق في أكثر الأحيان .. »

« تسامع هؤلاء الناس جميعا بمقالات هذا الصبي ، وانكاره لكثير مما يعرفون واستهزائه بكرامات الأولياء ، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء ، وقال بعضهم لبعض : ان هذا الصبي ضال مضل ، قد ذهب الى القاهرة ، فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المنسدة ، ثم عاد بها الى القرية ليضل الناس » ..

« .. وعلى كل حال فقد اتقم الصبي لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس في القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه ، وتغير مكانه

فى الأسرة ، مكانه المعنوى ان صح هذا التعبير ، فلم يهمله أبوه ، ولم تعرض عنه أمه واخوته ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق ، بل على شىء أكثر عند الصبى من الرحمة والاشفاق »

واذا كان طه حسين قد أرجع هذا « الشذوذ » فى صباه الى الرغبة فى اثبات وجوده ، والرغبة فى الخروج من العزلة المفروضة عليه ، حتى لا يعامله أهله وصحبه على انه صاحب عاهة يشفقون عليه ، بل على انه صاحب عقل ورأى يسمعون اليه ، فان طه حسين لم يشذ رغبة فى الشذوذ والجنوح ، انما اكتشف انه يتفوق بالحجة والعقل — والسخرية أحيانا — فأخذ نفسه بكثير من الجد الصارم ، وأشعل حاسته الناقدة فى كل ما يسمع ، وكل ما يصل اليه من رأى ، أيا كان هذا الرأى ، وأيا كان مصدره ..

وها هو طه حسين ينقلنا الى « معاركه » فى داخل الأزهر ، حين يذهب الى أساتذته لسمع منهم ، ويكتشف خطأ ما فيصطدم بهؤلاء الأساتذة ، فيضيّقون بهذا النفور منه أشد الضيق وينتهى الفتى الى الحزن والغيظ ، ثم سوء الظن بالطلاب والشيوخ معا

ولا تخلو هذه المعارك من صدام أليم ، يرسب ألوانا من الضيق الشديد لاستهانة هؤلاء الشيوخ بهذا الفتى اليقظ ، « وفى ذات يوم جادل الشيخ فى بعض ما كان يقول : فلما طال الجدل غضب الشيخ وقال للفتى فى حدة ساخرة : « اسكت يا أعمى ما أنت وذاك ! »

فغضب الفتى وأجاب الشيخ فى حدة :

« ان طول اللسان لم يثبت قط حقا ، ولم يمح باطلا »

فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة ، ثم قال الشيخ لطلابيه : انصرفوا اليوم ، فهذا يكفى ..

« وامتلات نفس الفتى حزنا وغيظا ، وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ »

ويتنقل طه حسين بضمير يقظ ، وحافظة واعية ، وحاسة نقد لاهية ، لا يترك أستاذا الا ويدرس لفظه ومعلوماته ويكتنه شخصيته من طبقة صوته وترتيب فكره وطريقة عرضه وسعة صدره أو ضيقه بالرأى ، وهو يضمنى فى كل ذلك بالفكاهة الساخرة ، أو الحزن الشديد ، ثم الضيق وإذا بكل هذا ينقلب الى انفراط ثقته فى « الرأى العام » عند الطلبة والمجاورين فيقول انه صدم من موقف الأزهرين من طلبة الامام محمد عبده ، ومريديه ، والمتظاهرين بالحماسة له ، حين اصطدم الأستاذ الامام بالخدو ، وترك الأزهر ، وذهب الى دار الافتاء ، ثم مات بعد ذلك بقليل ، فانصدم ضمير هذا الفتى لما رآه « من ان مصر قد اضطربت لوفاة الامام ، وان البيئة الأزهرية كانت أقل البيئات المصرية اضطرابا لهذا الحادث الجلل . وأسف تلاميذ الشيخ ، ولعل قليلا منهم سفحوا بعض الدموع ، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم ، كأن الشيخ لم يمت ، أو كأن الشيخ لم يكن ، لولا ان الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونه بالخير بين حين وحين »

وكذلك عرف الفتى فى ألم لاذع ، ولأول مرة فى حياته الناشئة ان ما يقدم الى عظماء الرجال من ألوان الاكبار والاجلال وضروب التملق والزلفى لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وان وفاء الناس ينحل فى أكثر الأحيان الى كلام لا يفيد .

وزاد سوء الظن بالناس فى نفس الفتى ثورة ما لاحظته فى بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصة للاتجار باسمه ، واستغلال الصلة به ، يتوسلون الى ذلك بالشعر حينا ، وبالنثر حينا آخر ، وبالإعلان فى الصحف والمجلات دائما

ولكن الفتى أحس شيئا آخر ، زاد به انحرافا عن الأزهر وانصرافا عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم ، وانما كانوا من أصحاب الطرايش ، فوجد فى نفسه ميلا الى أن يقربهم «

وبدأت صلة طه حسين بلطفى السيد مدير « الجريدة » ، وصاحب دعوة العقلانية ، واذاعة المنطق الارسططالى ، فاذا ما تفوق طه حسين فى الجامعة المصرية ، وهو لا يزال يلبس ثيابه الأزهرية ، فهو يعمد الى درس الفرنسية ويتفوق فى دراستها ، ثم يكتب رسالة عن أبى العلاء المعرى - سجين المحبين - ويهديه تفتحه العقل الى أن يمتحن فى علمين هما « الجغرافية عند العرب » و « الروح الدينية للخوارج »

وعندى ان هذا الاختيار بين الجغرافية من ابن ماجد الى المعرى ودراسة الخوارج لم يكن ضربة بغير هدف ، انما كان يعبر عن يقظة هذا العقل الجديد الى مكان القوة ومكان الثورة فى الفكر الاسلامى العربى ..

فاذا كانت دراسة المعرى تشبع وجدان وعقل طه حسين ، فان تتبع الجغرافية والخوارج تنبئ منذ البداية عن اختيار ناقد ، وانتقاء فاحص ، ومعنى ذلك أن طه حسين كان يشبع فى دراساته وحياته العقلية ما يحسه من مضض وشكوك

فليس عندى من قبيل الصدفة أن يدور طه حسين فى فلك ثلاثة من المفكرين ، عايشهم طويلا ، وطبعوه طوال حياته الفكرية ، حتى انك تستطيع أن تكتشف هذه الرابطة « الوجدانية » بين الدارس وما يدرسه وهؤلاء الثلاثة ، من عمالقة الفكر بلا شك وسيظلون زمنا طويلا من العمالقة ، وهم :

أبو العلاء المعرى ، شبيه طه حسين ، حتى فى رحلته الى بغداد - وابن خلدون ، صاحب المقدمة ، والذي قدم طه حسين أطروحته لنيل الدكتوراه فيه ..

وديكارت ، الفيلسوف الفرنسى ..

ولقد قيل الكثير فى علاقة طه حسين بأبى العلاء ، كما ان طه حسين نفسه ألح الحاحا شديدا على قرائه بدراساته العميقة عن أبى العلاء . ولكن علاقة طه بابن خلدون ، وديكارت ، كثيرا ما يغفلها دارسو فكره

وأدبه ، على الرغم من أن طه حسين كان قد أعلن ذات يوم أنه يرمع التأليف عن ديكارت ، وأنه جمع آراء عديدة ، وتعمق في دراسته تعمقا خالصا ..

ولكن طه حسين لم يطلع علينا بكتاب عن ديكارت ، ولم يكتب عنه كما كتب عن ابن خلدون ، وكما أفاض في الكتابة عن أبي العلاء

وقد استطاع طه حسين في فرنسا ، أن يتشبع بأفكار ديكارت ، وأن يعجب بمنهجه الفكرى ، ونستطيع أن نقول - بلا حرج - ان منهج طه حسين هو المنهج الديكارتي على وجه اليقين ، كما نستطيع أن نزعّم أن المنهج الديكارتي شائع وذائع في فرنسا ، حتى لتجد تعاليمه على السنة كثيرة ، وقد بلغ من الذيوع ان كثيرين يطبقونه

فهذا الفيلسوف صاحب « قواعد هداية الذهن » وهى رسالة عارض فيها المنطق الجديد المعارض للمنطق الارسططالى .. ولعل مقاله في المنهج هو سر خلوده وبقائه ، وقد اتضح أن ذلك الاختلاف ناشئ من أن الفلاسفة ورجال اللاهوت يتخبطون في بحوثهم ، ويسرون فيها على غير هدى ، دون أن تكون لهم خطة مرسومة ، أو منهج محدد وديكارت هو صاحب القول المشهور : « أنا أفكر فأنا موجود »

ويرى ديكارت ان أول ما يلزم للمعرفة وللإنسان الواعى ، هو الشعور بضرورة المنهج ، ثم ايجاده ، وتطبيقه في مجالى النظر والعمل جميعا . ولكن ما هو المنهج على حد قول ديكارت ؟

« انه قواعد مؤكدة تعصم ذهن الباحث من الوقوع فى الخطأ ، وتمكنه من بلوغ اليقين فى جميع ما يستطيع معرفته ، دون أن يستنفد قواه فى جهود ضائعة »

وديكارت هو صاحب هذا الهجوم الشرس العنيف على الآراء الظنية والاحتمالات . فالجهل خير عنده من المعرفة المزعزعة الناقصة . ولا يكون العلم الا اذا كان يقينيا ، ونموذج ذلك اليقين هو المعرفة الرياضية

ولكن كيف لنا باليقين ؟ ولعل طه حسين كان يسأل نفسه ذات السؤال منذ تفتحت أذناه على الرأي ، وقلب الآراء في عقله ، وألح عليه السؤال حين التقى بديكارت ، وحين وجده دائماً كل الذئوع في السوربون والكوليج دي فرانس !

ويقول ديكارت أننا لا بد أن نذهب دائماً من « المعانى » الى « الأشياء » أى ألا تنسب الى الأشياء إلا ما ندركه ادراكاً بديها في معانى تلك الأشياء ، وأن نرتب جميع أفكارنا في نسق خاص ، بحيث يكون كل معنى منها مسبوقاً بكل المعانى التى يستند اليها ، وسابقاً لجميع المعانى التى تستند اليه

فاذا كان اليقين هو ما يطلب المفكر فلا بد له من الشك ولا بد من الشك من كل ما تعلمه من قبل ، ولا بد من المضى فى هذا الشك الى أبعد الحدود ، ولا بد من أن تبدأ النظر كله من جديد ، ولا بد اذا من تعليق آرائنا وأحكامنا ، حتى تبين الحقيقة

وقد استطاع ديكارت بمنهجه أن يثبت وجود « الكوجيتو » ، لأن الانسان الذى يشك لا بد أن يفكر ، والشك هو دليل الفكر ، كما أن الفكر هو دليل الوجود .. فليس الشك هو ما يشتهر عند البعض من اللادرية ، أو تعليق الحكم ، ولكنه منهج منطقى للوصول الى اليقين المراد ..

واذا كان طه حسين قد درس على بوجليه ، ودوركهايم ، ولانسون ، ولينفى برول ، وديمانجون ، وجالوا ، وكازانفوا ، وبير جانيه ، وقد جمع بين دراسة التاريخ اليونانى وتاريخ الرومان ، والفلسفة والاجتماع ، واللاتينى ، وعلم الثورة ، والبيزنطى ، والتاريخ الحديث ، والجغرافيا فلقد درس ديكارت بالذات على الأستاذ لينفى برول ، كما انه استوعب هذا المنهج ، ووجد فيه شفاء نفسه وشفاء ظنونه ..

وهنا نلاحظ ان طه حسين قد أخذ من كل شئ بطرف ، اذ لم يغلق على نفسه فى قرن من الزمان، أو عصر من العصور، وانما امتدت دراسته

من اليونانى الى الرومانى الى البيزنطى الى الثورة والتاريخ الحديث ثم الى المنهج العقلى السائد فى ذلك الحين ، بل ان أخطر ذلك كله أن موضوع اطروحته كانت عن ابن خلدون ، هذا المفكر العبقري والعقلانى أيضا ..

.. وطه حسين فى رسالته عن ابن خلدون لا يتحمس له لأنه عربى ، فيكبو به الحماس المفرط ، ولكنه يحاول أن يقيمه وينقده نقدا « علميا » ، ديكارتيا منصفًا . فهو يرد على بعض المتحمسين من المستشرقين الذين يرون فى ابن خلدون أبا لعلم الاجتماع ، وأبا لفلسفة التاريخ ، وهذا حق فى كثير من الأحيان ، ولكنك تلمح « انضباط » طه حسين فى تقييمه لابن خلدون ..

وقد لمست بنفسى قدر ما يلقاه ابن خلدون من تكريم فى فرنسا ، ومجامعها العلمية ، فهذا جورج داني عميد كلية الآداب فى السوربون « عام ١٩٤٩ » ، كان قد قدم رسالة الدكتوراه التى بدأ بها حياته العلمية عن ابن خلدون بالذات . وهذا روجيه جارودى ، فيلسوف يسارى نال الدكتوراه من جامعة موسكو عن « الحرية » ، يعقد أيضا فصولا ودراسات عن ابن خلدون ، بل ويشتط فى الحماس له حتى يجعله أسبق من مونتيسكيو ومن كثير من فلاسفة أوروبا ومفكريها . فاذا كان طه حسين قد قدم رسالته عام ١٩١٧ فى فكر ومنهج هذا الرجل ، فلقد سبق الكثيرين الى الاهتمام بالجانب « العقلى » فى التفكير العربى

بل ان طه حسين يزن كل كلمة — وهو فى صدر الشباب — فلا يندفع متحمسا لابن خلدون ، بل ينصفه ولا يغدق عليه الأوصاف ، ولا يعتسف معه الاعجاب ..

فاذا قرأت بعض صفحات هذه الرسالة القيمة ، وجدت فيها ما يقودني الى « منهج » طه حسين نفسه ، وهو المنهج العقلى بالذات

.. فاذا بطه حسين يبين ان ابن خلدون يأخذ على المؤرخين الذين سبقوه أخطاء نفسية شائعة وخطيرة . ومنها تشيع المؤلفين « أى أن يضطر

الشيعة ليشحن تاريخ الأمويين بأشنع الفضائح ، وأن يندفع مؤلف آخر الى أن يخلق الأقوياء ، وكذلك أن يبالغ من يروى تاريخ ملك ما في أهمية كل ما يرد مؤيدا لسيده ، ويلزم الصمت عمدا ازاء كل ما يشين مجده ، وأول شرط يجب على المؤرخ مراعاته هو عدم التشيع ..

وانظر الى وجه الشبه بين هذا المنهج وبين المنهج الديكارتى .. ويستطرد طه حسين في دراسته عن ابن خلدون ، فيقول ان سبب أخطاء المؤرخين هو أن يصدقوا ما يرويه الناقلون دون فحص . « وأنجح وسيلة لاجتناب هذا النوع من الخطأ هي أن تستخدم للتحقيق مع كثير من العناية والتأمل طريقة يعرفها المسلمون جيدا هي طريقة التجريح والتعديل *Improbatis et justificati* O وطريقة التجريح والتعديل ابتدعها رواة السنة النبوية ومؤداهما البحث الدقيق الذى يجب اجراؤه للتحقق من أمانة المحدث وصدقه ، وكلما أريد التحقق من صحة حديث روجعت تلك المعلومات الخاصة بمن رواه من المحدثين وقد انتهى الأمر بأن جعل من تلك المعلومات شبه معجمات يستطيع مراجعتها كل عالم فيستخرج منها بعض القواعد التى تساعد في تقدير قيمة كل حديث . ومؤلف هذه القواعد علما يعرف « بمصطلح الحديث » ..

ويقول طه حسين : ويجب تطبيق هذه الطريقة على الوقائع التاريخية التى تأتى بها الرواية . فاذا كان الراوية أمينا صادقا ... سليم الذهن أمكن تصديق ما يرويه ... الخ ..

ومن أجمل الصفحات وأروعها في هذه الرسالة حديث طه حسين عن أسباب الخطأ كما يراها ابن خلدون ، وهى كثيرة ، لكنها تدلك على ان ابن خلدون قد اقترح منهجا عقليا في مقدمته ، ومن هنا اكتشف ان المجتمعات تختلف وتشابه ، وان المؤرخ لا بد أن يلم بطبائع المجتمع ، وأن ينقد « شاكا » و « معلقا » كل ما يصل اليه من رواية المؤرخين وعلى ذلك فستطيع أن تقول ان ابن خلدون كان ديكارتيا في منهجه التاريخى ... وان طه حسين قد عاش مع عقليين جبارين ، في فرنسا ،

واحد من العرب الذين تفوقوا في القرن الرابع عشر ، وآخر من الفرنسيين تفوق في القرن السادس عشر ، وقد ظلا معا علمين من أعلام الفكر الانساني ، وسيظلان كذلك الى أبد الآبدين ..

فليس من قبيل الصدفة المحضة أن يعيش طه حسين هذين العقليين بالذات ، وأن يدرسهما دراسة مستأنية ، وأن يعكف على آثارهما المتعددة المنوعة ، لأننا نجد طه حسين ، حين يعود الى مصر انما ينادى في كتابه « الشعر الجاهلي » الذي أثار أزمة وتخوفا ، واستثار كتابا كثيرين ، فيقول طه حسين انه يدعو مخلصا الى أن تأخذ بمنهج البحث العلمي الحديث في دراسة الأدب العربي ..

وهو يقول في وضوح في كتابه « الشعر الجاهلي » الذي أصبح في الأدب الجاهلي - بعد الحذف والاضافة - :

« أريد أن أريح الناس من هذا اللون من التعب ، وأن أريح نفسي من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة . أريد أن أقول اني سأسلك في هذا الجو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه « ديكارت » للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، والناس جميعا يعلمون ان القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن عما قيل فيه خلوا تاما » والناس جميعا يعلمون ان هذا المنهج الذي سخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المناهج وأقواها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم ، والفنانين في فنونهم ، وأنه هو الطابع الذي يميز هذا العصر الحديث ..

ثم يقول : « نعم .. يجب حين نستقبل البحث على الأدب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وأن ننسى عواطفنا

الدينية وكل ما يتصل بها ، وأن نسي ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، يجب ألا تنقيد بشيء ولا ندعن لشيء الا مناهج البحث العلمى الصحيح . ذلك انا اذا لم تنس هذه العواطف وما يتصل بها فسنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنا بما يلائمها وهل فعل القدماء غير هذا ؟.. وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟.. كان القدماء عربا يتعصبون للعرب أو كانوا عجماء يتعصبون على العرب ، فلم يبرأ علمهم من الفساد ، لأن المتعصبين للعرب غلوا في تمجيدهم واكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم ، ولأن المتعصبين على العرب غلوا في تحقيرهم واصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا « ولست أجد فارقا كبيرا بين ما قاله طه حسين فى رسالته « ١٩١٧ » عن منهج ابن خلدون ، اعزازا واكبارا ، وبين ما عاد يقوله فى مصر عندما ألّف كتابه « فى الشعر الجاهلى » - ١٩٢٦ - الذى أصبح « فى الأدب الجاهلى » سنة ١٩٢٧ ..

وأستطيع أن أزعم ان ما عاد به طه حسين من فرنسا لم يكن حبا جامحا لفرنسا ، أو لدعوة التعذيب كما قال خصومه ، بل عاد طه حسين وقد ثبت يقينه على المنهج الديكارتى ، أو المنهج العقلى ، الذى لا يختلف كثيرا عن منهج ابن خلدون المؤرخ العربى العبقري

ومن هنا ، فان هذا الادعاء الذى سار شوطا طويلا وذاع بين خصوم طه حسين من أنه كان داعية للتغريب أى الى ثقافة الغرب ، انما تأخذه بكثير من الحذر ، لأنه لو كان كذلك ، لأفرط فى الحماس لكل ما هو «غربى» ، انما نرى أن طه حسين قد اتقى من الغرب ومن أوروبا بالذات ، خلاصة عصر النهضة البورجوازية المستتيرة ، وهى التى تدعى ربط جذورها بالثقافة الاغريقية الانسانية ، وهى تقلل من الاهتمام بالرومان مثلا ، وبقيود القانون والدولة ، وتهتم أشد الاهتمام بالفكر الاغريقى وأساطيره ومسرحه ، على أساس انها مهمومة بالانسان والانسانية ، وهى دعوة تطرب لها آذان البورجوازية ، أو النهضة الجديدة فى أوروبا

فاذا كان طه حسين قد دعا الى تعليم اليونانية أو اللاتينية ، وفعل ذلك بنفسه ، ودعا الى نقل الفكر اليونانى والمسرح الاغريقى وفعل ذلك على قدر ما وسعه الوقت والجهد فان طه حسين لم ينقل كل ما هو غربى وانما انتقى خلاصة أوربا ، وخلاصتها ان شئت أن تقول هى فى هذا المنهج الديكارتى ، وفى هذا التراث الرائع الذى تركه الاغريق خالدا خلود الانسان ..

ونحن ندعى لذلك ان من يتهم طه حسين بدعوة التغريب ، انما ينظر الى طه حسين من الخارج ، فهو يتوجس كثيرا من الشر ، والظن الأليم ، حين يقرأ هذا الكاتب القادم من أوربا ينمى على الجو الثقافى فى مصر هذا المنهج أو هذا الفراغ الذى يملأ بالكلمات دون فكر ، وبالسجع دون ذوق ، وبالمقامات الرتيبة دون فن ، وبالطرب دون تكوين وتنسيق ... وهو يروى ويألم لما يرى من أن مصر قد فسد ذوقها ، حتى غاب عنها هذا البحر الزاخر من تراث الاغريق ونهضة أوربا .. بل وغاب عنها هذا المنهج العقلى بالذات ، وهو ليس غربيا على عقول العرب كما رأينا فى ابن خلدون ولكن بعض ما وصل اليه طه حسين فى دراسته « المنهجية ! » « المثيرة ! » فى الأدب الجاهلى أثار عليه حنق شيوخ الأدب ، فاستنفروا عليه السلطات ، وأقاموا عليه ضجة عظيمة ، انتهت الى النيابة « العمومية » ! ..

ومهما يقل التاريخ فى هذه المعركة ، فلقد كانت مولدا لمنهج جديد يطبقه طه حسين على الأدب العربى ، ويستمسك به ، فكانت ثمرته مؤلفات عديدة فى الأدب وتاريخه ، استطاع طه حسين - وهذا ما يميزه - أن يزودها بالقديم فينقذه ويصفيه على نار هادئة من النقد العلمى الحديث . فاذا بالمعربى والمتنبى وبشار والقداى والمحدثين يقدمهم طه حسين فى أسلوب شاف من شدة بساطته . ومن كثرة تعرض الفكرة للتحليل والتقليب والتجريح والهضم ، فاستطاع هذا الأزهرى أن يكسب للشعر العربى والأدب العربى القديم هذا العدد الذى لا ينقص ،

بلى يزيد ، من القراء الشغوفين والمعجبين ..

وإذا كان طه حسين قد كسب لنفسه ، ولقراءه ، هذا المنهج العقلى الديكارتى ، الذى لا يصطدم مع عقلانية نوابغ العرب فى كل شىء ، فانه قد جد فى دراسة الفكر والتاريخ ، فاذا به يطلع علينا بمنهج أحدث ما تكون الحداثة ، وأجد ما تكون الجدة ، هو هذا المنهج «الاجتماعى» فى تحليل الشخصيات الفكرية والأدبية . ونجده فى كتاب «قادة الفكر» عام ١٩٢٥ الذى نقل فيه فصولا عن أرسطو ، وسقراط ، والاسكندر ، وغيرهم من نوابغ اليونان ، قد كشف عن منهج فى التحليل ، غاية فى العصرية والحداثة . وهو يبدأ هذا الكتاب بقوله :

« .. على انى لا أريد أبداً البحث قبل أن أقدم بين يديه تنبيها للقراء أرى أن ليس منه بد . لقد تعود الناس فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة أن يفهموا من مثل هذا العنوان « قادة الفكر » الذى قدمته ان عناية الكاتب والباحث ستتناول الأشخاص وتقصر عليهم ، فلفظ « قادة الفكر » اذا سمعه القارىء المصرى أو الشرقى فهم منه لأول وهلة طائفة من الأشخاص لهم أثر يختلف قوة وضعفا فى تكوين الحياة الفكرية العامة فى جيل من الأجيال أو فى بلد من البلاد ، ثم اتصل ذهنه بهؤلاء الأشخاص ، وانتظر من الكاتب أن يقص عليه تراجم هؤلاء الأشخاص . وهذا النوع من البحث مألوف شائع فى الشرق والغرب . يحبه الناس ويكلفون به منذ كتب الكاتب اليونانى المعروف «بلوتارخوس» كتابه المشهور الذى ترجم فيه لعظماء الرجال من اليونان .. ولكنى مع ذلك سأعدل عنه وسأكون شديد الاقتصاد فى ذكر الحوادث والأخبار والتواريخ التى تتصل بحياة الأشخاص الذين سأعرض لهم فى هذه الفصول ، لا لأنى أهمل هؤلاء الأشخاص اهمالا ، أو أنسى تأثيرهم العظيم فى البيئة التى نشأوا فيها ، بل لأن لى رأيا أظن انه هو الرأى المقرر الآن عند الذين يعنون بتاريخ الآداب والآراء وهو ان هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها

ظواهر فردية ، أى انها أثر من آثار الجماعة ، والبيئة ، أكثر من أن تكون أثرا من آثار الفرد الذى رآها وأذاعها ..

« وإذا كان الأمر كذلك فليس من الحق فى شيء أن تنسى الجماعة التى هى المؤثر الأول فى ظهور الآداب والآراء الفلسفية ، وتقصر عنايتك على الفرد الذى كان مظهرا لهذه الآداب أو لهذه الآراء ..

» ... الفرد اذن ظاهرة اجتماعية ، واذن فليس من البحث القيم العلمى فى شيء أن تجعل الفرد كل شيء وتمحو الجماعة التى أنشأته وكونته محوا ، انما السبيل أن تقدر الجماعة ، وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطعت فى تحديد الصلة بينهما وفى تعيين ما تطلبهما من أثر فى الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة » .. فانظر الى هذا « المنهج الاجتماعى » الذى صارحنا به طه حسين منذ عام ١٩٢٥ ، وكيف أخذ يطبقه على كتابه « قادة الفكر » ثم أخذ يطبقه على الأدب العربى ، ثم على دراساته فى عباقرة الأدب العربى ، ثم فى دراساته عن تاريخ الاسلام ، كما يظهر واضحا عظيم الوضوح فى كتاب « الفتنة الكبرى » بالذات ..

ولسنا نعتسف الحكم اذا قلنا ان طه حسين صاحب منهج ومدرسة فكرية نجد أصداءها عند كتاب العربية ، بل نجد أصداءها الآن فى فرنسا ، تتجدد على يد من يسمون أنفسهم بأصحاب المدرسة الاجتماعية ، فى كتابة التاريخ ، وأشهرهم : لوسيان فيفر الذى تخصص فى تاريخ عصر النهضة الأوربية ، ومارك بلوك الذى تخصص فى تاريخ العصور الوسطى ، ومازال لهما شأن كبير ، وسطوة هائلة على العقول والأذهان ، منذ أسسا فى عام ١٩٣٧ مجلة «حوليات التاريخ الاجتماعى والاقتصادى»

وأيا كان رأى ، فان الثورة التى صنعها طه حسين فى الفكر العربى صنعها هى أول الأمر ، وأخطر ما فيه ، فى المنهج الفكرى ..

ولكن خطر طه حسين انه لم يشير بمنهج ، واكتفى بأن يكون داعيته ، بل استطاع أن يطبق هذا المنهج على الأدب العربى القديم ، والحديث ،

والفكر العصري الأوربي كذلك . بل لقد طبقه أيضا في حياته العملية ، لأنه اذا كان قد تحمس كل الحماس لهذه الجامعة المصرية ، وتحمس للدفاع عن « العقلانية » في بداية هذا القرن ، فانما أراد أن تكون هذه الجامعة مبنى ومركز اشعاع لهذا المنهج الجديد ، ولم يظن كما قد يظن القائلون ، ان النهضة تصنع ، أو تقاس بمقدار الدروس التي يحفظها التلاميذ ، أو عدد الشهادات التي « تفرخها » الجامعة في كل عام ..

وخطورة طه حسين ، وصدقه ، انه عانى انتزاع « هذا المنهج العقلاني » بعد طول حيرة ، وعناء كثير ..

فلم يكن غريبا أن يكون هذا العقل ، هو ما طمحت اليه تلك الطبقة الجديدة أو هذه الأمة التي كانت تولد بين الحريين ، وتريد أن تشق طريقها بمنهج جديد ..

فاذا سأل شاب من الشباب في هذا الجيل ، كيف لطه حسين هذا الفتى الضعيف أن يفوز بكل ما قال من صدق ، وأن يتبوأ مثل هذه الصدارة ، فانك تستطيع أن تنصحه بلا ريب ، أن يعود الى ما كتب طه حسين ، وأن تنصحه ألا يقف عند هذا الأسلوب العذب ، أو الصور الصادقة ، أو الموسيقى الداخلية في التنسيق ، أو في هذا التحليل الجارح ، أو هذا الاكتناء الهادئ المتبصر ، بل عليك أن تنصحه أن يقف عند هذا المنهج الذي كشفه طه حسين ، وآمن به — كاليقين — وطبقه في حياته ، ولعل طه حسين كان يصف نفسه حينما كان يعجب بوصف بول فاليري للرسام « ديجا » والذي استشهد به عندما خرج علينا بكتابه « مع أبي العلاء في سجنه » سنة ١٩٣٩ ، فقال :

« هنالك لم أر بدا من أن أترجم هذه الصفحة من صفحات بول فاليري ، ومن أن أستعيرها بدءا لهذا الحديث . والغريب الذي لم أكن أتوقعه ، ولا أفرضه ، أن كثيرا من صفات هذا المصور الفرنسي ، الذي كنت أسمعه وأجهل من أمره كل شيء ، تشبه ما ألفت وأحببت من صفات أبي العلاء . فشدة الرجل على نفسه الى أقصى غايات الشدة ،

وشك الرجل في قدرته الى أبعد آماذ الشك ، وارتياح الرجل بأحكام
الناس في أمور الفن ، وزهد الرجل في الشهرة وبعد الصيت ، وفي الثراء
وسعة ذات اليد ، وانصرافه عن الحمد الكاذب والثناء الرخيص ،
وتأجيله لذة الظفر بالفوز ، وخلقه المصاعب لنفسه ، وبغضه للطرق
القصار والأبواب الواسعة ، وإيثار الطرق الطوال والأبواب الضيقة . كل
هذه الخصال التي يحدثنا بها بول فاليري عن صديقه وأثيره ديجنا ، قد
حدثنا بها القرون والأجيال عن أبي العلاء »

ولعلك لا تملك ، كما لا أملك ، أن تقول لنفسك معي :

والغريب الذي لم أكن أتوقعه ، ولا أفترضه ان كثيرا من هذه الصفات
وهي أخذ الرجل نفسه بالشدة ، وشكه في قدرته ، وارتياحه بأحكام
الناس ، وانصرافه عن الحمد الكاذب الرخيص ، وخلقه المصاعب لنفسه ،
وبغضه للأبواب الواسعة وإيثاره الطرق الطوال والأبواب الضيقة ، كل
هذه الخصال التي وصفها بول فاليري لصديقه ديجنا ، والتي وصفها طه
حسين لأبي العلاء كأنها صفات يصفها طه حسين لنفسه في رحلته الشاقة
من الضعف الى التمكن ، ومن الشك الى اليقين ..

طه حسين والدراسات الأدبية

د. شوقي ضيف

كان ظهور طه حسين حدثا مهما في مجال الدراسات الأدبية ،
فقد أخرجها من طور قديم الى طور حديث تغيرت فيه هذه
الدراسات تغيرا تاما ، بحيث أصبحت لا تقل خصبا ولا
امتناعا عن مثيلاتها في الآداب الغربية ..

ومعروف انه لم يكن عندنا قبله سوى صورتين لهذه الدراسات :
أولا : صورة تحاكي صنيع القدماء في دراساتهم للنصوص دراسة
يعنى فيها بالبلاغة والنقد واللفظ الغريب ، وكان الأزهر يقوم على هذه
الصورة ..

وثانيا : صورة مقابلة كان يعنى بها بعض الشيوخ في مدرسة القضاء
ودار العلوم وفي المدارس الثانوية ، وهى صورة تاريخية تذكر فيها تراجم
مبتسرة منتزعة من كتب الطبقات لا تكاد تغنى أى غناء فى درس أدبى
منظم .. وكانت تسمى تاريخ أدب اللغة العربية ..

وفى هذه الأثناء أنشئت الجامعة المصرية القديمة ، واستدعت طائفة
من المستشرقين فى مقدمتهم « كارلوناينو » الذى أخذ يعنى فى محاضراته
بدراسة تاريخ أدبنا على طريقة الغربيين فى درسمهم لآدابهم الحية وآدابهم
القديمة ، درسا يقوم على الموازنة بينه وبين الآداب العالمية الكبرى ، وان

الأدب مرآة للعصر الذي عاش فيه أصحابه والمؤثرات المختلفة التي أثرت في قائله وسامعيه ، فالأديب لا يعيش منفصلاً عن الجماعة ، وأدبه ليس الا ظاهرة من ظواهرها ..

وأتيح لطفه حسين الفتى الأزهرى الناشئ أن يختلف الى دروس هذا الأستاذ مع كل مساء ، بينما كان يخرج في الصباح الى الأزهر ، فيستمع الى دروس الشيخ سيد المرصفي وهو يفسر لتلاميذه نصوصاً من « ديوان الحماسة » لأبي تمام أو كتاب « الكامل » للمبرد أو كتاب « الأمالي » لأبي علي القالي على نحو ما كان أسلافنا القدماء يدرسون النصوص الأدبية دراسة تعتمد على النقد اللغوي والبصر بجواهر الكلام ومعرفة روائعه وخصائصه الأسلوبية

وأخذت الطريقتان المتقابلتان تثيران في نفس الفتى كثيراً من الخواطر فتارة يوازن بين ما يسمعه في أول النهار وما يسمعه في آخره ، وتارة تلم به أفكار فيما ينبغي أن يكون عليه درس أدبنا وبحته بمناهج الغربيين المحدثين ، ويستقر في نفسه انه ينبغي أن نجتمع بين الطريقتين في دراساتنا الأدبية :

طريقة نالينو التي تدرس أدبنا درساً تاريخياً منظماً يدرس فيه العصر ومؤثراته السياسية والاجتماعية والعقلية التي أثرت في نفوس منشئيه كما تدرس آثار هؤلاء المنشئين دراسة نقدية فاحصة

وطريقة الشيخ سيد المرصفي التي تدرس نصوص الأدب دراسة فقه وتحليل من شأنها أن تنشئ الذوق المرفه والملكة النقدية الدقيقة

وما نكاد نمضي معه في عام ١٩١٤ حتى تتجسد الطريقتان في نفسه ، وحتى يكتب على أضوائهما رسالته النفيسة « ذكرى أبي العلاء » ويتقدم بها الى درجة الدكتوراه في الجامعة القديمة ، وينال الدرجة مع الاطراء والثناء على جهده العلمي الخصب ، اذ درس أبا العلاء وآثاره وبيئته وعصره والمؤثرات التي أثرت في أدبه وفلسفته دراسة دقيقة غاية الدقة . دراسة تتضح فيها الحاسة التاريخية البصيرة ، كما تتضح فيها

سلامة الأحكام الأدبية ، وأنه يتقن فهم النصوص وتحليلها اتقاناً رائعاً .
لذلك قررت الجامعة القديمة ارساله في بعثة الى فرنسا

ويعكف هناك على الآداب الفرنسية واليونانية واللاتينية ، ويفقهها
فقها عميقا ، ويعنى بالمشاكل الفلسفية والاجتماعية فيتخذ من فلسفة
« ابن خلدون » الاجتماعية موضوعا لرسالته للدكتوراه ، ويظفر بها
كما يظفر بأعجاب منتحنيه من الأساتذة الفرنسيين

ويعود الى الجامعة القديمة عقب الحرب العالمية الأولى في هذا القرن ،
فيعنى بالقضاء محاضرات في تاريخ اليونان وأدبهم ، ويعرض على طلابه
صحفا مختارة من شعرهم التمثيلي وكأنه يريد أن يفتح صفحة كبيرة
للموازنة بين أدبنا القديم والآداب اليوناني

وما يلبث حزب الأحرار الدستوريين أن يخرج صحيفته اليومية
« السياسة » ويختاره محررا أدبيا لها ، فينشر بها كل يوم أربعاء مقالة
ضافية عن الشعر العربي ، ويتخذ من شعراء العصر العباسي الأول
موضوعا لمقالاته ..

ويدرس هؤلاء الشعراء درسا تاريخيا علميا منظما كما يدرس عصرهم
دراسة جادة ، واصفا له بأنه كان عصر شك ومجون وزندقة على نحو
ما توضح ذلك دراسة بشار ، وأبى نواس ، وحمام عجرد ، وإبان بن
عبد الحميد ، واضرابهم ..

ويهب كثيرون وفي مقدمتهم رفيق العظم أديب سوريا مدافعين عن
العصر ، زاعمين ان في ذلك تحريفا لصورته الحقيقية ، كأنما ظنوا ان في
ذلك تشويها لعصر المنصور ، والمهدي ، والرشيد ، والمأمون

ويرد عليهم بأن العلم لا يعرف مذهب تقديس السلف وان هذا المذهب
هو الذى يشوه الحقائق التاريخية ، اذ يفضى بمعتقديه الى الهوى ويردهم
عن جادة الحق والصواب

وضرب لهم أمثلة مختلفة من عصور زاهية في تاريخ اليونان القديم
وتاريخ فرنسا الحديث كان يشيع فيها اللهو والمجون ، وشيوعهما في عصر

عربى لا يعنى الازراء عليه ، وانما يعنى وصفه التاريخى الصحيح وصفا
لا يمليه الهوى ولا العقيدة وانما تمليه الحقائق الخالصة

وتتحول الجامعة القديمة فى عام ١٩٢٤ الى جامعة حكومية ، ويصبح
طه حسين أستاذا لآداب اللغة العربية ، فيعنى بدراسة الشعر الجاهلى
ويخرج فيه عام ١٩٢٦ كتابا يحدث دويا هائلا ، اذ أخضع منهجه فى بحث
هذا الشعر لمنهج ديكارت الفلسفى الذى يفتح أبواب الشك على
مصاريعها فى بحث أى شىء حتى تصل الى اليقين ، دون عائق يعوق من
مذهب أو عقيدة ..

وعلى أساس هذا المنهج ، عدّ الأحكام التاريخية القديمة المتصلة بالشعر
الجاهلى وغيره أحكاما اضافية ، بحيث يمكن تغييرها اذا لم تكن دقيقة.
كما يمكن تصحيحها اذا كانت خاطئة . فالقدماء ليسوا منزهين عن الخطأ ،
وقد يجانبهم الصواب ، وعلينا أن نصوّب ما أخطأوا فيه . واتتهى الى
نظرية عامة هى نظرية الالتحال فى الشعر الجاهلى ، وأن جمهوره مصنوع
زائف ، زيفته العصور التالية

وانبرى كثيرون يردون على طه حسين فى الصحف ، تارة يعتدلون فى
ردهم ، وتارة يعنفون . وجتمع كثير من الردود فى كتب ، نشرت فى
الناس .. من ذلك كتاب « الشهاب الراصد » لمحمد لطفى جمعه ،
و « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضر حسين ، و « نقد
كتاب فى الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى ، ومحاضرات فى بيان
الأخطاء العلمية التاريخية التى يشتمل عليها كتاب « فى الشعر الجاهلى »
للشيخ محمد الخضرى

وأعاد طه حسين طبع كتابه باسم جديد هو « فى الأدب الجاهلى »
وظلت الثورة عليه قائمة ، على نحو ما يصور ذلك محمد احمد
الغمرأوى فى كتاب « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى »
ومصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن »
وناقشه هؤلاء الكتاب طويلا فى تطبيقه لمنهج ديكارت على الشعر

الجاهلي ، وهل هو يتخذ الشك وسيلة للشك نفسه أو هو يتخذ وسيلة لليقين ، ومضوا يراجعونه في بعض الفروض وبعض النتائج وبعض النصوص وبعض الأدلة والبراهين.. كان قد عدّد دوافع الشك في الشعر الجاهلي فقال: انه لا يمثل حياة الجاهلين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية كما انه لا يمثل ما كان يشيع في الجنوب من اللغة الحميرية ولا ما كان يجري في لغة العدنانيين الشماليين من لهجات متفاوتة . وعدد أسباب الاتحال ، وردها الى السياسة والدين والقصص والشعرية واختلاق الرواة الموضوعات

كل ذلك ناقشه الكتاب السالفون ، كما ناقشوا دراساته التطبيقية للشعراء اليمنيين والعدنانيين ، وأثير في أثناء المناقشة ، بل المعركة الحامية ، غبار كثير ، وانجلي الغبار عن تأصيل قويم في دراسة الشعر القديم . فهذا الشعر ينبغي ألا يقبل جميعه وان يعرض على امتحان علمي دقيق قبل قبوله ، بحيث لا يتخذ منه أساسا للدرس الا ما صح والا ما رضيه العلم الوثيق ، وما وراء ذلك ينبغي أن يرفض وي طرح بعيدا ، بحيث تكون أحكامنا الأدبية سليمة

ولم تؤصل هذه الدراسة القيمة البحث في الأدب الجاهلي وحده ، فقد أصلت أيضا البحث في الأدب العربي بعامة ، اذ دعت الى حرية الفكر والا يخضع الباحث لشيء سوى روح البحث التحليلي ..

وليس هذا فحسب ، فقد عرض طه حسين لمقاييس التاريخ الأدبي وبدأ بالمقياس السياسي الذي يتخذه شيوخ الأدب في مصر أساسا لدراسة تاريخ الأدب ، وأوضح ما فيه من قصور ، وثنى بالمقياس العلمي عند مؤرخي الآداب الفرنسية الذين زجوا بتاريخ الأدب في مضمار العلوم الطبيعية ، مطبقين عليه قواعدها وقوانينها الحتمية

وصور ما ذهب اليه سانت بوف من ترتيب شخصيات الأدباء للأمة في فصائل وأنواع على نحو ما يرتب علماء النبات الفصائل النباتية ، ورسم في دقة ما ذهب اليه « تين » من ان الأديب انما هو ثمرة حتمية.

لقوانين الجنس والزمان والمكان ، الجنس بأخلاقه وطباعه وعاداته ومزاجه ومملكاته ، والزمان بكل ما يتصل به من ظروف سياسية واقتصادية وثقافية ودينية ، والمكان بكل ما يرتبط به من شئون اقليمية وجغرافية وأوضح كيف ان برونتير خطا الى أبعد مما خطا اليه صاحباه ، اذ طبق على فنون الأدب وأنواعه نظرية داروين في التطور والنشوء والارتقاء وما لبث طه حسين أن خلص الى مقياس سماء المقياس الأدبي ، وهو مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يفرق مؤرخ الأدب في العلم اغراقا من شأنه أن يصيب بحوثه التاريخية الأدبية بالجفاف ، وبحيث لا يغرق في الفن اغراقا من شأنه أن يفنى شخصيات الشعراء والكتاب في شخصيته ، بل يتخذ طريقا وسطا بين العلم والفن ، طريقا يتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبي في استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية ، مع ما ينبغي له من الحس الدقيق المرهف والذوق المهذب المصنفي ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينشر من أحكام وآراء وفيما يصور من مواطن الجمال الفني في الآثار الأدبية المختلفة

وعلى هذا النحو وضع طه حسين لنفسه ولمدرسته التي أخذ طلابها ينشئون على مثاله الأصول التي ينبغي أن ينووا عليها دراساتهم الأدبية ، وهي أصول ترد الى جانبين :

١ - جانب علمي يتصل بفحص النصوص الأدبية وفقها وتحققها واستنباط دلالاتها ، مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ومعرفة الظروف التي أحاطت بها والمؤثرات المختلفة التي أثرت في منشئها وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم

٢ - وجانب فني يتصل بنقد النصوص وتصوير شخصيات أصحابها وما تحدث في نفس قارئها من لذة ، وهو الجانب الذي يحيل التاريخ الأدبي الى عمل منمتع يلذ العقل والشعور . اذ نرى من خلاله خصائص

المؤرخ الأدبي العقلية وملكاته وقدرته على طرافة العرض والتصوير ،
حتى لكأننا بازاء عمل فنى رائع

ومضى طه حسين يدرس لطلابه الأدب العربى على هذه الأصول الفنية
العلمية جامعا الى ملكاته العقلية النافذة شعورا مرهفا واحساسا حادا ،
منفقا فى هذا الدرس أعواما طويلا ، فرغ فيها لبحث كثير من الظواهر
الأدبية وشخصيات الشعراء والكتاب ، مؤرخا ، وناقدا محللا مستنبطا ،
كأروع ما يكون الاستنباط والتحليل والنقد والتاريخ ، مبتغيا دائما أن
يرضى العلم والفن وينهض بحقوقهما ، متخذاً لنفسه أسلوبا متميزا ،
أسلوبا يجمع بين الدقة والرشاقة والعذوبة والنعومة ، أسلوبا استخلص
فيه رحيق لغتنا وأدبنا وقدمه غذاء للعقول والقلوب والأفئدة

وظل بين حين وآخر يفجأ المتأدين بدراسات أدبية ممتعة تملأ نفوسهم
اعجابا بما يجرى فيها من أحكام صائبة وتحليلات بارعة وما تصاغ فيه
من أسلوب ساحر يخلب الألباب

وتتوالى مصنفاته النفيسة ، فى حافظ ، وشوقى ، وفى بعض أعلام الشعر
والنثر العباسيين وفى المتنبي ، ويصنف فى أبى العلاء غير كتاب ويتناول
بعض الشعراء المعاصرين بالنقد والتحليل

ويتمثل بعض قصائد الشعر الجاهلى تمثلا رائعا ويعرضها فى صورة
جذابة على المتأدين ترفع عنها كل ما كان يظن بها من جفاف واجداد ،
وتجعلهم سيفغونها ويتذوقونها ويجدون فيها لذة ومتاعا

وناهيك بما كان يظهر تلاميذه عليه فى محاضراته من الدقة فى تحليل
الشخصيات والآثار الأدبية ، يعينه فى ذلك زاد ثقافى واسع من الآداب
الغربية الحديثة والقديمة وهو زاد جعله يصل دائما بين أدبنا وآداب
الأمم المختلفة ، كما جعله يصل فى قوة بين آثار أسلافنا وما عاصرها من
مظاهر الحياة الاجتماعية والشعورية والعقلية

وبهذا كله لم يؤصل طه حسين الدراسات الأدبية العلمية فحسب ، بل

حبه أيضا الى الشباب ، وجعلهم يقبلون عليه ويشغفون به شغفا شديدا
 أما تلاميذه الذين كانوا يتلقون عنه محاضراته فقد ملأ قلوبهم فتنة
 بالبحث فيه بحثا علميا فنيا دقيقا ، وسرعان ما أخذوا يدرسون أنحاء
 حياتنا الأدبية القديمة والحديثة درسا قويا خصباً ، ولم تمض أعوام طويلة
 حتى وضحت مذاهب أسلافنا الفنية في الشعر والنثر

وتوالى الدراسات في أدبنا العربي القديم والمعاصر وفنونه المختلفة ،
 ودرست بعض الشخصيات الأدبية المعاصرة دراسة تحليلية نقدية قيمة
 وأرخت بعض عصورنا الأدبية تأريخا علميا فنيا دقيقا

ونشرت بجانب ذلك نصوص أدبية كثيرة نشرها علميا بديعا ، وأخذت
 دراسات فقه اللغة العربية تنمو نموا واسعا

ولعلنى لا أبالغ اذا قلت ان كل الجهود الأدبية العلمية التى نهضت
 وتنهض بها جامعاتنا انما هى ثمرة طبيعية لأصول البحث الأدبى التى
 وطدها طه حسين بمحاضراته ومصنفاته ومقالاته والتى بثها فى تلاميذه .
 ومضوا بدورهم يثونها فى تلاميذهم ، مما يجعله بحق الرائد الموجه
 لنهضتنا العلمية فى الدراسات الأدبية

طه حسين الناقد

فرانشيسكو جابريللى

يعتبر نشاط طه حسين فى حقلى النقد والأدب الجانب الرئيسى من إنتاجه العظيم المتعدد النواحي .. واذا كانت كتاباته الثقافية والسياسية ومقالاته عن تاريخ الاسلام القديم وإنتاجه الفنى الأصل تشكل جوانب أخرى من جوانب نشاطه المتعدد الأشكال ، فإن النقد الأدبى هو الذى استنفد أولى طاقاته وأحدثها والذى أعطى شكلا ومادة لأشهر مؤلفاته التى كانت محل نقاش الكثيرين والتى كانت سببا فى ذىوع شهرته فى داخل مصر والعالم العربى وخارجهما . وعندما أذاعت أكاديمية « لينشى » الإيطالية فى عام ١٩٥١ هذه الشهرة بيننا باختيار طه حسين عضوا من أعضائها الأجانب كانت الشعبة التى التحق بها هى شعبة « نقاد الفن والشعر » وقد كان هذا اعترافا كبيرا دوليا بفضل ذلك الرجل الذى شاء له القدر أن يبدأ حياته - وهو مصاب بعاهات جسمانية - بذلك التعليم التقليدى وبذلك التكوين الإسلامى اللذين كانا قائمين فى مصر منذ ستين عاما مضت ان ذلك الطريق الطويل الشاق حسب ما جاء فى تاريخ حياته الذى وضعه عنه « ليدزبارسكى » الذى قاد الشباب الأزهرى الى هضم أعظم الثقافات الكلاسيكية والأوربية لا يمكننا أن نتحدث عنه مرة ثانية لأن

(*) فرانشيسكو جابريللى : استاذ اللغة العربية بجامعة روما وعضو مراسل فى مجمع اللغة العربية . وعضو أكاديمية لينشى

طه حسين نفسه قد تحدث عن جانب كبير منه

على ان ما يمكننا وما يجب علينا أن نشير اليه هنا هو ان النقد الأدبي كان موضع التجربة في ذلك التطور وان طه حسين قد تخطى عن الأساليب التقليدية الموروثة في ميدان التاريخ الأدبي بالذات وانه سرعان ما ظهرت أمامه بوضوح تلك الأزمة . وانا نرى في كل من المقدمة التي وضعها لكتابه « ذكرى أبي العلاء » وفي كتاب « الأدب الجاهلي » انه تحدث في شيء كثير من الاعتراف بالجميل عن دراساته لتاريخ الأدب العربي التي تلقاها في الأزهر على يدى الشيخ « سيد بن على المرصفى » والتي قابل بينها وبين طرق الدراسة الجديدة والعالم الجديد الذى تكشف له عن طريق الاستشراق الأوربى (ذلك الاستشراق الذى يرى فيه بعض العرب المتطرفين انه لم يكن سوى صورة خفية من صور الاستعمار)

كان الشيخ المرصفى الطيب في بداية القرن العشرين لا يزال من أتباع ومقلدى أبى عمرو بن العلاء وفقهاء اللغة الآخرين المتعصبين لكل ما هو قديم والذين عاشوا في القرن الأول في أيام الدولة العباسية وكان هؤلاء يرون ان اللغة الوحيدة الصحيحة هى لغة نحول الجاهلية التي كانت دون غيرها تطفى طغيانا تاما على أى تطور أدبى تال آخر . أما الأساتذة الأوربيون في جامعة القاهرة الجديدة ثم في جامعات فرنسا من أمثال اينياتزيو جويدي وكارلو الفونسو نالينو و ج. ميلونى ثم ب . كازانوف و ج . ويت و ل . سينيون وغيرهم . فانهم فتحوا أمام ذكاء هذا الشاب المصرى الطموح آفاقا واسعة لفكرة تاريخية عن الثقافة العربية القديمة وعن مستقبلها وتطورها وعن آثار البيئة التي عاش فيها وعن التطورات والمقارنات اللغوية . كانت هذه هى الطريقة التاريخية والفيلولوجية الأوربية التي كانت أعظم بكثير وأوسع مدى من تلك الطريقة المدرسية التقليدية الوطنية ولكنها كانت مبهمة وغير واضحة من الناحية النظرية حتى ان معلميه الجدد من المستشرقين لم يستطيعوا أو لم يريدوا تلقينها له . ولقد أتاحت الثقافة الفرنسية التي كان طه حسين قد بدأ منذ ذلك

الحين في تلقيها الفرصة له للتعرف عليها عن طريق الكتب واستطاع هضمها فيما بعد بفضل اقامته في فرنسا وبفضل تلك الروابط العائلية التي ارتبط بها فيها . ولقد ظهر كل من « سانت ييف » و « تايين » و « جول ليميتير » في أثناء أحاديثه وفي أساليبه النقدية ذاتها كأحسن وأصدق النماذج المعاصرة فيما يتصل بالأفكار الجمالية الأساسية

ومن الممكن القول بالاجمال بأن دراسة تاريخ وفقه اللغة العربية على طريقة المستشرقين الغربيين فصلا عن النقد النفساني وعلم الاجتماع وتأثيرية التعليم الفرنسي هي العناصر الجوهرية في النقد الأدبي الذي كتبه طه حسين ..

ان الصيغة الموجزة وان كانت تقريبية تتضمن في حالتنا هذه بعض العناصر الأساسية الايجابية والسلبية في شخصية صاحبنا ولكنها تغفل بعض العناصر الأخرى . هذه الصفة تتضمن فاعلية الاستشراق الأوربي ذي الطابع الايجابي وتكملة وذلك بفضل النقد الأدبي الفرنسي . وتعترف الصيغة المذكورة بنقص ناتج عن الألفة باللغة والفكر الألماني والايطالي . وقد سلّم بذلك طه حسين بنفسه (وهو نقص يتبين بصورة خاصة في ميدان النقد الأدبي) ولكنها في الوقت ذاته تنقل عناصر أخرى هامة من عناصر الثقافة والنقد عند كاتبنا ، نرى من اللازم الاشارة اليها هنا وابرازها ، وأحدها واضح وجوهري وهو أساسها العربي وكان من الممكن الحصول عليها بطرق قديمة من الثروة اللغوية والأدبية الوطنية التي لا يمكن أن يحصل عليها أي انسان آخر غير عربي عن طريق الكتب وحدها والتي تسهل فهم الكتب الكلاسيكية ودراستها ، وهناك عنصر آخر يجب عدم اغفاله يشرف هذا الكاتب والناقد العربي ، وهو تلك الألفة غير العادية التي حصل عليها بالعالم الكلاسيكي الاغريقي الروماني الذي لا يزال حتى اليوم غريبا على عدد كبير من المفكرين العرب المعاصرين ولكنه كان منذ نصف قرن مضى كتابا مغلقا تمام الاغلاق ..

وان معرفة طه حسين بقيادة الفكر وبمفكرى اليونان وفلاسفتها

وشعرائها بمعزل عن الألفة المباشرة القليلة أو الكثيرة بالنصوص قد فتحت أمامه آفاقا أبعد مدى من آفاق الأدب القومي التقليدي ، ووجدت ووسعت ذلك الاتصال بين الدراسات العربية والدراسات اليونانية ، ذلك الاتصال الذى تم فى عهود الدولة العباسية الحنصبة ، وقد قدم ذلك لكاتبنا عنصرا للمقارنة بينها وبين الأدب القومي الكلاسيكى (بينما تبدو ألفته بعناصر الثقافة الفارسية الأخرى أقل من ألفته بالثقافة اليونانية) ويضاف الى ذلك اتصال طه حسين وتفوقه فى اللغة الفرنسية وإطلاعه على ما كتب بها فى مختلف نواحي الفكر والفن الأوروبى الحديث . ولدينا الآن أمام أعيننا لوحة كاملة غنية كل الغنى عن زمنه وبيئته ، وعلى الأخص فى البداية ، تبين لنا الثقافة والعلوم الانسانية التى قامت على أساسها المؤلفات النقدية التى أنجزها هذا الباحث المصرى ..

بدأ طه حسين حياته كناقد أدبى أو بوجه عام ككاتب فى عام ١٩١٥ عندما أخرج كتابه ذكرى « أبى العلاء » الذى كان هو الرسالة التى منحته عنها الجامعة المصرية شهادة الدكتوراه . وكانت هذه الشهادة هى أول درجة أكاديمية منحتها تلك الجامعة الجديدة . وعندما تحدث المؤلف عن هذا الكتاب صرح فى شيء من البهجة والسرور بأن بحثه هذا كان الأول من نوعه فى حقل الثقافة العربية فى ذلك الوقت ، وذلك بسبب الموضوع الذى وقع عليه اختياره والمنهج الذى سار عليه فى كتابته .. وفى الحق ان شاعر المعرة لم يكن قط حتى ذلك الوقت موضع دراسة عميقة فى بلاد الشرق التى كانت لا تعرف عنه شيئا سوى إيمانه المتزعزع . واتنا اذا استثنينا ما كتبه عنه فى بلاد الغرب « كريمر » عام ١٨٨٨ ، فقد كان هذا الكتاب الأخير بسبب اللغة التى كتب بها مجهولا لم يصل علم طه حسين اليه ولم تكن قد كتبت عن « أبى العلاء » حتى تلك اللحظة سوى كتابات جزئية غير كافية وضعها عنه « مارجوليوس » و« سالمون » أما رسالة الدكتوراه المستفيضة التى وضعها عنه مؤلفنا ، فانها بسبب ظهورها باللغة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى بقيت بدورها مجهولة

في الغرب الذي لم تزدهر فيه الدراسات الخاصة بأبي العلاء الا بعد تلك الحرب بفضل ما كتبه عنه « نيكوتش » و « كراكوفسكى » و « فيشر » وغيرهم ..

وفي الواقع انه كان يشوب كتاب طه حسين الذي كان من الممكن أن يطلق عليه في أوروبا اسم « عصور وحياة ومؤلفات أبي العلاء » شيء من عدم الانسجام بين الجانب التاريخي العام الذي كان مقدمة لسيرة الشاعر وبين هذه السيرة نفسها وبين دراسته الدقيقة لكتاب « رهين المحبسين » التي لم تكن سوى ملخص مضغوط لهذا الكتاب . وأما كتاب « اللزوميات » الذي يتركز فيه فكر « المعري » وشعره فيمكن القول بأن طه حسين قد مرّ عليه مرورا دون أن يقوم بتحليله تحليلًا دقيقًا كما ان كتابا آخر من كتب أبي العلاء الرئيسية مثل « رسالة الغفران » التي لقيت فيما بعد لأسباب كثيرة جانبا كبيرا من الاهتمام سواء في الشرق أو الغرب لم يقدّم طه حسين الا بالقاء نظرات سريعة عليها ..

هذا وان القيمة العظيمة التي أحرزها كتاب طه حسين الأول الذي وضعه عن « المعري » انما تتركز - اذا لم تكن نخطئين - في صورة وسيرة ذلك الشاعر الذي استطاع طه حسين أن يكتب صفحات مليئة بالعطف عن فلسفته وآرائه النفسانية ..

على ان هذا الكتاب الذي وضعه طه حسين في سن الشباب كان أول ثمرة لألفة طه حسين ومحبه لهذا الشاعر الشامي الكفيف ، ولم تمض خمسة وعشرون عاما حتى عاد طه حسين وتناول في كتابه « مع أبي العلاء في سجنه » عام ١٩٣٩ الحديث عن هذا الشاعر واستطاع بكل براعة أن يستكمل ما كان هناك من نقص في الجانب النقدي في كتابه القديم ..

وبينما كان كتاب طه حسين الأول يبدو في شكل رسالة علمية جافة فان بحثه الجديد يمكن وصفه بأنه ليس كتابا علميا جامدا يتعارض مع الدين ولكنه كان بالأحرى حديثا وديا بين المؤلف المعاصر والشاعر القديم في ذلك الوقت الذي بلغ فيه طه حسين قمة المجد بصفته كاتبًا ومؤلفًا

استعمل في هذا الكتاب أيضا أسلوبا في الحديث الكلامي يختلف كل الاختلاف مع الأساليب العلمية ، أدخله في تلك الأثناء أيضا في « حديث الأربعاء » الذي كان وسطا بين الكتاب النقدي والحديث الحر عن تاريخ حياته الخاصة ..

وهكذا نجد ان الاستدراك الذي وضعه تكملة لما كتبه عن « المعري » يبدو لنا من الناحية النقدية عظيم القيمة الى حد بعيد . وقد عالج طه حسين هذه المرة موضوع كتاب « اللزوميات » وتحدث عن بعض المسائل الرئيسية أو لمسها لمسا خفيفا (مثل مسألة الفن والصناعة الفنية والوحدة الفنية المطابقة والمعارضة وبعض الآراء الفلسفية والاجتماعية الى غير ذلك) كما عالج كتاب « فصول وغايات » الذي نشرت بعض أجزائه منذ عهد قريب ، وأبرز ما في هذا المؤلف الأخير من مشابهاة دقيقة بما تضمنه كتاب « اللزوميات » من موضوعات بالرغم من أسلوبه المتكلف .. لم يقف عند هذا الحد اهتمام طه حسين وتعلقه بشخصية « أبي العلاء » فقد قدم لنا بالفعل في عام ١٩٤٤ مختارات من أشعار « أبي العلاء » مشروحة بالنثر الحديث في كتابه « صوت أبي العلاء » ..

كما بدأ حوالى عام ١٩٥٠ بالتعاون مع الأستاذ ابراهيم الاياري في اخراج طبعة جديدة مشروحة من كتاب « اللزوميات » لا نعرف على وجه الدقة الى أى مدى وصل العمل فيها وإلى أى حد بلغت مساهمة الدكتور طه حسين في اخراجها .. تلك الطبعة التي تنتظر على أى حال أن نرى فيها مقدار تعلقه واهتمامه العظيم بوصفه ناقدا للشاعر الذي أحبه وتعلق به منذ أيام صباه ..

يبدو ان دراسة أبي العلاء (التي أشار فيها طه حسين أكثر من مرة الى رغبته وتشوقه الى اخراج مؤلف كامل مستفيض بعد أن ازداد نضوجا عما كان عليه عندما ألف كتابه الأول) قد استحوذت على جانب كبير من نشاطه في ميدان النقد ..

وفي الحق ان أعظم جانب من نشاطه النقدي هو الذي ظهر فيما بين

صدور كتاب « ذكرى أبى العلاء » وظهور مؤلفاته الأخرى اللاحقة عن شاعر المعرة . ذلك النشاط الذى كان قد بدأه عام ١٩١٥ ، واستمر بعد عام ١٩٢٢ عندما أخرج سلسلة مقالاته « حديث الأربعاء » وزاد من شهرته فيما بين عامى ١٩٢٦ و ١٩٢٧ عندما أخرج كتابه « الشعر أو الأدب الجاهلى » الذى أثار عاصفة هوجاء فى مصر . ويعرف الجميع موضوع هذا الكتاب الذى يتعارض بعض التعارض مع العقيدة والذى لم يطرأ على جوهره أى تغيير فى الطبعتين اللتين صدرتا بعنوانين مختلفان اختلافا بسيطا . اذ تحدث عن عدم صحة نسبة معظم الأشعار الجاهلية الى أصحابها ، وعن ان هذه الأشعار قد كتبها علماء وشعراء القرنين الأولين من الهجرة بدافع من أهوائهم السياسية والدينية وعن الغرور والمفاخرات القبلية ومؤلفات علماء الأنساب وروايات الأقدمين وجشع الشعراء

ويرى المستشرقون الأوربيون ان هذا الموضوع كما قدمه مؤلفه هو أول ثمرة لمبادئ « ديكارت » التى تشبّع بها أثناء اقامته فى أوروبا . ولم يكن هذا الموضوع سوى شكل ظاهرى لمذهب من مذاهب المتشككين سبق أن حبذه منذ عام ١٨٧٣ « اهلواردت » كما حبذه فى عهد طه حسين « مرجليوت » الذى شاركه فى رأيه أيضا « بلاشير » بطريقة أكثر اعتدالا

أما هذا الموضوع فانه لم يكن بالنسبة لمصر والعالم العربى بأسره أقل أو أكثر من اعتداء على ما للتقاليد الشعرية الوطنية من قيم واجبة الاحترام . ولقد زاد من عنف هذا الاعتداء ومن أثره السئ ان أحدا من قبل لم يتناول بالنقد أقدم المخلفات الأدبية العربية ..

هذا وان الجدل والحرب القلمية التى استعرت نيرانها لم يكن من شأنها توقيع عقوبات من جانب الهيئات الجامعية أو القضائية وكانت دليلا على عدم نضوج رأى العام المصرى فى ذلك الوقت (ولا نستطيع أن نقول ذلك عن رأى العام المصرى فى الوقت الحاضر) ازاء موضوعات ومناقشات علمية كانت تمس قيما دقيقة من قيم التقاليد الأدبية والدينية ..

وانا اذا بحثنا هذه المسألة فى خارج حدود تلك التقاليد بحثا علميا

بحثنا ونقدناها نقدا حرا ، فان اصالة هذا الموضوع المتطرف لا تبدو لنا
أمرا مقبولا يمكن التسليم به ، كما لم يبد ذلك في نظر أوربا المستشرقة
غير المتحيزة ، والتي ربما لا تبدو اليوم كذلك بالنسبة للمؤلف نفسه ..
ونحن دون أن نصل الى آخر اتجاهات طه حسين المحافظة في الميدان
الأدبي والديني في بحثه للشعر العربي القديم في « حديث الأربعاء »
نجد ان كميات كثيرة من الماء قد امتزجت بنبذ تشككه القديم . ومع
ذلك فيمكننا أن نشير الى احتمال وقوع تزيف في فقرات متفرقة ولكن
صحة ذلك التراث القديم في مجموعه لا تبدو لنا انها موضع أى شك أو
اعتراض . وهذا ما يستبعد كل الاستبعاد كل امكان في اعادة بناء صورة
مشابهة لأولئك الشعراء ..

وان التفرقة بين الممكن والمحتمل أو عدم الصحة المؤكدة للأبيات
المتفرقة والتزيف الاجمالى المزعوم يعود الى اتفاقه فى رأى مع النظرة
السائدة الآن بين المستشرقين الأوربيين فيما يتصل بالشعر الجاهلى ..

هذا وان الكتاب الثورى الذى نشر منذ ما يقرب من أربعين عاما
مضت (الذى هو دون شك مستقل استقلالاً تاماً عن مقالة مرجليوت
المعاصرة) يبقى مع ذلك وثيقة ودليلاً على شجاعة مؤلفه ، وعلى عدم تحيزه ،
وشدة إعجابه بالمبادئ التى تعتمد على العقل وبآراء « ديكارت » التى
كان فى ذلك الوقت متشبعاً بها ..

وعلى كل حال فان هذا الكتاب يسر القارئ اذا ما فكر فى تلك
المبالغات العقائدية التى كانت سائدة فى بيئته وعصره ..

هذا وان النقد القاسى باسم تلك المبادئ قد أدى حقاً بطله حسين الى
اصدار تصريحات لا بد أن تكون قد تركت شيئاً من الحيرة فى نفوس
أساتذته المستشرقين مثل مسألة انكاره الـ « كوانية Koiné » اللغوية فى
الشعر الجاهلى ومثل انكاره صحة جميع القصائد الشعرية المنسوبة الى
شعراء من أصل عشائرى من القحطانيين لأنها لم تنظم بلغة من لغة جنوب
بلاد العرب الى غير ذلك . ولكن نجاح فضيحة كتاب « الأدب الجاهلى »

ورفض قبول رأى صاحبه لأسباب متعددة مناسبة وغير مناسبة لا يجب أن تجعلنا ننسى قيمة هذا الكتاب العظيمة الذى يشتمل على مراجعة مستفيضة ونقد من نوع جديد لتراث اللغة العربية القديم بأكمله . وقد قام بهذا النقد وبهذه المراجعة على مستوى أعلى بكثير من مستوى تلك الملخصات الشائعة التى كان يضعها الكتاب أمثال جرجى زيدان والشيخ المتزمتون . كما يجب ألا ننسى بعض ملاحظات طه حسين التى لا تخلو من براعة عظيمة وأخيرا وليس آخرا نقاء أسلوبه وانسيابه ..

هذا وإن ظهور ذلك الكتاب الذى أثار حوله كثيرا من الجدل قد لفت نظر الرأى العام الى المؤلف أكثر مما استرعى انتباهه ظهور كتاب طه حسين الأول عن « أبى العلاء » ..

هذا ولا ننسى ان التعريف بالآداب والفلسفة اليونانية الذى اشتهر به طه حسين فى تلك السنوات ومقالاته الأولى الأسبوعية التى ترجع الى عام ١٩٢٢ - ١٩٢٣ والتى نشرها فى جريدة « السياسة » ثم بعد ذلك فى جريدة « الجهاد » ابتداء من مقالته عن « سانت بياف » ضمن « حديث الأربعاء » التى جمعت فيما بعد فى كتاب واحد قد تمثل فيها نشاط طه حسين ومؤلفاته الممتازة فى ميدان النقد والتى لاقت نجاحا كبيرا ..

ولقد بدأت هذه الأحاديث « أى أحاديث الأربعاء » يبحث ذلك التجديد الشعرى فى عهد الخلفاء العباسيين وبالتحدث عن كبار شعرائه من أمثال (أبى نواس ، مطيع بن اياس ، وبشار بن برد ، وغيرهم) ومن سبقهم من أمثال (وليد بن يزيد) لكى يعود بعد ذلك الى الشعر العربى فى عهد الدولة الأموية . ثم الى الشعر الجاهلى . بينما كانت هناك مقالات أخرى ومحاضرات جمعت كلها فى عام ١٩٣٦ ونشرت تحت عنوان « من حديث الشعر والنثر » كانت تكملة لبحوثه فى تاريخ الأدب القومى فى عهد الدولة العباسية مع بحث خاص عن تطور النثر . ثم ظهرت أربع صور أخرى للشعراء المحدثين (أبو تمام ، والبحتري ، وابن الرومى ، وابن المعتز) ..

فى ذلك الوقت كان نشاط طه حسين فى ميدان النقد يتجه أيضا الى الأدب المعاصر . وقد كتب عددا من المقالات فى « حديث الأربعاء » وجدت لها مكانا فى المجلد الثالث من مجموعة هذه الأحاديث المستفيضة وقد تناوب الحديث فيها تارة عن الكلاسيكيين ، وتارة عن كتاب الأدب المعاصرين من أمثال (سلامة موسى ، والعقاد ، وهيكى ، وفكرى أباطة ، وايليا أبو ماضى ، وغيرهم) وعما وضعوه من مؤلفات فضلا عن مناقشاته فى مسائل النقد العامة وفى موضوع الخلق الأدبى . وقد ظهرت المجموعة الكاملة « لأحاديث الأربعاء » فى ثلاثة أجزاء ، جاء فى آخرها كحاشية لها بحثه « من حديث الشعر والنثر » . وانا اذا استثنينا النظام التاريخى للمادة بدلا من تاريخ نشر كل بحث من أبحاثه المتفرقة فانا نجد انه قد قدم لنا بهذه الطريقة الخطوة الجوهرية لكتاب « فى تاريخ الأدب العربى » حتى القرن الأول العباسى بأكمله ، رسم فيها صورا كتابية لكل مؤلف من المؤلفين مع بعض فصول مترابطة ومقدمة لبعض المسائل العامة ..

لم يكن هذا الكتاب النقدى من جهة المبدأ مخصصا للباحثين المتخصصين وان المؤلف عندما أخذ فى الحديث عن شعراء الجاهلية نجده يخاطب بالأحرى صديقا وهميا كان فى بداية الأمر غريبا ومعاديا لكل اهتمام بذلك الفن البدوى القديم العسر الفهم الذى دالت دولته والذى أخذ طه حسين يرشده اليه على طريقة سقراط بين أشواك الغريب بأن جعله يتذوق على الأقل بعضا من الشعر القديم . هذا وان كل ذلك الجانب من مؤلفات طه حسين كما هو الحال بالنسبة لمعظم إنتاجه بعد كتاباته الأولى عن « أبى العلاء » يخلو خلوا تاما من كل خشونة وحذقة متصنعة لأنه كان يفضل أن يدخل مباشرة فى حديث فكه يتفق مع حساسية القارئ المتوسط وثقافته . ولعمري ان هذه البساطة دون ادعاء هى سر مقدرة هذا المؤلف السماعية العظيمة وتجاربه النقدية المرهفة وآرائه وأذواقه التى يقدمها الى جمهور من القراء أكثر أهلية من قراء الصحف ذوى الثقافة السطحية . هذا وان هواة الشعر وتقاده وكذلك مؤرخى الأدب

العربي الكلاسيكي لا يستطيعون أن ينكروا قيمة كتابات طه حسين مهما تكن درجة موافقتهم أو مخالفتهم لها ..

وعندما تحدث مؤلف كتاب « الأدب الجاهلي » عن الفحول (لبيد ، وطفه ، وزهير ، وعنترة ، وغيرهم) نجد انه قد أبدى شيئا من التحفظ حول صحة بعض الفقرات ، غير انه أظهر انه يعتقد بأنه نواة كافية لرسم صورة واضحة لكل شاعر من هؤلاء الشعراء الأقدمين . وحتى فيما يتعلق بالشاعر المثقب العبدى وهو يمثل صوتا صحراويا ضاع عنه كل أثر تاريخى فترى ان طه حسين الذى يعتبر من أتباع فلسفة « ديكارت » ومن أعداء التصوير يتوقف متأثرا لسماع صدى شعره ذلك الصدى العجيب الذى هو صدى حلو من أصداء الماضى البعيد ..

وعندما قام طه حسين بتحليل الشعر العربى فى عهد بنى أمية ظهرت أشد وضوحا روح النقد عنده اذ كان يميز بين صور الشخصيات التاريخية (فى البيئة البدوية والحضرية المزدوجة) وأبطال قصص الحب ثم مجنون ليلى ، ووضاح اليمانى .. ولكن ربما كانت آبدع الصور التى رسمها صاحبنا ، هى صور عشاقه المحدثين العباسيين الذين أخذ فى التحدث عنهم الواحد بعد الآخر والذين نجح عدد كبير من الصور التى رسمها لهم : مثل صورة أبى نواس التى رغم كونها بسيطة وجزئية تعتبر فى المقدمة – لا من حيث التاريخ الزمنى فحسب – بالنسبة للبحوث الكثيرة التى وضعت عن هذا الرجل الذى يعد صاحب مدرسة أدبية فى الشرق فى مدى عشرات الأعوام الأخيرة ..

وفى رأيه ان صورة بشار بن برد التى اتفق الجميع على مدحه لم يكن لها قيمة فى نظره لأنه كان شخصية غامضة كريهة لم تتجل مواهبها الا فى الهجاء . وقد سرد طه حسين فى لمسات سريعة حياة الشعراء ورجال البلاط السياسيين من أمثال مطيع بن اياس ، ومروان بن أبى حفصة ، وسعيد الحميرى الذين كانوا يتناوبون الاخلاص الفكرى تارة ، وأعمال النفاق تارة أخرى . وقد برز فى مقدمة سلالة المحدثين الثانية الشاعر العربى

اليوناني أبو تمام (الذي كان طه حسين يرى انه أكبر شعراء مدرسة القرن التاسع) وابن الرومي الذي هو أيضا من أصل يوناني الذي تجلت ثقافته الاسلامية اليونانية ، ولكن يجب أن نحذر المبالغة في تقدير هذا النفوذ العنصري أكثر من قدره . والأمير الشاعر ابن المعتز ..

هذا وإن نبوغ طه حسين وصفاء ذهنه الثقافي الغير العادي وميله للثقافة اليونانية وجدت لها فرصة للظهور أيضا عندما أراد كتابة تاريخ النثر العربي في الفترة الواقعة ما بين القرن الثاني والرابع الهجري وهو نثر رآه ينبع من العناصر الثلاثة : الوطن العربي ، والفلسفة اليونانية ، والثقافة الفارسية حتى عهد ابن المقفع الذي يعتبر عادة منشئ النثر العربي الفنى ، وإن ناقدنا يقدم عليه الكاتب العربي الأكثر اصالة عبد الحميد الذي يرى فيه أثر النفوذ اليوناني الذي تحدث عنه نظريا فيما بعد « في القدامى » ..

وعندما يتحدث طه حسين عن دور العنصر الفارسي في الحضارة والثقافة الاسلامية سرعان ما نشعر بألفته القليلة بها وبعطف أقل نحوها ولكن عندما يتعلق الأمر باللغة اليونانية تصبح من المؤسف كثيرا رؤية أبي العلاء الجديد هذا وهو يشتعل حماسة ويحتفظ بسيطرة الناقد الخبير كما رأينا ذلك (في الجزء الخاص بنقده للأدب المعاصر) بمناسبة ظهور ترجمة أحمد لطفى السيد العربية لكتاب « الأخلاق » . فانه بينما كان يصفق لهذه الترجمة أظهر عدم صحة ما جاء بها من آراء ومن مشابهات ومبالغات شعرية أثارت كثيرا من الجدل والمناقشة عند المصريين من محبي اليونانية الذين يربطون بين كل من هوميروس وارسطو . وإن تقييمه للمدرسة الفكرية في عهد الدولة العباسية في كتابه « حديث ... » وفي حاشيته قد أغفل أعظم شخصية من الشخصيات العربية في تلك القرون وهو آخر الشعراء الكلاسيكيين « المتنبى » الذي خصص له طه حسين في العام التالي لذكره الألفية التي احتفل بها احتفالا كبيرا في عام ١٩٣٦ مجلدا كاملا عنوانه « مع المتنبى » تتكون منه ومما كتبه عن أبي

العلاء وأجزاء كتابه « حديث ... » أقوى دعائم مؤلفاته النقدية . وإن كتابه هذا عن « المتنبى » على غرار كتابه الثانى عن شاعر المعرة يبدو كأنه أحاديث حرة وليست علمية عن حياة وأشعار أديب يعترف طه حسين انه لا يشعر بأنه من بين المفضلين عنده ..

وربما كان عدم تحيزه هذا قد سمح له بتحليل هذا الرجل ومؤلفاته تحليلًا دقيقًا وبعيدًا عن كل تحيز . ورغمًا من الاعتراضات الأولى على عدم وجود طريقة يسير عليها فى كتابه فإن هذا الكتاب سرعان ما تغلغل تغلغلًا عميقًا فى مشاكل سيرة هذا الشاعر وأصبح تكملة للأبحاث التى قام بها كل من « ماسينيون » و« بلاشير » ولو انه خالفهما بعض المخالفة . وهذا الكتاب هو بحث تاريخى وطوبوغرافى دقيق وبيئة تاريخية ازدهر فيه إنتاج ذلك الشاعر ، ويقسم ديوانه تقسيما دقيقا ، ويتابع تطوره وتقدم الهامه الفنى وتطوره أو بالأحرى تقدمه النفسانى والأدبى ..

كانت لدى المتنبى فى بداية الأمر رغبة شديدة فى الشهرة وفى معرفة ودراسة كل شىء جديد مما جعله يتصل بالأمرء القرامطة ويغامر بنفسه فى ذلك التنبؤ الغامض ، وقد انتهى الأمر بالمتنبى الى أن يقبل أن يعيش عيشة شاعر البلاط الذى يقدم مدائحه فى مقابل ما يتقاضاه عنها من ثمن ولقد وجد المتنبى فى شخص سيف الدولة بطل العروبة والاسلام المغوار - الحاكم الوحيد الجدير بما تجود به قريحته من مدائح وبأحسن جانب من الهامه - وبعد انقطاع صلته بالحمدانيين وجد البيئة التى يستغل فيها مهنته الشعرية فى مصر وفى الوطن العراقى وفى بلاد الفرس . وقد لاحظ طه حسين ان هذا البلد الأخير قد أوحى له باحساس مرهف بجمال الطبيعة وربما كان فى استطاعته أن يفتح أمامه آفاقا فنية جديدة لو لم تعاجله منيته المحزنة ..

ولقد كتب طه حسين فى هذا المجلد الخاص بالمتنبى بطريقة أكمل مما كتبه عن أبى العلاء نفسه قصة المقدرة على الاحساس والتعبير . ولا يجب على أحد أن يفسر حرفيا تصريحه النهائى الذى قال فيه : « اننى فى هذا

الكتاب قد قدمت صورة حقيقية لنفسى « أو يفهمه كما يمكن فهمه على انه موافقة تامة كاملة على موضوعه وعلى انه اتخاذ موقف فكرى وأخلاقى عندما قام بسرد تاريخ حياة بطل العروبة هذا الذى أخذ اسمه يسير من الآن فصاعدا فى طريق التدهور والانحطاط ..

هذا وان حديثه عن العزة العربية والاسلامية التى قلَّ وجودها فى انتاج طه حسين السابق يتذبذب بطريقة خاصة فى هذا الكتاب كما لو ان شاعر « الكوفة » قد نفث فى مؤرخ سيرته شرارة من أحسن جانب من جوانبه . وليس ثمة شك فى ان كتاب طه حسين عن المتنبى يسجل كما هو معروف لدينا أهم مرحلة من مراحل نشاط صاحبنا فى ميدان النقد اللاذع . وفى الأعوام التى تلت عام ١٩٤٠ ربما كان يبدو ان هذا النقد يسير فى المرتبة الثانية بعد المؤلفات التاريخية ومؤلفاته الخاصة بالتاريخ القصصى وبعد ما كتبه فى السياسة الثقافية وبعد ابداعاته الفنية الحرة ..

كذلك لا يستطيع الانسان أن يقدر أضواء وظلال مؤلفات طه حسين مستفيضة حق قدرها دون أن يكون على معرفة تامة بمادة الثقافة العربية الحديثة ومادة الاستعراب الحديث المزدوجة . وان النقد الأدبى عند طه حسين من بين معلوماته الثقافية هو تخطى الصور البلاغية التقليدية واستعراض ألفاظها ومعانيها وتحديد هذه الصور البلاغية وما فيها من استعارات مجازية. كانت التقاليد القديمة تقدر بها قيمة أى شاعر من الشعراء . وان هذه النظرة الشكلية للعمل الأدبى الذى يحتفظ مؤلف صاحبنا على غير قصد ببعض آثارها البسيطة قد حلت محلها للمرة الأولى فى العالم العربى دراسة الشخصيات الشعرية الفريدة والمدارس الفكرية والعوامل الاجتماعية التى تبدو أحوالها فى نظره توفيقا بين نفسانية « سانت ييف » وبين آراء « تايين » الاجتماعية . ولكننا نرى من اللازم أن نذكر ذلك عندما نتحدث عن هذه الأساليب النقدية الجديدة المنحدرة من أصل غربى ونحن على علم تام بالتراث الأدبى القومى القديم والحديث

هذا وان نقاد الأدب الشبان ، وحتى غير الشبان من أمثال أحمد ضيف ، وابنة الشاطيء ، وسهير القلماوى ، وغيرهم .. قد عاشوا تجربة طه حسين ولو ان كلا منهم قد اتخذ له فيما بعد منهجا خاصا وهى تجربة ادماج تيار جديد فى الحلقة المغلقة من حلقات التعليم الأدبى التقليدى والاتصال بعالم من عوالم الأفكار والقيم الداخلة ضمن اطار الأدب العالمى الذى كان الأدب العربى الذى بلغ شأوا كبيرا فيما مضى قد أخذ ينزل عنه رويدا رويدا ويبقى فى حالة من الجمود ..

كان تيمور وأخوه والعقاد والحكيم وغيرهم ، ممن برزوا فى عالم الكتابة والأدب فى عشرات الأعوام الأخيرة أشبه ما يكونون بالشعراء السوريين الذين تعلموا فى المدارس الأمريكية فى بداية هذا القرن وكذلك كان طه حسين موقظا للهمم التى كانت فى سبات عميق ومحيا للأدب ومكتشفا لأراض بكر لثقافة بلاده ولطرق أنسب ما تكون لانعاشها حتى ولو كانت هذه الطرق أكثر أهمية وتشابها فى ظواهرها وليست جديدة مبتكرة أو نتيجة جهد فكرى عميق ..

ولكن قد يكون من غير العدل قصر قيمة وعمل هذا الناقد على مجرد عملية تعريف مواطنيه بالآراء والأساليب الغريبة . واذا كانت المواد الفكرية التى استعان بها فى نقده الأدبى هى كلها غريبة فان طرق تطبيقها على الأدب القومى كانت من مبتكراته . وان النتائج التى توصل اليها كان فيها أغلب الأحيان معونة صادقة وأصيلة لتاريخ الأدب العربى ولها قيمتها أيضا بالنسبة لعلم الاستعراب الأوروبى . وانا عندما استعرضنا أعمال طه حسين الكثيرة فى ميدان النقد أشرنا الى بعض هذه النتائج التى هى فى نظرنا نتائج ايجابية الى حد ما . ومن هذه النتائج إعادة تقدير الروايات القديعة التى كان قد شكك فيها وتحديد ملامح بعض الفحول من أمثال شعراء المملكات وأنسابهم ..

أما فيما يتصل بالعهد الأموى فان طه حسين بما أبداه من الاهتمام بصور بعض شعراء الغزل الثانويين من أمثال : عبيد الله بن قيس ،

والأحوص ، ويزيد بن الططري ، وكثير ، وغيرهم ، وبمسألة العلاقات بين تاريخ الغزل والأشعار الماثورة عن أصحابها بوجه عام .. وقد سبق في هذا الميدان جميع الأبحاث التي قام بها كراكوفسكى وبلاشير ..

هذا وإن الصفحات التي خصصها طه حسين لعدد كبير من شعراء العصر العباسي حتى ولو كانت جزئية ومكتوبة على الطريقة التأثرية يمكن القول بأنها لا تزال حتى اليوم المحاولة الأولى لتحديد صورهم وتقدها ..

على أن مئات الصفحات الكثيرة الأخرى التي خصصها للشاعرين الكبيرين المتنبي وأبي العلاء من شعراء القرنين العاشر والحادي عشر ليست جزئية ولا مكتوبة على الطريقة التأثرية رغما من طرقها وأساليبها الكلامية . وإن الأبحاث التي وضعت عن أبي العلاء في الوقت الحاضر حتى في بلاد الغرب لم يستطع واضعوها أن يهملوا كتابات هذا الناقد المصري التي استندوا إليها وأدججوها ضمن المراجع الخاصة بهذا الموضوع للاسترشاد بها عند كتابتهم عن شاعر المعرة كما سبق أن أشرنا الى ذلك ..

على أن أبحاثهم هذه كانت أقرب ما تكون الى تفسيرات جزئية منها الى دراسات عميقة للفن والفكر ، عند أبي العلاء . تلك الدراسات التي ربما كان طه حسين لأسباب متعددة هو صاحب الأهلية الوحيد للقيام بها قبل أي انسان آخر ..

أما فيما يتصل بالمتنبي (وأرجو أن يسمح بالكلام في ذلك لمن جرب أسلحته الأولى في الاستعراب بدراسة هذا الشاعر العراقي بالذات) فإن الكتاب الذي وضعه طه حسين يبدو لنا انه كتاب أساسي أصيل ، ويمكن أن يوضع في صف واحد مع الكتاب الذي وضعه بلاشير ..

ومما يستحق الذكر ان كتاب الناقد المصري الذي هو من أحسن ما كتب ، يمكن أن يقال عنه بحق انه أصح وأفضل إنتاج عرفه علم الاستعراب ..

ومما لا شك فيه ان أحدا من مؤلفاته لم يصل دائما الى مستوى أرفع من هذا المستوى الرفيع فإن بعض مؤلفاته (ابتداء من كتابه الشهير الذي

وضعه عن الشعر الجاهلي وكذلك عن درجة أثر النفوذ الاغريقي في العهد العباسي (بدت في نظر العلماء المستشرقين منذ اللحظة الأولى غير مقبولة لأسباب أخرى غير تلك « الفضيحة المعروفة » وغير رفض البيئة المصرية لها . كما ان بعض مؤلفاته هي بمثابة نياشين عظيمة وتحتوى على صور لعدد من الشعراء كان المستشرقون أقل اقتناعا بها وكانت تبدو في نظرهم مؤلفات كتبت على عجل ودون سند ..

هذا كما ان بعض المسائل الأساسية الخاصة بالأدب العربى كمسألة تمييز الطابع والمحصل الفردى في بعض المصطلحات والأساليب التى كانت فيما مضى جافة لا يبدو ان هذا النقد الحديث قد تعرض لها أو تحدث عنها ولو انه كان أكثر تفوقا من النقد القديم ..

ولكن كتابات طه حسين فى النقد فى نطاق تلك الحدود الواسعة تمثل فى نظرنا ذروة البعث الفكرى العربى ، وتقدم معاونة صادقة كبيرة لدراسة هذا الأدب العظيم دراسة علمية ..

ونحن لا نستطيع أن نختم هذا البحث السريع دون أن نشير الى منهج طه حسين الخاص فى النقد ، والى لغته — أى أسلوبه — اللذين يرى أنهما ليسا امتياز هذه الشخصية الفريدة وفضلها الأخير ..

وان من يقول بأن النشر الذى كتب به طه حسين مؤلفاته النقدية ، هو أنموذج فى الأناقة لانسيا به ووضوحه ، وأنه لم يظهر ما هو أحسن منه فى كل ما كتب بالعربية فى الوقت الحاضر فانما يقول شيئا معروفا حق المعرفة ويعلمه أى انسان ممن يقرأون لهذا الكاتب ..

ويمكن القول بأن طه حسين قد حقق معجزة من المعجزات وهى انه نقل الى لغته القومية تلك الأناقة والوضوح والشفافية التى امتازت بها اللغة التى نستطيع أن نطلق عليها اسم لغته الثانية أى اللغة الفرنسية التى يعرف الجميع انه يتقنها. كل الاتقان كأستاذ فيها وهذا دون أى مساس بروج اللغة العربية ودون أن يعرض نفسه لتهمة الخروج عن قواعدها أو بث العجمة والكلمات الأجنبية فى مفرداتها . وان لغته النقدية بينما تبتعد عن

كل حذقة وعن كل خشونة بربرية تنساب في بساطة وسهولة عجيبة . وفي عبارات لطيفة ورقيقة لا تتعارض مع ما في ثره الفنى من ثروة وتنوع (ونذكر على سبيل المثال كتابه على هامش السيرة وأجزاء كتابه الأيام) دون أن يعتمد على الكلمة في التعبير مكتفيا بالأثر الذى يشع عن الفكرة المجردة ..

وإذا جاز لأى شخص غير عربى الحكم على اللغة العربية وأسلوبها فانى أرى ان لغة طه حسين وأسلوبه النقدى تتمثل فيهما الأناقة البالغة التى اشتهر بها اليونانيون في نطاق صور تقليدية تميل الى الأسلوب المسمى بالأسوى ..

وان الصفحات التى كتبها طه حسين هي في حد ذاتها في أغلب الأحيان عمل فنى رائع . ويكفى أن نذكر من بعض الأمثلة الكثيرة على ذلك مثلين أولهما حديثه مع أبى العلاء الذى كتبه أثناء اقامته على شواطئ خليج نابولى الذى لم يستطع أن يرى جماله وانما استمتع بهوائه . وثانيهما تلك الصورة الحية التى رسمها لأبى العلاء والتى تذكر كل ايطالى بالمقطوعة الشعرية التى كتبها الشاعر الايطالى ليوباردى التى تحدث فيها عن ذلك الشيخ الأبيض الذى أقعده المرض ..

كان قد طه حسين حتى أثناء شبابه الغض معركة رابحة في سبيل النهضة الفكرية والأدبية ولتوسيع آفاق ثقافته القومية وفي سبيل حرية الفكر المطلقة من كل التزام ومن كل أفكار اجتماعية أو سياسية أو دينية سابقة وربما كانت كل هذه المواقف التى اتخذها الأستاذ الجليل أيام شبابه وأيام نضوجه لا تطابق الآن أفكاره وسلوكه بعد أن تقدمت به السن .. على ان قيمة هذه المعركة بقيت في نظرنا كما هي . كما اننا لم نغير احترامنا وحبنا له وتحياتنا التى تتقدم بها اليه مع هذه الصفحات حتى ولو لم تخل من بعض النقد المؤدب ومن بعض التحفظات .. وقد يبدو لنا اننا نخفض من هامته الفكرية العالية اذا ما اكتفينا بأن نوجه اليه مجرد تقرظ ممل ..

في الشعر الجاهلي نظرة أم نظرية؟

د. أحمد كمال زك

اصالة وذكاء وارتباط بالعلم على قاعدة ديكرتية . هذا هو
الدكتور طه حسين ، الباحث والرائد الانساني في أدبنا
وفكرنا المعاصرين .. غزا ميادين العلم والفن ، ليرسي دعائم
نهضة قوامها التحرر من التقاليد ما كانت تؤذن هذه بجمود وتقتل
روح التطور ..

وعلى الرغم من انه خلف آثارا تاريخية وفنية وفلسفية وتأملية ونقدية
تعتبر من أساسات ثقافتنا ، فمن المؤكد ان أهم تلك الآثار كتابه « في
الشعر الجاهلي » الذي صدر عام ١٩٢٦ وكان حلقة من حلقات البحث
في قيمة تراثنا الشعري .. بدأها محمد بن سلام الجمحي المتوفى نحو عام
٢٣٢ هجرية ، وشارك فيها من بعده عبر القرون أقطاب الثقافة العربية
كأبي الفرج الأصبهاني ، والسيوطي ، ثم أمسك بها المستشرقون ، فطه
حسين ..

وليس يعني ما بين ابن سلام والمستشرقين .. فهو ترديد لكلام قيل ،
وتسليم بآراء وضعت حتى كأنما الأمر انتهى بيقين مطلق ..
وانما يعني نشاط المستشرقين لا من حيث انه كان كشفا ، ولكن من
حيث انه كان دعما لكشف قديم .. اما جريا وراء حقيقة ، واما رغبة في
هدم صرح من الصروح ..

والواقع ان الدكتور طه حسين دخل ميدان الشعر العربى كباحث وفى أذنيه يتردد ما اعتاد أن يقوله كل من « نولدكه » و « مرجليوت » وهو ان ما يضاف للعرب قبل الاسلام من شعر ليس لهم ، وانما لجماعة من المزيين قالته ونحلتها طائفة من الشعراء عاشوا فى العصر الجاهلى وردد المسلمون من بعدهم أسماءهم وتفا من أقوالهم ..



وفى عام ١٩٢٥ ، أى قبل أن يصدر طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » نشر « مرجليوت » فى مجلة الجمعية الآسيوية بحثا بعنوان « نشأة الشعر القديم » ينكر فيه صحة هذا الشعر معتمدا على ما ورد فى كتب من جاء بعد ابن سلام ، تاركا كتاب ذلك الرائد الذى كان متداولاً اذ ذاك .. فقد طبع فى ليدن بعنوان « طبقات الشعراء » سنة ١٩١٣ — ١٩١٦ ، بتحقيق يوسف هل ، وأشار اليه قبل طبعه بأعوام كل من الرافعى ، وجرجى زيدان ..

هذا يعنى ان قضية التزييف — ولنطلق عليها منذ الآن قضية « النحل » أو « الوضع » — كانت معروفة عندما شرع الدكتور طه حسين مع المستشرقين فى تقييم شعرنا القديم . ويبدو انه انتفع بكتاب ابن سلام أكثر مما انتفع به أحد من قبله ، وقد ظهر ذلك فى محاضراته التى كان يلقيها ، ثم فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » ..

ولقد أحدث ذلك الكتاب ضجة هائلة ، وأثار رجال الدين ، وهز وزارة المعارف والبرلمان والصحافة ، ووضعت الكتب بأقلام كبار دارسى العصر — كالشيخ محمد الحضرى — لمناقشته والرد عليه مصرحين بأن فيما ذهب اليه ذلك الباحث الذى عقدوا عليه الآمال « أغلاطا كثيرة » يرجع بعضها الى طريق الاستنتاج العلمى ، وبعضها الى عدم الدقة فى النقل ، وبعضها الى قصور فهم التاريخ .. !

وكانت الحملة من العنف بحيث اضطر الدكتور طه حسين الى تعديل آرائه — بخاصة ما عرض منها للدين — وأعاد طبع الكتاب عام ١٩٢٧

بعد سحبه من السوق ، ووضع له عنوانا جديدا هو « في الأدب الجاهلي »
حاذفا منه أشياء ، ومضيفا اليه أشياء أخرى دون أن يغير نظره الى
الشعر القديم ..

وعلى الرغم مما جد من جديد بعد ذلك ومناداته هو عام ١٩٣٥ — على
صفحات « الجهاد » — بما يعتبر تغييرا لهذه النظرة فقد طبع « في الأدب
الجاهلي » عدة مرات آخرها عام ١٩٦٤ بلا أى تعديل ..
لماذا ؟ ..

لا يمكن أن تقترح سببا بعينه ، فالسبب الحقيقي عند طه حسين نفسه ،
ولكننا نرى انه في ثباته على الفكرة يرفض التنازل عما قد يخل بنظرة
ترقى الى أن تكون نظرية متكاملة .. فما تلك النظرية ؟ ..

نستطيع أن نحدد خطوطها العامة بأن العرب الجاهليين كان لهم شعر
في فترة مبكرة جدا نجهل نحن فيها أولياته وطريقة نموه ، ويصعب علينا
أن تقبله بصورة لغوية واحدة لأن الجزيرة العربية جمعت الى جانب
اللغة اليمانية أو الحميرية بلهجاتها المختلفة لغة العرب الشماليين وهي
العدنانية بلهجاتها المختلفة أيضا ..



ولما كان فيما يروى من شعر جاهلي ما هو منسوب ليمانيين كأمريء
القيس فلماذا أتاننا بلغة عرب الشمال العدنانية ؟ .. ألم يقل أبو عمرو بن
العلاء المتوفى في القرن الثاني الهجري : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم
بلغتنا ؟ ..

لقد ساق الدكتور طه حسين تلك العبارة بهذا النحو الذي أثبتناه ناقلا
اياها عن كتاب ابن سلام كما يقول ، وكذلك نقل كل الأقوال التي تدعم
نظريته ..

وانتهى الى ان « الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من
الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة بعد ظهور الاسلام وان ما
تقرؤه على انه شعر أمريء القيس أو طرفة أو ابن كلثوم وعنترة ليس من

هؤلاء في شيء ، وإنما هو اتحال الرواة أو اختلاق الاعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين » ص ٦٣ في الأدب الجاهلي ط . عام ١٩٣٣ ..
بهذه القولة الموجزة قطع طه حسين بكل شيء ، وكان ابن سلام من ورائه يمدد بكل ما يريد ..

وقد اعترف هو بأنه قرأ كتابه وتأمل آراءه وصاحبه طويلا ، وكان يستشهد به دائما وباطراد ملح . وبالمقارنة بين الرجلين السلف والخلف نراهما يجمعان على أن في الشعر القديم المروى مفتعلا موضوعا لا خير فيه ولا حجة في عريته ، ويعترف الأول بكثرة هذا الموضوع المفتعل في حين يعمم الثاني حتى يجعل المفتعل هو الأغلب ..

كما يجمعان على أن كثيرين « أفسدوا الشعر » أي زيفوه ، ومن هؤلاء حماد الراوية ، وخلف الأحمر .. وبلغت الغفلة بفريق من العلماء كمحمد ابن اسحق بن يسار عالم السير المشهور أن أثبتوا المزيف في كتبهم ، وقد اعتذر عنه ابن يسار بقوله : « لا علم لي بالشعر ، أوتى به فأحمله » ..



وإذا كان ابن سلام قد أوجز في حديثه عن العوامل الداعية إلى الوضع ، فإن طه حسين أطال وعلل وقسم وبوّّب ، جاعلا نقطة البداية للغة من حيث هي فيصل في الحكم ، وأما ما عدا ذلك فأسباب الوضع تقوم على قاعدة أن المسلمين عندما تشاغلوا بالجهاد « لهوا » عن الشعر وروايته فلما عادوا إليه بعد الاستقرار رأوا أنهم نسوه ، ومن ثم راحوا يؤلفونه وينحلونه للجاهليين ..

وتحتل « أسباب اتحال الشعر » صفحات ضخمة من كتاب الدكتور طه حسين بعد أن قدم لها بفكرة عامة هي أن الاتحال ليس مقصورا على العرب . وهذه الأسباب هي السياسة والدين والقصص والشعوية ورواية القديم ، وشفع كل سبب بروايات متعددة ..

ففي السياسة مثلا نرى العصبية التي كانت بين قریش والأنصار تجعل

واحدا كالنعمان بن بشير يقول شعرا فتضاف اليه أقوال من تزيف الشيعة ، ومن ناحية أخرى راحت قریش نفسها تستكثر من الشعر في الاسلام بعد أن تبين لها قلة رصيدها الجاهلي منه ..

وفي الدين لم تكن العواطف ازاءه أقل من العواطف السياسية أثرا في وضع الشعر ونحله للجاهليين ، حتى لقد وضع الشعر على الجن باسم الدين لارضاء حاجات العامة الذين يطلبون المعجز والغريب . ومن هنا راح القصاصون — معتمدين على الآيات التي ذكرت الجن — يخترعون ما شاء لهم خيالهم أن يخترعوا ..

وفي جانب آخر نرى على سبيل المثال ان العرب عندما تسلطوا على غيرهم وقاموا بتقديم القرآن للأمم المغلوبة ، راحوا يضعون ما يفسر لهم ألفاظه وعباراته عندما لا تسعفهم الرواية الصحيحة ..

وفي القصص الذي تأثر بالسياسة والدين نرى أن طبيعة العربي الذي تهفو نفسه الى الشعر كانت تلح عليه في أن يضيف الى أبطال الجاهلية كنبع الحميري ، وجذبة الأبرش ، ومضاض الجرهمي أشعارا عربية ، بل قد تضاف الى عاد وثمود مثل هذه الأشعار التي أنكرها ابن سلام واعترف بسماجتها وقال عندما أثبت اعتذار ابن يسار عن اثباته الشعر الموضوع في كتابه : ولم يكن ذلك له عذرا .. !



وفي الشعوية نرى الكثير ، فقد أنطق الموالي — كيدا وغلا — عرب الجاهليين بكثير من ثر الكلام وشعره .. فيه كما يقول طه حسين مدح للفرس على لسان واحد كالأعشى الذي زار كسرى وآخر كعدى بن زيد وثالث كلقيط بن يعمر ، الخ .. ووجد من الشعوية علماء كخلف وحماد وأبي عبيدة معمر بن المثنى من كان يكره الجاهليين حتى ليحمل عليهم حملا ما لم يقولوه قط ، فضلا عن نحل القديم الثابت روايته عندهم الى من لم يثبت انه صاحبه وقائله ..

وفي رواية القديم نرى ان أغلب حملته كانوا من أمثال خلف وأبي

عبيدة ، وهؤلاء كانوا على درجة من سوء الخلق والكذب وحب اللهو والمجون فقدوا عندها الأمانة العلمية والاخلاص العلمى.. فهم يشوهون ، وهم يزيدون ، حتى قال أحد المخلصين القدماء : العجب لمن يروى عن حماد ، كان يكسر ويلحن ويكذب ..

والواقع ان هذا كله لم يكن خافيا على القدماء ، وقد تنبهوا الى خطورته حتى أننا لا نكاد نرى عالما من علماء القرن الثانى أو الثالث يروى شيئا دون أن ينص على حظه من الصدق ..

فالاصمعى تثبت ، ويروى ما يؤمن بقوة سنده وسلامة مضمونه ، ويعترف بأنه عندما كان فى المدينة لم يجد الا المصحف المصنوع من الشعر ، وقال بصراحة : أكثر شعر مهلهل - وهو من أوائل شعراء الجاهلية - محمول عليه ..

وأبو عبيدة عندما يتجرد للحقيقة ينحو هذا النحو ، فيعلن أن بعض الأنصار حمل على امرئ القيس أقوالا بعينها ، وان بعض الأبيات التى تنسب لصعصعة بن معاوية السعدى تروى فى الوقت نفسه لحارثة بن بدر - وهذا هو المعنى الدقيق لكلمة النحل - وان الأبيات الخمسة التى تروى فى « الطيرة » منسوبة للحارث بن حلزة لم ترد فى قصيدة كاملة كما تصور رواة عصره فقد صنعها الموالى فيما صنعوه ..



واذن فالدكتور طه حسين يبدو محقا فى كل ما يصدر عنه ، بل لا بد فى هذا الحال من أن نسلم معه - على الأقل - بعدم وجود شعراء يانين « ١٩٢ فى الأدب الجاهلى » لاختلاف اللغة أولا ، وبشبهة الوضع بعد ذلك إذا صحت اللغة . ولكن هل يكون ذلك هو أصح ما ينبغى أن نأخذ به ؟ ..

أظن لا ..

لأن الدكتور طه حسين نفسه لا يرفض الشعر الجاهلى كله .. فهو يقبل الشعر المضرى منه وان يكن يشك فيه للاحتياط « ٣٦٠ فى الأدب

الجاهلى « على أساس انه لا يجد فيه مصاعب لغوية يراها عند شعراء
ربيعه واليمن ، ولأن قضية اللغة اليمانية نفسها ليست بالابعاد التى
تصورها . ونضيف الى ذلك ان ما قيل عن الوضع والنحل كان من
الشمول والدقة بحيث لا يمكن أن نرفض ما أجمع الأولون على صحته
حتى وان كان هذا لشاعر يمانى ..

والواقع ان الدكتور طه حسين برغم سعة أفقه واصالته وقدرته على
البحث فاته الحرص المطلوب ، حتى ليقع التحريف فيما يسوق من أقوال.
وأهم صور هذا التحريف ما جاء فى رواية أبى عمرو بن العلاء التى
أثبتناها كما أثبتنا هو فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » .. وبالرجوع
الى كتاب ابن سلام نرى الرواية تساق على النحو التالى : ما لسان حمير
وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعريتنا ، فكيف بما على عهد
عاد وثمود مع تداعيه ووهيه ؟

وتعنى الرواية ان لغة حمير وأقاصى اليمن أيام أبى عمرو فى منتصف
القرن الثانى الهجرى انحرفت عن طريق اللغة التى يكتب بها العلم
والأدب ، وهذا شئ طبيعى جدا تعرفه اللغات عندما تتسع رقعتها
وتختلف بيئاتها التى تنزل فيها ..



ومن المؤكد ان الخلاف اللغوى الذى وقع بين اليمانيين وغيرهم — وقد
ساق الدكتور طه حسين أدلة له فى كتابه — لم يكن خلاف عصر واحد ،
وانما كان خلاف عصور تطور خلالها اللسان العربى من صورة تبدو
لنا غريبة اليوم الى الصورة التى نعرفها ، وهو لا يعنى خلافا بين
الشماليين والجنوبيين بقدر ما يعنى خلافا بين شتى القبائل العربية عدناية
كانت أو يمانية ، ونجم عن ذلك وجود اللهجات العربية ..

وهنا يجب أن نقرر ان القبائل اليمانية نفسها لم تستقر قط فى تلك
الحدود التى ترسم اليوم لليمن والتى عرفت قديما باسم « يمنت » وتدخل
فيها عدن وحضرموت ، ورأينا كندة اليمانية مثلا — وهى قبيلة امرىء

القيس - تستقر في العروض بالشمال وخزاعة في مكة وقبلها جرهم .
والاوس والخزرج في المدينة . كما رأينا بعض هذيل وكنانة يتوغل في
أرض يمانية جغرافيا ، ويجتمع في العراق والشام من الشمال والجنوب
بطون وعشائر لعبت دورا خطيرا في حركة الفتح الاسلامي العظيم ..

وقد لحظ علماء اللغة ذلك فيما يبدو ، حتى ان واضع مادة اللغة
السامية في دائرة المعارف البريطانية لم يفرق بين سامية الشمال وسامية
الجنوب ، في حين فرق بين سامية الجزيرة كلها وسامية الشام أو سامية
العراق ..

وان يكن هذا يعنى شيئا فليس أكثر من ان عامل اللغة لم يكن
بالخطورة التي قدرها الدكتور طه حسين .. فقد وجدت لغة أدبية واحدة
بجانب اللهجات التي تتباعد فيما بينها كثيرا ، وهذه اللغة الأدبية كانت
مزدهرة في الفترة التي اكتملت فيها للقصيدة العربية أسبابها الفنية من
عروض وإيقاع وصياغة وموضوعات . ومن هنا لا يكون غريبا على
واحد كامريء القيس أن ينشد بها شعره كما أنشد بها أي شاعر من
مضر ، وكما اعتاد أن ينشد بها شعراء ربيعة الذين كانوا يجاورون كثيرا
من القبائل اليمنية ..



فاذا انتقلنا الى الشق الآخر من النظرية رأيناها في الحقيقة دعوة الى
التثبت والاحتياط أكثر منها دعوة الى الانكار ، وجاء أغلب استشاداته
على أسباب الوضع عن شعر اسلامي . فضلا عن انه أورد أقوالا نسبها
الى ابن سلام وهي لا توجد في كتابه ، من ذلك كلامه عن قریش الذي
لخصناه له من قبل وصرح الرافعي في كتابه « تحت راية القرآن » بأنه
ليس فيه ، ومنه أيضا ما رواه عن عدي ولقيط - وقد عرضناه - فأننا
لا نراه عند ابن سلام في الموضع الذي قدره هو بل لا نراه في أي جزء
من أجزاء الكتاب ولكنه مع ذلك انتفع بأقوال ثابتة منها قول ابن سلام :
« وكان قوم قلت وقائهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع

والأشعار ، فقالوا على ألسنة شعرائهم ، ثم كانت الرواة فزادوا في
الأشعار التي قيلت ..

وهنا يجب أن نحتاط فنكمل العبارة بقول العالم القديم : « وليس
يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون »
٤٠ طبقات فحول الشعراء ، ط . المعارف عام ١٩٥٢

واذن فلا ضرر .. فهناك شعر جاهلي زيف بعضه وعرف هذا البعض
علماء الأدب ، فلماذا يعاد القول فيه ؟

أما بالنسبة للمستشرقين فالهدف يّئن ظاهر ، وبالنسبة لعميد الأدب
كان الموضوع مجالا يحاول أن يبرز فيه مؤكدا انه كعربي لا يمكن أن
يكون دون مرجليوت الأجنبي في الاستنباط والاستنتاج والتوسع في
فهم دلالات الأخبار ..

ومن جانب آخر استخدم لأول مرة المنهج الفلسفي الذي استحدثه
ديكارت « للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث » ..
وكل هذه من غير شك جهود ان لم تكن كثيرا في وضع نظرية ، علمت
أسلوب جمع الحقائق وتوثيقها وازجاء المقدمات - برغم السلبية التي
تلعب فيها عبارات « ربما » و « لا يبعد » و « ليس ما يمنع » دورا ما -
قبل اعلان النتائج التي تأسر القارئ وتشل ملكاته ..

طه حسين والأحزاب السياسية

رجاء النقاش

كان طه حسين منذ بداية حياته الفكرية في عام ١٩٠٨ تقريبا رجلا من رجال الأدب والفكر ، قبل أن يكون رجلا من رجال السياسة .. ولذلك فنحن اذا بحثنا في كتبه التي تحدث فيها عن تاريخ حياته وتجاربه ، وأهمها كتاب « الأيام » فاننا لا نجد فيها شيئا عن طه حسين السياسي ، لا نجد فيها شيئا عن علاقاته بالأحزاب المختلفة ورجال هذه الأحزاب ، وانما كان طه حسين حريصا في « الأيام » وفي كتبه التي تحدث فيها عن نفسه على أن يحدثنا عن تطوره الوجداني والعقلي ، وعن التجارب النفسية المختلفة التي صنعت منه هذا الشخص العظيم الذي نسميه طه حسين ..

ولذلك كان كتاب « الأيام » ، خاصة جزؤه الأول ، أقرب الى الشعر منه الى النثر .. انه تاريخ شعري عاطفي لطه حسين .. وليس فيه من تجاربه العملية ، ومعاركه الواقعية الا القليل اليسير ..

والسبب الأكبر في هذا كله ، كما قلت ، ان طه حسين كان أديبا ومفكرا بالدرجة الأولى ، وهو عندما دخل السياسة « منذ كان في العشرين من عمره أو حتى قبل ذلك » لم ينس أبدا انه دخل هذا الميدان الصاخب العنيف كأديب ومفكر ، ولم يدخله كسياسي محترف للسياسة ..

ومن هنا لم تفرض القوى السياسية التي ارتبط بها طه حسين عليه طابعها الخاص ، بقدر ما ترك هو طابعه على هذه القوى واستفاد منها بخدمة أفكاره وقضاياها التي كان يؤمن بها بطريقته العنيفة الحارة المتطرفة في الايمان بالأشياء ..

وهذا الحرص على الجانب الأدبي والفكري في حياة طه حسين وكفاحه الطويل ، هو الذي جعل لطه حسين شخصية مستقلة حتى في أشد أيام ارتباطاته بالأحزاب ، وفي أعرق لحظات اتصاله بها ..

ولنترك هذا الحديث النظري ، ولنبحث — مباشرة — في قضية طه حسين والأحزاب السياسية .. لقد حدث أول ارتباط بين طه حسين وبين الأحزاب السياسية في أوائل هذا القرن . وكان الحزب الذي ارتبط به طه حسين في هذه التجربة السياسية الأولى هو حزب « الأمة » ..

وكان الذي جذب به الى الحزب هو شخصية لطفي السيد ، أكبر رأس مفكر في الحزب ، ومحرر صحيفة « الجريدة » التي تنطق بلسان الحزب والتي أسسها الحزب في عام ١٩٠٧ برأس مال قدره عشرون ألف جنيه .. ومن هنا لم يكن ارتباط طه حسين بهذا الحزب الرجعي ، الذي يمثل كبار الاقطاعيين والأغنياء ، راجعا الى انتكوين « الاجتماعي » للحزب .. فلم يكن طه حسين منحدرًا من أسرة غنية ولم يكن بعيدًا عن مشاعر الطبقات الشعبية الفقيرة ، فهو نفسه قد خرج من أسرة متوسطة أقرب الى الفقر منها الى الغنى .. ولكن طه حسين ارتبط بحزب « الأمة » لسبب فكري واضح .. فقد كان طه حسين في ذلك الحين طالبًا في الأزهر ، وكان ميالا — نتيجة لتفتح ذهنه العجيب — الى الآراء المتحررة المتجددة في الأدب والحياة ..

لقد كان يعيش في بيئة الأزهر الدينية المتحفظة ، وهو أقرب ما يكون الى التيار الذي خلقه محمد عبده .. ولم يكن هذا التيار المتحرر المتفتح هو التيار الغالب في ذلك الحين ، بل كان تيارًا مغلوبًا يكافح ويناضل من أجل الانتصار وكسب المواقع المختلفة .. وكانت أقرب بيئة خارج الأزهر

الى عقلية طه حسين المتفتحة الثائرة البعيدة عن الجمود والتزمت ، هي تلك البيئة التي خلقها لطفى السيد في مصر عن طريق « الجريدة » لسان حال حزب « الأمة » ..

لقد كان لطفى السيد أكبر عقل مثقف ثقافة غربية في مصر في ذلك الحين .. لقد تعلم في أوروبا ، وعاد الى مصر مقتنعا بالثقافة الغربية اقتناعا عميقا ، وأراد أن ينقل هذه الثقافة الى مصر ، أو بالأحرى أراد أن يجعل مصر تتجه وجهة غربية عصرية في ثقافتها الجديدة .. في العلم والسياسة والمجتمع ..

ولم تكن طريقة لطفى السيد في الدعوة الى آرائه طريقة عنيفة ملتبهة ، بل كانت طريقة هادئة ، تهدف الى الايضاح والتنوير وانتهاز الفرص المناسبة ، أكثر مما تهدف الى توجيه « صدمة » فكرية وروحية الى الجماهير بشكل أو بآخر . واستطاع لطفى السيد بأسلوبه المعتدل المطمئن الى نفسه المتمكن من أساسه الثقافى أن يخلق جزيرة فكرية في مصر .. جزيرة ترحب بالتجديد الفكرى والاجتماعى والسياسى ..

ولقد كانت هذه الجزيرة الفكرية التي خلقها لطفى السيد هي تقريبا الجزيرة الوحيدة الموجودة في البيئة المصرية والتي تنبع من البيئة المصرية نفسها ، فلقد كانت هناك جزيرة أخرى متحررة تدعو الى الثقافة الغربية وتؤمن بها وكانت هذه الجزيرة تتمثل في المثقفين الشوام أمثال : يعقوب صروف ، وشبلى شميل ، وفرح انطون ، وغيرهم .. ولكن هؤلاء لم يكونوا محتكين بالبيئة المصرية احتكاكا عميقا ، ولذلك ظلوا غرباء عنها ضعفاء في التأثير عليها ..

أما لطفى السيد فقد كان له تأثيره الفكرى الواسع ، لأنه ابن البيئة المصرية النابع منها العارف بمشاكلها معرفة دقيقة ..

ووجد طه حسين في لطفى السيد ، وفي التيار الفكرى المتحرر الذى خلقه لطفى السيد بيئة ملائمة تماما لفكره .. لعقله الذى يضيق بالبيئة المحافظة فى الأزهر ويصطدم بها كل يوم ..

لم يكن هناك أحد يمكن أن يقبل آراء طه حسين المجددة ، ورغبته في تطوير الأدب والفكر ، أعظم من لطفى السيد . ولم يكن لطفى السيد يكتفى بقبول آراء طه حسين وافساح صدره لها بل كان يشجعه على هذه الآراء تشجيعا واسعا عميقا ..

ولابد أن نقف هنا لحظة لنلاحظ نوعا من التناقض الغريب في داخل حزب « الأمة » ، فلقد كان الحزب كجهاز سياسى حزباً رجعياً شديداً الرجعية ، يميل الى مهادنة الانجليز والتعاون الهادىء معهم ، وكان الحزب يرفض رفضاً قاطعاً أى ارتباط بالأتراك أو التعاون (كما كان الحزب الوطنى يدعو فى ذلك الحين) .. كان حزب « الأمة » اذن حزباً رجعياً .. وكان من الناحية الفكرية حزباً مغلقاً لا تكاد تكون له مبادئ واضحة ، ولا يكاد يكون له منهج ذو قيمة أو أهمية .. ومع ذلك (وهنا التناقض) استطاع لطفى السيد وحده من بين أعضاء هذا الحزب أن يخلق تياراً فكرياً واسعاً ، كان من الواضح ان حزب « الأمة » نفسه لا علاقة له بهذا التيار ..

وهكذا .. كان هناك انفصال بين السياسيين الذين يكونون الجسم الأساسى للحزب ، وبين هذا المفكر النشط الذى يكون وحده تياراً خاصاً به وهو لطفى السيد .. ويجمع حوله عدداً كبيراً من المثقفين ..

كان هناك اذن تيار سياسى فى حزب « الأمة » خافت ، لا أثر له ولا شعبية ، بينما كان هناك تيار آخر هو تيار فكرى منتسب بالدرجة الأولى الى لطفى السيد .. ربما لا يحس به أعضاء حزب « الأمة » أنفسهم ، فهؤلاء كان لا يعينهم الا أن يحافظوا على مصالحهم ، حيث ساءهم لطفى السيد باسم : أصحاب المصالح الحقيقية ! ..

فطه حسين اذن قد ارتبط بحزب « الأمة » من خلال التيار الفكرى لا من خلال التيار السياسى .. لقد ارتبط بالفكر الحر المتفتح على الثقافة الغربية .. وكان طه حسين ثائراً على الفكر المحافظ فى الأزهر وخارج الأزهر ، وكان يبحث عن مأوى لأفكاره المتحررة الثائرة ووجد هذا

المأوى بوضوح في التيار الثقافي لحزب « الأمة » ..
 وفي اعتقادي انه لولا لطفى السيد واتجاهه الفكرى المجدد المتحرر
 لما ارتبط طه حسين بحزب « الأمة » ، فلقد كان الدافع الأساسى لهذا
 الارتباط دافعا فكريا ولم يكن دافعا سياسيا بحال من الأحوال ..
 ونحن لا نجد فى انتاج طه حسين الفكرى فى هذه الفترة المبكرة من
 حياته أى ميل الى تأييد الاقطاعيين والنظام الاقطاعى الذى كان يمثل
 حزب « الأمة » من الناحية السياسية والاجتماعية .. لم يكن طه حسين
 مؤيدا للاقطاع والرجعية ، بل كان « لاجئا » الى جزيرة الفكر الحر
 الجديد فى شخصية لطفى السيد الذى كان - بالمصادفة - من أعضاء
 حزب « الأمة » البارزين ، لأنه يرتبط مع الحزب بمصالحه (فهو من كبار
 الاقطاعيين) وان كان يفصل عنه بفكره وعقله « لأنه من كبار المثقفين
 المجددين » ..



ولم ينتسب طه حسين فى هذه الفترة (حوالى عام ١٩٠٨) الى الحزب
 الوطنى فقد كان الحزب الوطنى حزبا للشعب حقا ، ولم يكن حزبا للأغنياء
 والاقطاعيين مثل حزب « الأمة » ، ولكن شعبية الحزب الوطنى كانت
 تتمثل فى جانبه السياسى ، أما فى الجانب الفكرى فقد كان حزبا محافظا
 متعصبا فى كثير من القضايا الفكرية الرئيسية ، لذلك لم يكن طه حسين
 (الذى يقلقه الفكر أولا وقبل كل شئ) يستطيع أن يجد راحته وغايته
 فى فكر الحزب الوطنى ..

فالحزب الوطنى يقوم فى دعوته الوطنية على أساس دينى ، ومعنى
 هذا الأساس الدينى أن ترتبط مصر بتركيا فى ظل الخلافة الاسلامية ..
 وتركيا فى ذلك الحين هى رمز للتخلف الشرقى ، سواء فى مظهره
 السياسى ، حيث كانت الحكومة التركية ، حكومة سلاطين مستبدين طغاة
 رجعيين لا يعترفون بالديموقراطية التى كانت حلم كثير من المثقفين فى مصر
 وفى كثير من دول الشرق العربى فى ذلك الحين. ولقد كان الايمان بالارتباط

مع تركيا (كما كان الحزب الوطنى ينادى) ترجمته الفكرية هى الايمان بالتقاليد القديمة الجامدة ، ورفض مظاهر الحياة الحديثة العصرية المرتبطة كل الارتباط بالغرب وثقافته ..

ولقد نشأت بين طه حسين - فى هذه الفترة المبكرة من حياته - وبين أحد أعلام الحزب الوطنى وهو الشيخ عبد العزيز جاویش معركة حول موضوع « السفور والحجاب » ..

وهذه المعركة تكشف لنا كيف كان هناك اختلاف واسع بين التفكير العصرى المتحرر الذى آمن به طه حسين ، وبين التفكير المحافظ الذى كان يعيش فى ظل الحزب الوطنى ..

لقد كان طه حسين يدافع عن سفور المرأة وتحريرها من الحجاب ، وهى فكرة عصرية ، أخذها من تفتحها على الثقافة الغربية والحضارة الغربية ، وكتب عام ١٩١١ سلسلة من المقالات يدعو فيها الى هذا الرأى ، وهو يلخص مقالاته فى هذه الكلمات فيقول :

« لا فرق بين المرأة والرجل فى الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق منهى عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه . فالمرأة لا تخلو بالأجنبى ولا تسافر وحدها ، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى . ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء فى غير اثم ولا لغو . لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب ، وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل . وليس عليها الا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الانسانى كافة . هذا هو حكم الاسلام ، وهو رأينا الذى لا نعيد عنه ، ولا نعدل به رأيا آخر » ..

وقد كان هذا الرأى الذى قال به طه حسين منذ أكثر من نصف قرن ، يعتبر رأيا تقدما ، مفرطا فى تقدميته ، يحسب ضمن آراء المدرسة المتطرفة - آنذاك فى تحرير المرأة - وعلى رأسها قاسم أمين ..

وقد رد على هذا الرأى الشيخ عبد العزيز جاویش (أحد زعماء الحزب الوطنى) وقال فى هذا الرد الذى دافع فيه عن اعجاب : « ان رأى

« الأستاذ » طه حسين يعتمد على أصليين أوليين :

« الأول : ظنه أن الحجاب انما اصطنع ليكون عقوبة على المرأة ..
« والثاني : قوله ان المرأة والرجل اذا نشأ على قواعد الدين وأصوله
وهذبت أخلاقهما أمنا عادية الشر ولم نحتج الى حجاب ونقاب ..
« أما الأصل الأول فنحن نخالف الأستاذ فيه ، تقول ان الحجاب لم
يتخذ عقوبة للمرأة ولا حجرا عليها ، وانما اتخذ تكريما لقدرها وتعظيما
لأمرها ، ودفعاً للأذى عنها . فانا لا نخاف المرأة على نفسها فقط ، بل
نخافها ونخاف معها الشبان وما يتصفون به من سوء الخلال وكواذب
الأخلاق ..

« وأما الأصل الثاني فنحن نوافق الكاتب عليه . تقول ان تهذيب
الأخلاق وتربية النفوس على أصول الدين يغنيان أكثر من غناء الحجاب
والنقاب ..

« ولكن أين السبيل الى ذلك ؟ ..

« تلك هي المسألة التي لا يستطيع أحد أن يجيب عليها الا بالقول ،
حتى اذا آن له أوان العمل وحان حينه وقف منه موقف الحائر ، لا يدري
أيقدم أم يحجم ، ولا يعرف الى أين يذهب ولا من أين يجيء » ..



هذا مثال من أمثلة الخلافات بين طه حسين ومفكرى الحزب الوطنى ..
ولقد كانت هناك خلافات أعمق وأعقد ، ومن بين هذه الخلافات الرئيسية
ما أشرنا اليه منذ قليل من ان رأى طه حسين هو اقامة دولة عصرية على
أساس « قومى » لا على أساس دينى ، فالوطن فى مفهومه شئ آخر غير
الدين ، ويجب فصل الدين عن الدولة ، وما كان الحزب الوطنى يوافق
على مثل هذا الرأى الذى أخذ به طه حسين من الثقافة الغربية والنظام
السياسى الغربى ..

على العكس لقد كان الحزب الوطنى ينادى باقامة الدولة على أساس
دينى ، ومن هنا كان يؤمن بالعمل على استمرار الخلافة العثمانية ، باعتبار

ذلك استمرارا للتخلفة الاسلامية ، التى هى هدف الحزب الوطنى وأساس دعواه ..

فى الناحية الأخرى كانت آراء لطفى السيد، هى الآراء القريبة الى قلب طه حسين وعقله .. فلقد كان ينادى بفصل الدين عن الدولة والأخذ بفكرة الدولة المدنية العصرية ، وكان ينادى بتحرير المرأة وسفورها ، ويتبنى « الكاتبات » اللاتى كن يكتبن فى الدعوة الى تحرير المرأة ، فقد نشر فى صحيفة « الجريدة » مقالات لاحدى رائدات الحركة النسائية وهى « ملك حفنى ناصف » ثم نشر لها كتابها المشهور « النساءيات » ، وقدمه تقديمًا حارًا متحمسًا ..

وفى النهاية كان لطفى السيد مؤمنا بالعقل أكثر من ايمانه بالعاطفة ، ولقد كان طه حسين أقرب الى الايمان « بالعقل » منه الى الايمان بالعواطف .. ومن هنا وجد فى لطفى السيد ، ومن معه من مثقفى حزب « الأمة » جاذبية ، لم يجدها فى الحزب الوطنى الذى يؤمن بالتقاليد والعواطف العنيفة الملتزمة ، ولا يكاد يقترب من الأسلوب « العقلى » فى معالجة أمور الحياة والفكر والسياسة !

ومما ينفى تهمة الرجعية السياسية عن طه حسين فى هذه المرحلة — رغم ارتباطه بحزب « الأمة » الرجعى — انه فى ذلك الحين (حوالى عام ١٩٠٨) كان هناك حزب ثالث فى مصر اسمه الحزب الوطنى الحر ، وكان هذا الحزب يلتف حول جريدة « المقطم » وصاحبها فارس نمر ، وكان زعيم هذا الحزب رجلا اسمه محمد وحيد ، وقد كان هذا الحزب يعيل ميلا واضحا الى التعاون مع الانجليز ويقول هذا الحزب على لسان مؤسسه محمد وحيد هذا « ان سلامة المصريين فى سلامة المحتلين » ..

لقد كان هذا الحزب يناصر الانجليز ، وفى وقاحة لا حد لها ، وكان يتبنى نفس آراء حزب « الأمة » ، ولكن بطريقة أكثر صراحة وتطرفا وابتدالا ، ولم يقترب طه حسين من هذا الحزب اطلاقا ، ولو فى لحظة واحدة من لحظات بدايته الفكرية ، ذلك لأن هذا الحزب كان خاليا تماما

من جناح المثقفين الذى يملأ حزب « الأمة » ويجعل له وجهها آخر غير وجهه السياسى وهو الوجه الفكرى المتحرر ..
 فطه حسين اذن لم يرتبط سياسيا بحزب « الأمة » ، والا لكان قد ناصر أيضا الحزب الوطنى الحر ، أو عطف عليه ، أو كتب فى صحفه ، ولكنه فى الحقيقة كان مرتبطا أساسا بالحركة الفكرية لحزب « الأمة » ..
 هذه الحركة المجددة المؤمنة بالثقافة الغربية العصرية ..
 لقد كانت هذه الحركة هى أنسب بيئة لهذا الأزهرى الشاب الذى كان ثائرا أشد الثورة على الأزهر ، والذى فصل بالفعل من الأزهر نتيجة لتطرفه ، ولآرائه التى لم تعجب علماء الأزهر ..



على ان حزب « الأمة » قد بدأ يمر حوالى عام ١٩٠٩ (بعد عامين) من انشائه بأزمة عنيفة من أزماته .. فلقد نشأ هذا الحزب — كما يسجل الباحثون والدارسون لهذه المرحلة من تاريخنا — بايحاء من اللورد كرومر الذى كان يعادى الخديو عباس عداء عنيفا ، وكان الحزب الوطنى يناصر الخديو ، ويمثل قوة سياسية شعبية لها خطرها وتأثيرها الكبير ، وقد أراد كرومر أن ينشئ حزبا آخر يناصر الانجليز ويقف ضد الحزب الوطنى فأوصى بعض أنصاره بإنشاء حزب « الأمة » ، ولكن اللورد كرومر ترك مصر عام ١٩٠٧ ، وجاء بعده السير « الدون جورست » واتبع سياسة الوفاق مع الخديو — على عكس سياسة كرومر — هنا بدأ حزب « الأمة » يفقد دوره ، وبدأ يذوى ويذبل .. الى أن انتهى الى الجمود وفقدان القدرة على أى حركة سياسية ..

لقد كان هذا الحزب يتوقع أن يستولى على الحكم من خلال اللورد كرومر ... ولكن اللورد كرومر رحل عن مصر ، ورحلت سياسته ، ورحلت معه أيضا أحلام حزب « الأمة » ..



وفى فترة الأزمة التى مر بها حزب « الأمة » اقترب طه حسين من

الحزب الوطنى اقتربا محدودا بعد أن ظل بعيدا عنه مختلفا معه الى حد بعيد . وكانت بداية التقائه بهذا الحزب ، عندما أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش — أحد زعماء الحزب — مدرسة ليلية لتعليم اللغة الفرنسية لمن يريد ذلك من الطلاب ، وقد كان الحزب الوطنى يؤمن بضرورة تعاون المصريين مع فرنسا كقوة أوروبية للضغط على انجلترا ، ولاشك ان هذه الفكرة كانت وراء انشاء مدرسة الشيخ عبد العزيز جاويش لتعليم اللغة الفرنسية للطلاب المصريين ، كما كانت وراء كثير من مواقف الحزب الوطنى وتصرفاته المختلفة ..

وقد انضم طه حسين الى هذه المدرسة ، وتعلم فيها مبادئ اللغة الفرنسية . ثم أخذ ينشر فى صحف الحزب الوطنى مقالات وقصائد مختلفة ..

على أننا فلاحظ فى هذه المرحلة من حياة طه حسين ان ارتباطاته بالحزب الوطنى كانت ارتباطات بجانب واحد من مبادئ هذا الحزب ، وهو جانب الدعوة الى الجلاء والاستقلال التام ، فقد ظل طه حسين محتفظا بخلافاته الفكرية التى أشرت اليها منذ قليل ، مع الحزب الوطنى ، وقد كتب طه حسين كثيرا من « قصائده » يدافع فيها عن استقلال مصر فى هذه الفترة ونشر معظمها فى صحف الحزب الوطنى ، ومن نماذج هذا الشعر قوله فى احدى قصائده ، مخاطبا الانجليز فى قصيدة كتبها عام ١٩٠٩ :

تيمموا غير وادى النيل واتجعوا
فليس فى مصر للأطماع متسع

كفوا مطامعكم عنا ، أليس لكم
مما جنيتم وما تجنونه شبع ؟ ..

وفى قصيدة أخرى قالها يخاطب العام الهجرى الجديد :

كن أنت بعد أخيك خير هلال
وأضئ لمصر سبيل الاستقلال

أشرق وحدث مصر عن آمالها
 ماذا صنعت بهذه الآمال
 أمصدق فيك الظنون وناظر
 للنيل نظرة مالح وصال ؟ ..
 ومبدد عن مصر بعض همومها
 فلقد أضر بها أخوك الخالي
 أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها
 من ريهن بوابل هطال

وقال غير ذلك من النماذج الشعرية التي تعتبر الآن أثرا طريفا من آثار
 طه حسين والتي جمع الكثير منها الأستاذ محمد سيد كيلاني في كتابه
 الممتاز القيم « طه حسين الشاعر والكاتب » ..

وكل هذه النماذج وغيرها من كتابات طه حسين ، تدلنا على شيء واحد
 هو أن ارتباط طه حسين بالحزب الوطني كان هذه المرة ارتباطا سياسيا
 ولم يكن ارتباطا فكريا ، فما زال طه حسين مؤمنا بأرائه التي تشده الى
 لطفى السيد ومثقفى حزب « الأمة » الذى مات الآن وانحل من الدعوة
 الى فصل الدين عن الدولة ، والى تحرير المرأة ، وما الى ذلك من آراء
 لا يوافق عليها الحزب الوطنى ..

أما من الناحية السياسية فطه حسين ينادى بمبادئ الحزب الوطنى
 وهى الجلاء التام والاستقلال الكامل ..

وقد ظل طه حسين على ارتباطه السياسى غير الفكرى بالحزب الوطنى
 حتى سافر الى فرنسا فى بعثة دراسية عام ١٩١٤ بعد أن قال الدكتوراه
 من الجامعة المصرية ..

وعاد طه حسين بعد انتهاء بعثته فارتبط من جديد ارتباطا عميقا بلطفى
 السيد وجماعة المثقفين الذين كانوا أعضاء فى حزب « الأمة » القديم أو
 كانوا أصدقاء لهذا الحزب ، ولم يعد طه حسين بعد رجوعه من فرنسا الى
 الاتصال بالحزب الوطنى على الاطلاق ..

ويمكننا أن نجد في هذه المرحلة من حياة طه حسين عنصرا جديدا يفسر لنا زيادة ارتباطه بهذه المجموعة من المثقفين ، لقد كان طه حسين يحس بعد أن تمكن من تعليم نفسه وتدعيم ثقافته ، انه قد عاد من باريس وهو يحمل في عقله آراء جديدة سوف تصدم الرأي العام حتما صدمة عنيفة . وان مثل هذه الآراء الجديدة تخالف التقاليد والأفكار التي تعود عليها الرأي العام . ولقد كان طه حسين يتوقع — وهو محق في ذلك — أن يثور ضده الرأي العام ثورة عنيفة وخاصة ان الأمية كانت منتشرة في صفوف الشعب ، وان التقاليد الفكرية المحافظة كانت معششة في العقول بصورة قاسية ..

ومن هنا تصور طه حسين انه لا مأمّن لفكره الا بين نخبة من المثقفين ، ولو كانت هذه النخبة قليلة ، ولكنها على أى حال سوف تفهمه وتقدره بل وسوف تقدم له الحماية وتدافع عنه ..

ولذلك لم يفكر طه حسين بعد عودته من أوروبا في أن يرتبط بحزب شعبي ، فالحزب الشعبي عادة يمتد الى قاعدة جماهيرية كبيرة ، وهو يحرص على ارضاء هذه القاعدة ، وعدم استفزازها أو تبني آراء لا توافق عليها . ولقد كان الحزب الشعبي الذي بدأ يظهر ويستولى على قيادة الحياة السياسية في ذلك الحين هو حزب الوفد ..

لم يرتبط طه حسين بالوفد بعد عودته من باريس ، ولم يقف الى جانبه ، بل ظل مرتبطا ببقايا حزب « الأمة » ، وأصدقاء هذا الحزب ، من أمثال عدلى ، وثروت . وفي عام ١٩٢٢ تم انشاء حزب « الأحرار الدستوريين » من بين أعضاء حزب « الأمة » القديم ، وقد أنشئ هذا الحزب لمعارضة الوفد ، وللوقوف الى جانب السراي في حربها مع الوفد وانضم طه حسين الى هذا الحزب واشترك في صحيفته « السياسة » التي كان يرأس تحريرها أحد كبار المثقفين في حزب « الأحرار الدستوريين » بل وفي مصر كلها وهو الدكتور محمد حسين هيكل ، قريب لطفى السيد وتلميذه . وكان طه حسين في ذلك الحين مدرسا في كلية الآداب بالجامعة

المصرية . ووقف طه حسين في هذه الفترة بعنف وقوة ضد الوفد وضد سعد زغلول ..

ولا شك ان هذا الموقف من جانب طه حسين - في التقييم السياسى - كان موقفا خاطئا فالوفد في ذلك الحين كان أكثر الأحزاب المصرية ثورية وقربا من الشعب ، بينما كان الأحرار الدستوريون بعيدين عن الشعب ومصالحه فهم مجموعة من الأعيان والاقطاعيين ..

ولكن موقف طه حسين في ذلك الحين كان وراءه أكثر من مبرر .. فكما أشرت كان حزب « الأحرار الدستوريين » (وقد احتوى حزب « الأمة » القديم وأضاف اليه) يضم جناحا من كبار المثقفين المتحررين الى أقصى حد وكان على رأسهم أيضا لطفى السيد ، الذى كان على رأس الجناح المثقف فى حزب « الأمة » القديم أيضا ..

وهذه البيئة من المثقفين كانت تتقبل طه حسين وتسانده بكل ما فيه من تمرد فكرى وثورة عقلية ولم تكن تنفر منه أو تضيق به ، كما كان المتوقع لو ان طه حسين انضم الى حزب الوفد ، حيث لم يكن الوفد يستطيع - بسبب قاعدته الشعبية - أن يتقبل مثل هذه الآراء الفكرية الجديدة التى تصدم الجماهير فى تقاليدها الفكرية المختلفة ..

ومن ناحية أخرى لم يكن حزب الوفد ولا قيادة سعد زغلول فوق الشبهات . فلقد بدأ الوفد يفكر بعقلية البحث عن السلطة أى انه بدأ يتخلص من ثوريتة الحارة العنيفة التى مكنته من قيادة ثورة عام ١٩١٩ ، وبدأت المآخذ تظهر ضد سعد زغلول من جماعات متعددة من بين المثقفين على وجه الخصوص . فكانوا يأخذون عليه نوعا من « المكيافيلية » السياسية ، ويأخذون عليه استبداده واصراره على قيادة الحركة السياسية المصرية - التى اشترك معه فى قيادتها كثيرون من زملائه الأكفاء - بطريقة فردية متسلطة لا تعطى فرصة العمل للآخرين . وسواء صحت هذه المآخذ على سعد زغلول أو لم تصح ، فمن المؤكد انه كان قد فقد لمسة الاجماع على زعامته الى حد يقرب من التقديس خلال ثورة

عام ١٩١٩ . لقد فقد اللبسة في عام ١٩٢٢ (حين أنشئ حزب « الأحرار الدستوريين » وما بعده الى عام وفاته ١٩٢٧) ..

ومن هنا لم يعد سعد فوق النقد .. ولم يعد حائزا على الولاء المطلق لقيادته وزعامته ..

ومما لا شك فيه أيضا ان العلاقة الشخصية كان لها دور في هذا الموقف الذي اتخذته طه حسين ضد الوفد وضد سعد زغلول . فلقد كان طه حسين على علاقة عميقة بلطفي السيد منذ بداية هذا القرن ، كما كان على علاقة وثيقة بأسرة عبد الرازق (حسن عبد الرازق ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق) وكانت هذه الأسرة من دعائم حركة الأحرار الدستوريين كما كانت من قبل من دعائم حزب « الأمة » ، وكانت هذه الأسرة بالذات قريبة الى قلبه لأن من بين أفرادها عالمين كبيرين تعلمتا في الأزهر مثلما تعلم طه حسين ، ولكنهما كانا من أكثر المنادين بالتجديد والتحرر في الفكر العربي الاسلامي عموما ، وقد خاضا كثيرا من المعارك في سبيل هذا التجديد . هذان العالمان هما مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ..

تجمعت هذه العوامل كلها فربطت بين طه حسين وبين « الأحرار الدستوريين » وأبعدته عن الوفد . وفي هذه الفترة نفسها كان هناك زميل آخر لطله حسين .. ابن من أبناء جيله .. وواحد من ألمع مفكرى هذا الجيل .. هو عباس العقاد .. وكان العقاد يقف في الطرف المقابل لطله حسين .. كان يرتبط بالوفد وبسعد زغلول أشد الارتباط ..

ولعل المقارنة بين الكاتبين تساعدنا على الوصول الى مزيد من الوضوح في موقف طه حسين ، فلقد كانت المعركة في حياة العقاد معركة مادية .. لقد خرج من أسرة فقيرة جدا ، مما أضناه وأرهقه ، وجعله في بداية حياته قريبا جدا من واقع الشعب وحياة جماهيره ، بينما طه حسين لم يعان كل هذه القسوة في بداية حياته ، بل وجد من أسرته المتوسطة ما يعينه على مواصلة تعليمه . وكانت المعارك الفكرية الأولى في حياة

العقاد مع شوقي وهو شاعر كبير وارشتراطى كبير وقد تجسدت فى هذه المعركة العنيفة بين العقاد وشوقي وكأنها معركة مع كل من يمثلهم شوقي من الارشتراطية الفكرية التى كانت تملأ حزب « الأمة » ، وحزب « الأحرار الدستوريين » من بعده ، بينما كانت معركة طه حسين مع الأزهر ، أى مع الرأى العام كله ، ذلك الرأى العام الذى كان يعتبر أى هجوم على الأزهر هجوما على الدين .. لا يقبله ولا يقره ..

ومن ناحية ثالثة لم يظهر العقاد بأى آراء - فى القضايا الكبرى - تصدم الرأى العام وتثيره .. بينما كانت كل آراء طه حسين فى بداية حياته الفكرية صدمة مستمرة متواصلة للرأى العام . ومن هنا كان العقاد قادرا على أن يقف بلا خوف فى صف الرأى العام ، بينما كان طه حسين عاجزا عن أن يلتزم هذا الموقف ..

على كل حال لم يمض وقت طويل حتى جاءت المعركة الحاسمة الأولى فى حياة طه حسين وهى معركة كتابه « فى الشعر الجاهلى » فقد صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٢٦ . وأثار زوبعة ضخمة فى الرأى العام انعكست على مجلس النواب الذى كانت أغلييته وفدية . وكان يرأسه سعد زغلول بينما كان رئيس الوزراء هو عبد الخالق ثروت المتعاطف مع الأحرار الدستوريين والمعادى للوفد . ومن الأشياء الدالة على موقف طه حسين انه أهدى كتابه فى طبعته الأولى الى عبد الخالق ثروت ، وكان نص هذا الاهداء الذى لم يظهر فى الطبعات التالية هو :

« الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت (باشا) .. سيدى صاحب الدولة ... كنت قبل اليوم أكتب فى السياسة وكنت أجد فى ذكرك والاشادة بفضلك راحة نفس تحب الحق ، ورضا ضمير يحب الوفاء . وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة ، واذا أنا أراك فى مجلسها كما كنت أراك من قبل ، قوى الروح ، ذكى القلب ، بعيد النظر ، موقفا فى تأييد المصالح العلمية توفيقك فى تأييد المصالح السياسية . فهل تأذن لى فى أن أقدم اليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والاحلال العظيم » ..

وهكذا أهدى طه حسين كتابه ، أو قبلته الفكرية الى عبد الخالق ثروت ، صديق الأحرار الدستوريين ، وصديق جناحهم المثقف على وجه الخصوص ..

ولا شك ان طه حسين كان يعرف ان كتابه سوف يثير زوبعة فكرية ضخمة ، ولم يتوقع الحماية من الرأي العام ، وانما توقع هذه الحماية من النخبة المثقفة التي كانت ترتبط ارتباطا حزيا بالأحرار الدستوريين أو تربطهم به رباط صداقة ومودة من أمثال : لطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد الخالق ثروت ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق وقامت الزوبعة بالفعل ... ووقف البرلمان الوفدي برئاسة سعد زغلول ضد طه حسين ، وتقدم النائب الوفدي عبد الحميد البناني ببلاغ الى النيابة ضد طه حسين ، وألقى سعد زغلول نفسه خطابا في إحدى المظاهرات التي قامت تطالب برأس طه حسين بسبب كتابه ... وقال سعد في هذا الخطاب :

« ان مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر في هذه الأمة المتمسكة بدينها .. هبوا ان رجلا مجنونا يهذى في الطريق ، فهل يضير العقلاء شيء من ذلك .. ان هذا الدين متين ، وليس الذي شك فيه زعيما ، ولا اماما حتى نخشى من شكه على العامة . فليشك ما شاء . وماذا علينا اذا لم تفهم البقر » ..

ويمكن متابعة تفاصيل هذه القضية المثيرة في كتاب « فصول ممتعة » للأستاذ محمد سيد كيلاني ..

والسؤال هنا ...

من الذى دافع عن طه حسين عندما اتهمه الوفديون وزعيمهم بأنه في كتابه عن الشعر الجاهلي ملحد خارج عن الدين ؟ ..
ان الذين دافعوا عنه ووقفوا الى جانبه هم :

أولا : لطفى السيد مدير الجامعة وهو أحد أعلام الأحرار الدستوريين وأحد مؤسسي الحزب ، وهو الذى كتب أول بيان خرج به الحزب على

الناس ، وألقاه عدلى (باشا) فى أول اجتماع للحزب « فى فندق شبرد القديم » ... وكان لطفى السيد قد انفصل عن الأحرار الدستوريين — شكليا — بعد أن أصبح مديرا للجامعة . باعتبار ان منصب مدير الجامعة يجب ألا يكون منصبا حزبيا ..

ثانيا : على الشمسى وزير المعارف آنذاك ... وكان فى ذلك الوقت قريبا من الأحرار الدستوريين محسوبا عليهم ... وقد دافع « على الشمسى » فى البرلمان عن طه حسين دفاعا صريحا وقال للنواب فى دفاعه : « انا نطمح فى أن تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمى الصحيح » ..

ثالثا : « وهذا هو الأهم » عبد الخالق ثروت نفسه ، وقد كان رئيسا للوزراء وهو الذى أهدى له طه حسين — كما أشرنا — كتابه الذى أثار كل هذه العاصفة العنيفة ..

وعبد الخالق ثروت من كبار أصدقاء الأحرار الدستوريين ، وإن كان من الناحية الشكلية يبدو مستقلا . وقد هدد ثروت بالاستقالة اذا أصيب طه حسين بأى ضرر .. وهكذا وقف حزب « الأحرار الدستوريين » الى جانب طه حسين ... بينما وقف الوفد ابتداء من زعيمه سعد زغلول ضد طه حسين ... وقف حزب الأقلية مع حرية الرأى ... ووقف حزب الأغلبية ضد حرية الرأى... وفتت النخبة المثقفة التى تلتف حول الأحرار الدستوريين مع طه حسين .. ووقفت الجماهير العريضة ، بأفكارها المحافظة ضد طه حسين ، وتابعت قيادة الوفد هذا الموقف ، بل وغذته بعنف وقسوة ..

وكان طه حسين فى ذلك الحين يبدو من الناحية الشكلية أيضا مستقلا بعيدا عن الأحزاب ، لأنه أستاذ فى الجامعة .. والأستاذ الجامعى يجب أن يكون فوق الأحزاب ..

ولقد حرص طه حسين فى هذه الفترة حرصا كاملا على استقلاله الشكلى ... ولكنه كان يميل بالتأكيد الى الأحرار الدستوريين ، بسبب

موقفهم من حرية الرأي ، ومساندة مثقفهم للتجديد الفكرى مساندة واضحة ..

وقد اضطر طه حسين فى هذه المعركة الى سحب كتابه « فى الشعر الجاهلى » وحذف بعض الفقرات التى أثارت هذه الحملة العنيفة ضده ، ثم أعاد إصداره باسم جديد هو « فى الأدب الجاهلى » وان كان طه حسين قد أعلن أكثر من مرة انه متمسك بما جاء فى الطبعة الأولى من كتاب « فى الشعر الجاهلى » .. وانه لو وجد فرصة لأعاد نشر هذه الآراء .. وهدأت العاصفة بعد أن حذف طه حسين من الكتاب ما تسبب فى إثارة هذه العاصفة ..

واستمر طه حسين مرتبطا بالأحرار الدستوريين وأستاذا فى الجامعة أعواما متعددة الى أن وصل الى منصب عميد لكلية الآداب ..



وجاء عام ١٩٣٢ ليحمل معه مرحلة جديدة فى حياة طه حسين السياسية ففى هذا العام كان على رأس الحكومة الطاغية الرجعى اسماعيل صدقى . لقد جاء به الملك فؤاد الى الحكم ليضمن عن طريقه أن تكون السلطة مطلقة فى يد السراى . وجاء صدقى نفسه الى الحكم ليقدم بمنتهى الصراحة والوضوح الرأسمالية المصرية الناشئة ، التى تريد أن تشترك مع الاستعمار فى نهب البلاد واستغلالها .. وأراد صدقى أن يكتسب كل الصفات الشكلية التى تؤهله لرياسة الوزارة ولتخطيم الدستور . وللقيام بدور البطولة فى ظل الديمقراطية الزائفة ..

لقد كانت هذه الديمقراطية تقتضى وجود حزب وصحيفة معبرة عن هذا الحزب وأغلبية برلمانية ... وألف صدقى (باشا) بالفعل حزبا جديدا هو حزب الشعب ، وعقد الحزب « المفتعل » أول اجتماعاته فى ١٧ نوفمبر عام ١٩٣٠ ، وأصدر جريدة للحزب اسمها « الشعب » أيضا ، وأجرى انتخابات زائفة قاطعها الشعب « الحقيقى » وسالت فيها دماء المواطنين

ويمكن صدقى من تزيف برلمان يؤيده بأغلبية الأصوات ..

وكان طه حسين فى هذا الوقت عميدا لكلية الآداب ، فطلب منه صدقى (باشا) أن يحرر جريدة « الشعب » المدافعة عن الحكومة ، ورفض طه حسين هذا الطلب . فقد كان أصدقاؤه — الأحرار الدستوريون — متحالفين مع الوفد فى معارضة الحكومة القائمة معارضة حاسمة . وكانت الأمة كلها غاضبة على هذه الحكومة ..

ولكن السبب الأكبر — فيما أعتقد — لرفض طه حسين التعاون مع صدقى (باشا) هو الرجعية الفكرية الواضحة التى كانت تتميز بها هذه الحكومة . فقد أغلقت الحكومة « معهد التمثيل والرقص التوقيعى » بحجة انه يمس الآداب العامة . وحاربت الاختلاط بين الشباب والفتيات فى الجامعة حربا قاسية شعواء ، وأثارت عديدا من المعارك والحروب ضد حرية الفكر . وضد التجديد الفكرى بالذات . فكيف يقبل طه حسين المفكر المجدد المستنير أن يتعاون مع حكومة تتصف بكل هذه الرجعية الفكرية ؟ ..

كيف يقبل أن يتعاون مع حكومة تغلق معهد التمثيل ، وهو المؤمن بالفن المسرحى ، والذى كاد يطير فرحا ، عندما قرأ فى ذلك الوقت تقريرا مسرحية « أهل الكهف » .. أول مسرحية لتوفيق الحكيم .. حيث اعتبر طه حسين هذه المسرحية بداية لفن جديد فى الأدب العربى هو فن المسرح كيف يتعاون مع هذه الحكومة وهو المؤمن بحرية المرأة وبضرورة تعليمها تعليما كاملا ، والذى يؤمن ان الاختلاط فى الجامعة حق طبيعى للفتاة والشاب ؟ ! ..

كان من الطبيعى اذن أن يرفض طه حسين التعاون مع هذه الحكومة الرجعية العنيدة فى رجعتها . وقررت الحكومة من جانبها أن تحارب طه حسين . فعزلته من منصبه كمعيد لكلية الآداب ، وعينته مفتشا للغة العربية فى وزارة المعارف ، وتقدم بعض النواب الى وزير المعارف باستجواب يفتح قضية طه حسين القليلة التى أثارت منذ ستة أعوام عند

صدور كتاب « في الشعر الجاهلي » وتساءل هؤلاء النواب كيف تسمح الحكومة لكاتب « ملحد خارج على الدين مثل طه حسين » أن يبقى في عمله ؟ ! ..

وكانت الاتهامات في هذا الاستجواب ضد طه حسين مركزة فيما يلي :

١ - « انه ظهر في صورة نشرت في جريدة « الاهرام » تمثل طلبية كلية الآداب حول عييدهم - الدكتور طه حسين - وقد جلست كل شابة الى جانب شاب .. »

٢ - « ان الدكتور طه حسين المسئول المباشر عن جميع ذلك هو الرجل المعروف بمصادمة آرائه لنصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية وقد ظهر عداؤه للإسلام في كثير من تعاليمه وآثاره ، منها كتاب « في الشعر الجاهلي » الذي وضعت عند صدوره البلاد بأسرها . ولا يزال هذا الكتاب يدرس في الجامعة بعنوان « في الأدب الجاهلي » ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئاً من روحه اللادينية ، كما وانه قد زين للشبان وسائل المجون والفسوق في مؤلفه « حديث الأربعاء » ولا يمكن للأمة أن تطمئن الى وعوده المتكررة بالعدول عن هذا السبيل المعوج ، فسوابقه لا تشجع على تصديقه .. »

وينتهي هذا الاتهام بتحريض صريح ضد الدكتور طه حسين حيث يقول : « حضرات النواب » في ختام اتهامهم « فكيف سكنت وزارة المعارف عن ذلك كله ، ولم تحرك ساكناً ؟ .. وكيف تسمح أن يكون هذا الرجل عميداً لكلية الآداب بعد أن افترض أمره ، وضجت الأمة من خطر تعاليمه وآرائه .. »

ونص هذا الاتهام المثير الطريف الذي وجهه النواب - في البرلمان - الى طه حسين عام ١٩٣٢ منشور في كتاب « طه حسين الكاتب والشاعر » للأستاذ محمد سيد كيلاني ..

وعوقب طه حسين من حكومة صدقي بنقله - كما أشرنا - الى وزارة المعارف ... وفي اليوم الأول لنقله من الجامعة أضرب طلاب الجامعة تحت

قيادة الطلاب الوفدين . وخرجوا في مظاهرة ضخمة الى بيت طه حسين حيث استقبلوه وحملوه على الأعناق وهتفوا بحياته .. وحياة الفكر الحر المضطهد ! .. ومن يومها رفض طه حسين الذهاب الى وزارة المعارف .. ومن يومها بدأ تحول جديد في حياته ! ..

لقد أحس ان الجماهير التي تخلت عنه في الماضي تقف الى جانبه وتؤيده ضد حكومة صدقي الرجعية ، وأحس ان الحكومات والأحزاب الرجعية لا يمكن أن تؤيد الفكر الحر الا اذا ضمنت ان لها من وراء هذا التأييد مصلحة كبيرة ضخمة . فلقد كان الأحرار الدستوريون على سبيل المثال يحتضنون المثقفين ويسبغون عليهم الرعاية ، ليكسبواهم حولهم تعويضا لهم عن انصراف الشعب عنهم ، ومحاولة من جانبهم لاكتساب شيء من الاحترام والتقدير ..

والأحزاب والحكومات والرجعية عموما لا يمكن أن تؤيد الفكر الحر أيضا الا عندما تحس ان هذا الفكر ليس له ترجمة في الواقع العملي تمثل خطرا عليهم ... فلو كانت ترجمة الفكر الحر عمليا — هي الدعوة الى مجانية التعليم أو الى نشر العدل بين المواطنين ... فهي — في هذه الحالة — دعوة مرفوضة تستحق الابداء ! ..

لقد اكتوى طه حسين بالرجعية في صورة عملية مباشرة ... وكانت آراؤه الآن قد بدأت تبلور في الدعوة الى نوع من التغيير الاجتماعي العميق بتوسيع قاعدة التعليم والعدل في صفوف المجتمع ، وكانت الجماهير التي انصرفت عنه في الماضي قد بدأت تقبل عليه الآن ، وتمنحه التأييد والتقدير ..

ومن عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٦ كان طه حسين يتحول بسرعة الى الارتباط بالوفد وجماهيره وصحافته ! ..

ومن غرائب المصادفات ان طه حسين كان يتقرب في هذه الفترة من الجماهير ، بينما كان مفكر آخر كبير يتعد عن الجماهير بعد أن تخلت عنه ... وكأن القدر لم يرد لهذين المفكرين الكبيرين أن يلتقيا في معسكر

سياسى واحد ... هذا الفكر الآخر هو عباس العقاد ، ففى هذه الأعوام الحاسمة بالذات بدأ العقاد ينفصل عن الوفد ، ودخل معركة عنيفة ضده . ثم انتهى به الأمر فى عام ١٩٣٦ الى الوقوف فى معسكر الأحرار الدستوريين ثم فى معسكر السعديين ... أى فى معسكر الأقليات الرجعية التى ينطوى تحت جناحها بعض المثقفين اللامعين !

أما طه حسين فمئذ اصطدامه بحكومة صدقى بدأ يوثق صلته بالوفد . حتى أصبح فى عام ١٩٥٠ وزيرا للمعارف فى آخر وزارة وفدية ! .. وكالعادة لم يرتبط طه حسين بالوفد ارتباطا حزيا مباشرا ... أى انه لم يصبح عضوا فى أى منظمة من منظمات الوفد ، ولكنه ارتبط به عن طريق الصحافة والعلاقات الشخصية المباشرة ..

وفى هذه المرحلة التى امتدت من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ حدث تحول آخر فى موقف طه حسين الفكرى . لاشك ان التحول السياسى كان نتيجة من نتائجه ... هذا التحول الفكرى هو ان طه حسين انتقل من الدعوة الى الجديد فى الفكر الى دعوة أخرى ، هى التجديد فى المجتمع نفسه ..

لقد بدأ يطالب بتعميم التعليم ومجانيته ، وبدأ يطالب برفع الظلم الاجتماعى عن الطبقات الشعبية ، وأخذ يعود الى التاريخ الاسلامى ليستمد منه البراهين المختلفة على ان الاسلام كان ثورة اجتماعية ضد الظلم المادى ، وأثبت فى عديد من كُتبه مثل كتاب « الوعد الحق » ان الدعوة الى العدل أساس من أسس الاسلام . ففى هذا الكتاب يتحدث عن الأرقاء الذين ناضلوا وتعذبوا من أجل الاسلام ، وكان هذا الكتاب - معناه ان العدل الاجتماعى مطلب أساسى من مطالب الاسلام ..

هكذا أصبح طه حسين الآن ، فى مرحلته الجديدة ، قائدا من قادة التغيير الاجتماعى ، وكان هذا التغيير الاجتماعى يلتقى مع أعرق معانى التغيير الفكرى وأروعها وأكثرها اصالة وجدية . فلم يعد فى دعوته الى التجديد الفكرى يحس - كما كان يحس من قبل - بالرغبة فى العزلة عن الجماهير والتعالى عليها ، وبأن لا مكان له ، كمفكر مجدد ، الا بين

النخبة والصفوة القليلة ... كلا .. انه يستطيع أن يصل الى أروع معاني التجديد الفكرى من خلال ارتباطه بالمصالح الأساسية للطبقات الشعبية ان حماية الرجعيين للفكر الحر هي حماية متقلبة مترددة ، تخضع لمقياس المصالح الخاصة المحدودة . أما حماية الشعب كله فهي أفضل وأبقى وأكثر منطقاً ووضوحاً . ولعله اكتشف في هذه المرحلة من حياته ان المفكر المجدد الحر لا يستطيع أن يعيش مستريح الضمير بين شعب جاهل فقير متأخر . ومن هنا خاض طه حسين المعركة في هذه المرحلة مع الشعب كله ومن أجله ..

ولم يكن ارتباطه بالوفد ارتباطاً حزبياً بالمعنى الضيق ، بل كان بحثاً عن وسيلة جديدة لتوصيل أفكاره الى الناس وتحقيقها في الواقع . ولقد كان طه حسين داخل حزب الوفد خير مدافع عن « تأميم » التعليم ، سواء في كتبه المعروفة مثل كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » أو في مواقفه العملية المختلفة ..

ولقد لقي من وراء موقفه عنثاً شديداً ، وتشهيراً لا حد له من الأوساط الرجعية ... تلك الأوساط التي كانت تعزو اليه انه أفسد التعليم بسياسته التي كان شعارها « العلم كالماء والهواء حق للجميع » .. ومن الملاحظ ان طه حسين في هذه الفترة من حياته أصبح أكثر ميلاً الى المحافظة في آرائه الفكرية ، بينما انتقل طرفه الى مواقفه الاجتماعية بل لقد عاد الى دراسة الاسلام ، الذي اتهم في بداية حياته بمهاجمته ، ولكنه استطاع من خلال دراساته الاسلامية أن يبلغ منهجه الجديد في التفكير الى الجماهير الواسعة . وذلك من خلال احترامه لعقائدها وأفكارها المختلفة ..

فهو يغير من النظرة الشائعة للاسلام على انه دين روحى فقط ... بل ثبت انه دين يدعو الى الثورة الاجتماعية بغاية أساسية هي تحقيق العدل ، حتى لقد اتهم طه حسين بسبب كتبه التي ظهرت في هذه المرحلة الأخيرة من حياته اتهامات سياسية متعددة ، وصودرت بعض كتبه نتيجة

لهذه الاتهامات .. ويمكننا أخيرا أن نلخص الخصائص العامة التي ميزت علاقة طه حسين بالأحزاب السياسية فيما يلي :

أولا : كانت علاقاته السياسية في خدمة أفكاره ، لقد كان على الدوام يبحث عن بيئة مناسبة لفكره الحر المتفتح ويرتبط بهذه البيئة أينما وجدها ثانيا : لم يدخل طه حسين أبدا ضمن تنظيمات حزبية محددة ، بل كان يرتبط بالأحزاب ارتباط الصداقة والتعاطف الواضح دون أن يكون عضوا في التنظيمات المختلفة لهذه الأحزاب ..

ثالثا : في أشد أيام ارتباط طه حسين بالأحزاب الرجعية ، لم ينصر في كتاباته أو تصرفاته ، الاقطاع ، أو الرأسمالية ، أو أى نوع من أنواع الرجعية الاجتماعية ، أو الفكرية . وكل ما يؤخذ عليه في فترة ارتباطه بأحزاب الأقليات انه أمدّها بتأييد معنوي راجع الى مكائده الفكرية وقدرته في التأثير على الجماهير كما انه اشترك مع الأحزاب الرجعية في بعض معاركها السياسية اليومية ... حيث شن - على سبيل المثال - حملة عنيفة لمصلحة الأحرار الدستوريين ، على الوفد وسعد زغلول .. رابعا : ظل فكر طه حسين الأساسى بمنزل عن الضياع في زحمة الحياة السياسية . ولذلك احتفظ دائما بشخصيته الفكرية المستقلة ، رائدا مستتيرا ... وعندما سقطت الأحزاب بعد الثورة لم يسقط طه حسين ، بل واصل طريقه المستقل في الفكر والحياة ..

خامسا : خط اتجاه طه حسين في السياسة تأثر بموقفه الفكرى الى حد بعيد ... فقد كان في البداية يؤمن بالتجديد الفكرى ولا يلتفت الى التجديد الاجتماعى الا قليلا ، أما في المرحلة الأخيرة التي بدأت منذ عام ١٩٣٢ فقد آمن بالتجديد الاجتماعى وآمن بأنه لا قيمة لتغيير الفكر بدون تغيير المجتمع ..

وهذا هو ما يجعل طه حسين بحق مقدمة كبيرة من مقدمات الثورة الشاملة على الأوضاع الرجعية التي انهارت ، بعد كفاح طويل ، عام ١٩٥٢

المرأة .. في أدب طه حسين

صوفي عبد الله

يضل ضلالا بعيدا من يتناول أدب طه حسين مجردا عن البعد الاجتماعي . فهو في أدبه كله يدير الأحداث والشخصيات والأفكار مرتبطة كلها بأبعادها الاجتماعية أشد الارتباط لأنها تستمد وجودها الحى ، وتطورها ، وتقلبها ، وخطرها ، من تلك الأبعاد الاجتماعية قبل كل شيء . فلا سبيل الى فهم شيء من هذا كله الا عن هذا الطريق ..

وطه حسين في أعماله الفنية الابداعية جميعا - ابتداء من سيرة حياته في كتاب « الأيام » الى أعماله القصصية على تباينها في المنزع والأسلوب - يأخذ نفسه بتصوير آفاق الحياة كما خبرها في صعيد مصر ، وفي ربوع ذلك « الحى العتيق بين (الباطنية ، وكفر الطماعين) في القاهرة » ، مجاورا فقيرا وطالب علم مكافحا . ثم في الأحياء الأنيقة المترفة وقد غدا أستاذا جامعا وأديبا وقائدا من قادة الفكر في أمته مرموق المكانة مسموع الكلمة موسعا عليه في الرزق ..

ولا سبيل الى أن تكون صورة حياة قوم ، في مجتمع ما ، صادقة ما لم يكن للمرأة في هذه الصورة مكان وأى مكان ... ولا سيما حينما تكون هذه الصورة نتاج وجدان أديب كان منذ نعومة أظفاره شديد الحاجة الى المرأة . بل أشد حاجة اليها من الكثرة الغالبة من الناس . بسبب

« ظروفه المعينة » .. فهي العشير والأنيس والمعين والصديق الذي لا يكاد يكون له عنها غنى .. ان كان لسواه من الناس غنى عنها بحال من الأحوال ..

وقد جاءت صورة « المرأة » من نتاج وجدان هذا الأديب ثمرة طبيعة فيها كل خصائص حياته الخصبية المتنوعة الآفاق فكريا واجتماعيا أشد ما يكون التنوع ، على امتداد حقبة من الزمن تترامى من أواخر القرن الماضى الى صميم هذا القرن العشرين . وهى أشد حقب تاريخنا الاجتماعى ازدحاما بالتقلبات والاندفاع فى التطور بين قديم مسرف فى التخلف والجمود وجديد مسرف فى التطلع الى التحرر ..

وذلك كله حرى أن يجعل صورة « المرأة » فى أدب طه حسين تسجيلا حيا دقيقا شديد التنوع لما قطعناه من أشواط بعيدة فى مراحل تطورها الاجتماعى والفكرى ..

وأحفل ما يكون هذا الوطاب الأدبى الفكرى من نتاج وجدان طه حسين يصور واقعنا الاجتماعى الصميم فى ريف مصر وحواضره لاسيما فى الصعيد . فاذا بنا نلتقى وجها لوجه بالأم الصعيدية العريقة الحصان والكاعب الصعيدية الرزان ، والغاية « الغازية » اللعوب ، وتاجرة الأسرار والغوايات ، والمرأة الميسورة المستغنية بجاه أسرته ، والمرأة الفقيرة الكادحة المتجملدة ، والمرأة المحرومة المنكودة المتعففة ، والمرأة الأثيرة عند زوجها ، والزوجة المبتلاة بما يكون فى حياة الضرائر من محنة وعذاب ، والعذراء أو الكاعب التى أوتيت من رقة القلب ورهافة الحس ما لاتفهمه أو تسيغه بيئتها وتضيق به دنياها .. تلك الدنيا التى صاغ العرف الاجتماعى قوالبها الفولاذية الصماء ..

● أرض الشدائد ●

وما أشبه ذلك المجتمع المصرى الصميم فى أخريات القرن الماضى بأرض الشدائد التى لا تنبت سوى شجر السنط ، بصلابته وأشواكه وأعواده العجفاء ..

فالمرأة من تتاج أرض الشدائد هذه أمرها يوشك أن يكون عجيبا
يجاوز غاية العجب . حتى لتكاد تنكره أشد الإنكار في يومنا هذا
كأن لم تكن تلك المرأة جدتنا نحن قبل جيلين من الناس أو ثلاثة أجيال
على أكثر تقدير ..

فلئن كان الجمود والتزمت والضغط الاجتماعى والتفاوت الطبقي
العنيف ، والحواجز الطبقيّة الصلدة سمات ذلك المجتمع ، وجوهر أرض
الشدائد هذه وما ينبت فيها على اختلاف صنوفه من المخلوقات الآدمية
فحظ المرأة من هذه الشدائد مضاعف .. أيا كان مكانها من السلم
الاجتماعى ..

فقد تكون المرأة ثرية غاية الثراء ، أو فقيرة أشد الفاقة . وقد تكون
جميلة أثيرة ، وقد تكون قبيحة مزدراة . فهي على كل حال امرأة أنثى ،
وهي فوق خضوعها لكل صنوف الضغط الطبقي الذى يتحكم في حياة
الرجال من أبناء بيتها ومصائرهم تخضع أيضا لضغط طبقي خاص بها ،
مؤداه ان مرتبتها دون مرتبة الرجل ، وان العرف الاجتماعى في طبقتها ،
وفى مجتمعها بكافة طبقاته ، يصوغه الرجل وحده على أساس سيطرته
التامة عليها ماديا وفكريا .. فهي « شئ » أو تكاد تكون « شيئا »
ونصيبها من حقوق الآدمية لا بد أن يكون ضئيلا ، فهو أضال من نصيب
الرجل في طبقتها على كل حال ..

وأنتكى من هذا كله وأدهى — على خطره الشديد — ان المرأة نفسها
كانت تجد ذلك العنت المزدوج طبيعيا جدا في الغالب الأعم .. فتقوم
بوجدانها على رعايته وحراسته ، وتجد في خروجها عليه عارها كله
وضياعها كله .. وبذلك يكون خضوعها المزدوج ، وخنوعها المضاعف ،
كفاء العنت المزدوج والضغط المضاعف الواقعين عليها من خارج في
سائر أطوار حياتها : كاعبا ، وزوجة ، وأما ..

وفى ضوء هذا « البعد الاجتماعى » تبرز صورة المرأة حية نابضة —
لا مسطحة فاترة تجريدية خاملة — أينما التقينا بها وجها لوجه في
أدب طه حسين الابداعى الغزير المتنوع ..

● الام ●

وتتبع الترتيب الطبيعى الذى عرف به طه حسين المرأة أو تعرف اليها فى حياته . فنبداً بالأم ، والأم هى الذروة العليا التى تجتمع فيها الخلاصة الصافية أصفى ما تكون الخلاصة لخصائص الحنان والرفق والركة فى الوجدان البشرى كله ..

فكيف نجد هذه الأم فى ذلك الاطار من الواقع ؟

نجدها أول ما نجدها فى ذلك الجزء الأول من كتاب « الأيام » ونضع يدنا على ذلك الموضع الذى وقف فيه الشيخ الطفل أمام أبيه يمتحنه فيما زعم فقيه « الكتاب » من انه أتم حفظ القرآن وانه يعيد فى كل يوم عليه ستة أجزاء منه . بحيث يختم فى كل أسبوع أجزاء القرآن الثلاثين لا يتخلف عن ذلك يوماً ..

وطلب اليه أبوه أن يقرأ سورة « سبأ » فلم يفتح الله عليه بحرف . فطلب اليه أن يقرأ سورة « فاطر » ، فلم يفتح الله عليه بحرف ، بل وعجز عن قراءة سورة « يس » ، على شيوخ حفظها بين عامة الناس ، فلم يفتح الله عليه الا بالآيات الأولى منها « ولكن لسانه لم يلبث أن انعقد ، وريقه لم يلبث أن جف ، وأخذته رعدة منكرة تصبب على أثرها فى وجهه عرق بارد ..

ثم صرف الوالد ذلك الطفل الشيخ الذى لم يجاوز التاسعة من عمره مشيعاً بالسخرية والتحقير . فماذا كان من أمر الأم مع هذا الطفل الضريد المنفجوع فى عزة نفسه وصميم شعوره ؟ ..

« خرج صاحبنا من المنطرة منكس الرأس مضطرباً يتعثر ، ومضى فى طريقه حتى وصل الى الكرار - والكرار حجرة فى البيت كانت تدخر فيها ألوان الطعام ، وكان يربى فيها الحمام - وكانت فى زاوية من زواياها القرمة ، وهى قطعة ضخمة عريضة من الحشب كأنها جذع شجرة . كانت أمه تقطع عليها اللحم ، وكانت تضع على هذه القرمة طائفة من السكاكين منها الطويل ومنها القصير ، ومنها الثقيل ومنها الخفيف ..

« مضى صاحبنا حتى وصل الى الكرار ، وانعطف الى الزاوية التي فيها القرمة ، وأهوى الى الساطور ، وهو أغلظ ما كان عليها من سكين وأحده وأثقله ، فأخذه بيمنه ، وأهوى به الى ققاء ضربا !.. ثم صاح وسقط الساطور من يديه . وأسرعت أمه اليه ، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مر بها . فاذا هو واقف يضرب والدم يسيل من ققاء والساطور ملقى الى جانبه ! .. »

ومرة أخرى نسأل في تطلع وقلق شديدين :
ماذا كان من أمر هذه الأم مع هذا الطفل الضريع الذي انتهى به جرح كرامته وعزة نفسه الى هذه النهاية الدامية ؟ ..
وسرعان ما يأتينا الجواب بسيطا هادئا صادقا بعيد الدلالة :

« وما أسرع ما ألقت أمه نظرة الى الجرح وما أسرع ما عرفت انه ليس شيئا ذا بال ! .. وما هي الا أن انهالت عليه شتما وتأنيا ، ثم جذبتة من احدى يديه حتى انتهت به الى زاوية من زوايا المطبخ . فألقته فيها القاء ، وانصرفت الى عملها .. »

واننا لنتلقى بصورة هذه الأم نفسها فيما يلي ذلك من كتاب « الأيام »
بجزئية فنشهد لها مواقف تدل على البر والحنان ، ولكنه الحنان الذي يترقق من وراء لواء صلب كلحاء شجرة السنط ذات الأشواك ، مهما يكن في داخلها من عصارة الحياة ! ..

ويشب الطفل الكفيف عن الطوق ويتزعزع ويدع الكثير من القصص الذي يحفل بصور الأمهات ، فأين تقع هذه الصور من صورة هذه الأم التي عرفها أول ما تعرف الى الأمومة ؟ ..

نجد الجواب عن ذلك مثلا عند « أمونة » عندما تفتح كتابه الشهير « المعذبون في الأرض » ..

« ... وسكينة فتاة في السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، فالفتاة عارية أو كالعارية

لا تستر جسمها الا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم ..
وقالت « أمونة » لابنتها فجأة في صوت منكسر :
— ألم تنهضى وتركى البيت بعد أن خرج أبوك الى النهر بساعة
قصيرة ؟ ..

قالت الفتاة :

— بل قد نهضت وخرجت من البيت ولكنى عدت بعد لحظة ..
قالت « أمونة » :

— فانى قدرت ذلك وانتظرت ، ولكن هذه اللحظة طالت ، حتى
همت أن أخرج فى التماسك ، ولكنى ، أكرهت نفسى على البقاء مخافة
أن يظن الينا الجيران ، وما زلت أنتظر وأنتظر حتى أسفر الصبح وإذا
أنت تقبلين مترفة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعتك .. فالى أين
ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ ..

وقد سمعت سكىنة حديث أمها مرفوعة الرأس فى أول الأمر ، ولكنها
لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعضلات أن
تمسكه فانكب نحو الأرض انكبأبا ..

ولبث الفتاة صامتة لا تقول شيئا ، جامدة لا تأتى حركة .. هنالك
تمرت « أمونة » وظهر فى وجهها شيء من الجذ لم يلبث أن استحال الى
غضب منكر عنيف .. وقالت لابنتها فى صوت مكظوم :

— ستنبئينى الى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ..

ثم انحرفت بنصفها الأعلى الى يمين وتناولت عودا يابسا من سعف
النخيل كانت تصطنعه فى قلب الخبز وانضاجه ، ثم استقبلت الفتاة
ملوحة بهذا العود اليابس ، وأخذ العود يقع ما بين كتفى الفتاة فى عنف
شديد وثبت له كأنما دفعها الى الوثوب لولب فى الأرض ، أو جذبها
الى الوقوف سبب فى السقف ..

على ان وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت
المصادفة الغاضبة ، وإذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها الى وجهها وهى

تتلوى من الألم ، تدافع شهيقا يريد أن ينطلق ويكاد أن انفجر عنه حلقها
ثم يستأثر الغضب « بأمانة » فإذا هي لم تبق امرأة ، وانما استحالت
الى « جنية » نائرة وقد ألقت العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ،
فكبت الفتاة على وجهها ، وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت
تجذب الفتاة من شعرها في غير رفق، وتدفع بقدميها وجهها في غير نظام ،
وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة .. »

فماذا فعلت « أمانة » عندما وصل الأمر بألم ابنتها الى هذا الحد ؟ ..
« وتلقى « أمانة » نفسها على ابنتها .. وتضغط بيدها على فم الفتاة
وتنبئها في صوتها المكظوم دائما بأنه الموت اذا لم تكظم صوتها ولم تضبط
نفسها ولم تنبئها في هدوء وصدق أين ذهبت ..
« ألا شيء يمكن أن يكف هذه الأم عن قسوتها تلك على ابنتها ؟ ..
« بلى !.. ثمة شيء واحد يكفها عن ذلك ..
« ... هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفئاة ، ولكن الفتاة قالت
لأمها بصوت تكلفت كظمه .. ستكفين يدك على أو أستغيث بالجيران !
قالت « أمانة » وقد سقط العود من يدها : الجيران ؟ .. يا للفضيحة !..
يا للعار !.. ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة.
بالنحيب ! .. »



وأم ثالثة ، هي « نحبوبة » نجدها ونحن نجوس خلال كتاب « المعذبون
في الأرض » أيضا ..

انها الأم التي تسخر أمومتها لقيمة أعلى عندها وأعلى من حنان الأمومة
كله . وهذه القيمة قيمة أخلاقية صرف .. فهي تشعر ان الأمومة وظيفة
أخلاقية يقيها فيها العرف الاجتماعي الذي نشأت في ظله . لا تعرف الحنان
حيث يدعوها واجب هذه القيمة الأخلاقية الاجتماعية للقسوة في غير لين
وعندئذ تنتفض الأم فاذا بها « جنية نائرة » على حد تعبير طه حسين
نفسه ..

وهكذا تتنوع التكوينات الخلقية الاجتماعية في بيئة واحدة هي الريف من صعيد مصر . وتتعدد بواعث الخشية والقسوة بين دافع التقوى الدينية ودافع التقوى الاجتماعية . ولكن سلوك القسوة واحد ، وأدواته واحدة ، وفي جميع الأحوال لا نجد لحنان الأمومة موضعه الا مسخرا لرقابة هذه القيمة الأخلاقية العليا وفي خدمتها ..

● الزوج ●●●

فاذا التمسنا صورة المرأة زوجا وربة بيت في ذلك الزمن الذي لا يوغل في القدم الى أكثر من أوائل هذا القرن العشرين وجدناها على تفاوت صنوفها وظروفها ووضعها الاجتماعي نباتا طبيعيا فيه كل خصائص ما تخرجه أرض الشدائد تلك من نبات ..

فقد تكون الزوج منفردة ببيتها وزوجها أثيرة عنده في أحيان قليلة ، ولكنها في الأغلب الأعم زوج بين عديد من الزوجات الضرائر يكدن لها وتكيد لهن ، وهي في جميع الأحوال منفردة أو غير منفردة شيء ضعيف مستكين لا حول لها ولا طول ، للرجل كل الحقوق وليس لها من حق ، له كل المكانة وليس لها من المكانة الا أيسر اليسير ، فلا سبيل لها في مواجهة هذه الشدائد الا أن تستسلم مغلوبة على أمرها حليفة دمعها تلوذ به بمناسبة وغير مناسبة ..

استمع اليه يفيض عليك من تلك الخبرة الفائرة في وجدانه وذاكرته عما تركته نساء ريف مصر في نفسه ، فيقول في الجزء الأول من كتاب « الأيام » :

« وكل امرأة في مصر محزونة حين تريد .. وأحب شيء الى نساء القرى اذا خلون الى أنفسهن أن يذكرن آلامهن وموتاهن فيعددن .. وكثيرا ما ينتهي هذا التعديد الى البكاء حقا ! .. وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع الى اخواته وهن ينفين ، والى أمه وهي تعدد .. وكان غناء اخواته يفيظه ولا يترك في نفسه أثرا ، لأنه يجده سخيلا لا يدل على

شيء ، في حين كان تعديد أمه يهزه هذا عنيفا ، وكثيرا ما كان يكيه .. «
وهكذا كانت الفتيات الآنسات يعرفن الغناء خاليات الى أنفسهن وغير
خاليات ، أما الزوجات والنساء فحديثهن الى أنفسهن تعديد كله وبكاء
كله . ولا يكون ذلك الا عن نفس لم تجن من قطاف الآمال التي حققها
الواقع الا الأسى والعجز وامتناع الحيلة ، وهذه بعينها صورة المرأة في
مجتمع يضاعف عليها ما يفرضه على الرجل من ألوان العنت الشديد ..

ولقد كانت أمه زوجة مفردة سيدة دارها . وما أقل هذا النمط من
النساء في تلك البيئة . فذلك هو الاستثناء من القاعدة المطردة ، أن تكثر
في عصمة الرجل الواحد الزوجات من الضرائر ..

وقد تعيش الزوجة أثيرة عند زوجها مفردة في عصمته وإذا بها بين
عشية وضحاها وقد أدخلت عليها ضرة ، كهذه السيدة المنعمة التي تنحدر
من أصل تركي على ما جاء في كتاب « المعذبون في الأرض » ..
ثم نجد حياة الضرائر صورة أدهى وأشأم كلما جئنا في كتاب
« شجرة البؤس » :

« ... فقد كثر نساؤه ، وأخذ ولده يكثرون ، وأخذت النفقة تزداد
وتثقل أعباؤها ، وأخذت الحاجات تكثر وتنوع وتتعد ، والربح يذوب
في هذه الأسرة الكبيرة كما يذوب الملح في الماء .. وحياته مطردة مضطربة
.. تجارة أول النهار ، ولغو آخره .. ثم العودة الى داره ليقضى بقية
الليل عند هذه لا تلك من نساؤه ، يسمع منها أبغض ما يسمع الرجل من
امراته ، مشكاة من هذه ، ونعيا على تلك ، وعيبا للثالثة ، وثناء على
نفسها ، ثم الحاحا في التسوية بينها وبين ضرائرها ، فقد أهدى الى هذه
ما لم يهد اليها مثله ، وزعمت تلك انه ترك من النقد كذا وكذا درهما
على حين انه يبيت عندها ولا يترك لها شيئا ، وانها لتلتبس المليمات
تشتري بها الحلوى لصبيها البائس فلا تجدها ، فيظل ابنها محروما ينظر
الى أبناء الضرائر، وهم فرحون بما في أيديهم من الحلوى وما في جيوبهم من
ألوان النقل ..

« وعلى هذا النحو تنقص عليه ليلته حتى ينتظر الصبح أشد ما يكون إليه شوقا . فاذا سمع صوت المؤذن أسرع الى وضوئه وصلاته ، يظن ان التقوى هي التي تدفعه اليهما ، وما كان يدفعه اليهما الا الهرب من هذه الحياة البغيضة .. »

وان الزوج ليرحم على زوجته الأولى التي لم يعرف غيرها الى أن ماتت ..

« كانت مباركة لم يحس في أيامها ضيقا ولا ضنكا وكانت حياته نعيما متصلا .. أين هو من هذا النعيم ؟ .. أيجده عند زينب هذه التي تقدمت بها السن حتى أخذ وجهها يكليح وتظهر فيه التجاعيد ، وهي مع ذلك تتجمل وتتدلل وتتكلف ما يتكلفه النساء الحسان ، وهو لم ير عندها الا سوء الخلق ، والا هذه الغيرة الطارئة التي أدخلتها في قلب زوجها الآخرين . وما له لا يكتفى بزوجين اثنتين ؟ .. ثم يصبح وقد استقر رأيه على أن يفارق زينب فهو يلتمس لذلك الأسباب والعلل . وأى شيء أيسر من ذلك ؟ .. يكفي أن تلقاه متجهمة تحسب تجهما دلالا ، متكررة تحسب تنكرها تيبها .. »

« ويكفى أن يدعوها فتبطيء في الجواب واذا هو ثائر فائر ، يلقي في وجهها كلمة الطلاق .. وكذلك كانت حياته زواجا وطلاقا ، وطلاقا وزواجا ، واحتمالا لما يقتضيه ذلك من نفقات ، واحتمالا لما تقتضيه كثرة الولد من نفقات أيضا ، واهمالا لهؤلاء الولد الذين يكثرون من يوم الى يوم ، وهو اهمال مصدره كثرتهم من جهة ، وتنافس أمهاتهم من جهة أخرى .. »

فان لم تكن للزوجة ضرائر من الحليلات الشرعيات ، فالأرجح أن تكون لها ضرائر من العشيقات غير الشرعيات ، كذلك المرأة « زهرة » أم الفتاتين في قصة « دعاء الكروان » ..

فلا تخلو تلك البيئة ممن خلعن العذار ، ومثلهن الواضح تلك المرأة الماجنة التي نلتقى بها في « دعاء الكروان » وكانت امرأة تختصم على.

وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ، يحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل الى الفكاهة ظاهر .. حتى اذا أرسلت ضحكتها سمعها من غير شك أبعد من في الدار مكانة وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء الى المجون حتى اذا فرغت من ضحكتها جرت الهواء الى جوفها جرا هو أشبه بالشهيق المثير !



وبديهي ان المرأة في جميع هذه الأحوال وما اليها هينة على الرجل ، وشعاره معها ان النساء ناقصات عقل ودين ..
ولسنا نجد خلاصة موجزة لأحوالها مما جاء على لسان « زبيدة » في « شجرة البؤس » ..

أما وهذا حال المرأة مع الرجل فلا بد أن تعيش بعقلية خرافية تتسق مع هذا التناقض غير المعقول في وضعها . ولا بد أن تؤمن بنوع من القدرية تسيطر على حياتها وحياة الناس وتفرض عليهم هذا النصيب الجائر الذي لا فكاك لها منه ولا حيلة لها فيه ..

وطبيعي أن يكون الايمان بالخرافات والخرارق مسيطرا على عقول النساء أكثر من سيطرته على عقول الرجال . فأما من نشأت في رحاب الدين فخرافاتها تتخذ مسوح الدين ، وأما من لم تنشأ في رحاب الدين فخرافاتها تتجه الى العالم السفلي وما فيه من قوات الجن والشياطين ! ..



ونجد نمط العقلية النسائية الخرافية المتدينة فيما يرويه صاحب « الأيام » في الجزء الأول ..

وأما حديث الجن وما لهم عند النساء من منزلة طولى فيأتيك نبأه في « شجرة البؤس » ..

« قالت أم رضوان :

« كنت أخبز في قريتنا لجارة لنا ذات مساء كما أخبز الآن . وكانت

صاحبة الدار « أم عثمان » جالسة معي بين أتراب لها وجارات . وكنا نتحدث كما نتحدث الآن ، وإذا امرأة من أهل القرية تدخل علينا منفردة متفجعة .. فاذا سألناها عما بها ، زعمت لنا أنها خرجت مع صاحباتها آخر الليل يملأن جرارهن ..

« وانهن لعائدات يغنين في صوت خافت يستأنسن بالغناء من وحشة الليل ، وإذا هن يسمعن أصواتا لا يكدن يتبينها ، فيصغين ويمددن أبصارهن فيرين نساء يلطن وجوههن وهن يتغنين بمثل ما تتغنى به النادبات فيقلن :

يا ساريات في السحر يسعين في ضوء القمر
إذا بدا الصبح الأغر فقلن يا « نشر الزهر »
ان أبا يحيى عمر أصابه سهم القدر
فهو صريع محتضر هل لك فيه من وطر ؟ ..

« قالت أم رضوان : ولم تكذ هذه المرأة تتم حديثها حتى رأينا « أم عثمان » قد ثارت مولولة ، فنفضت شعرها ، ومزقت ثيابها ، وجعلت تلطم وجهها ، وتضرب صدرها ، ونحن نحاول أن نردها الى الهدوء ونسألها عن أمرها ، ولكنها بعد حين تثوب الى نفسها قليلا وتقول لنا في صوت يقطعه الشهيق : « أنا « نشر الزهر ! » وعمر أبو يحيى هو أخى ! .. اقرأن تحيتي على زوجي واستوصين بعثمان خيرا ، فلا بد من أن أرى أخى قبل أن يموت وما أراني أدركه ، ولعلى اعود اليكن والى زوجى وابنى اذا انقضت أعوام العزاء ، فالعزاء عندنا لا يكون في الأيام ولا في الأشهر ، وانما يكون في الأعوام الطوال ! ..

« قالت أم رضوان ، وكدنا نظن بصاحبتنا الجنون ، لكن ما راعنا الا أن رأيناها تقذف نفسها في التتور ، فلا نرى لها أثرا ولا نسمع لها حسا ، فقد كانت « جنيّة » تمثلت لأبى عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان ، ثم جاءها النبا ان أخاها يحتضر فأسرعت للقاءه قبل أن يموت ، وسلكت اليه أقرب الطرق وهو « التتور » حين يكون ملتهبا ..

« والجنّيات يألفن التنور ، ولذلك لا ينبغي أن يحمى « التنور » دون أن يذكر اسم الله عند اشعال النار ، فان ذلك يطرد منه الشياطين ، ويؤذن المسلمات بأنه سيحمى ، فيخرجن منه قبل أن يدركهن شيء من النار ! »

حياة تتسم بالقسوة والضيق والهوان من جميع أطرافها وفي جميع مستوياتها . هذه هي حياة جيل جداتنا حتى أوائل هذا القرن والجيل الذى سبق مباشرة جيل المتصديات للحياة من أتراب أمهاتنا اللاتى حملن أعباء الصدمة الأولى حين تحطم « القمم » وانتهى نوم « أهل الكهف » فأتيح للفتاة أن تخرج للحياة مشوقة الى حقها البشرى فى الحرية ، وأقدامها غائرة فى ثرى الماضى المتحجر مكبلة بقيوده الثقيل ..

تلك الصور الزمنية من نساء الماضى القريب البعيد معا ، القريب فى حساب تطورنا السريع البعيد كل البعد فى حساب تطورنا السريع الحاسم وهى صور لو لم يحفظها لنا هذا الأديب الذى رزق حاسة « البعد الثالث » فظن أشد الفطنة الى العامل الاجتماعى وأثره فى حياة الناس ومصائرهم لكننا - أكبر الظن - قد فقدنا هذا التسجيل الحى النادر المبدع فلم يبق له بين يدينا شيء منه يقام له وزن ، فى حساب الفكرة وفى حساب الفن ..

● المتصديات للحياة ●

ان طه حسين الذى عرف جيل المرأة المصرية القديعة فى ريف صعيد مصر وفى أحياء القاهرة الوطنية معرفة واقعية مباشرة فى أخريات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين يكاد يختلف أشد الاختلاف عن طه حسين الذى استقبلته أوروبا ساعيا اليها فى طلب العلم والثقافة وفنون الحضارة ، أحدث ما تكون الحضارة ، ثم آفلا الى مصر أستاذًا فى الجامعة وأديبا مسموع الكلمة ورائدا فكريا يشار اليه بالبنان ، ليجد المرأة المصرية فى أعقاب الثورة الوطنية ومنذ الربع الثانى للقرن العشرين ، وقد صارت جيلا يختلف أشد ما يكون الاختلاف عن جيل أمها التى

عرفها وخبرها طه حسين من قبل . واذا هذا التبديل الذى طرأ على جيل المرأة يكاد يجعلها نوعا مستقلا ليس له به عهد من قبل ..

فالجيل السابق عرفه طه حسين بين الصعيد والقاهرة مذعنا أشد الاذعان ، مكبلا بأثقل الأغلال التى صاغ فولاذها العرف الموروث منذ عدة قرون ، فليس لها حق بشرى مستقل مما يمكن أن يخطر على بال المرء من أنواع الحقوق الظاهرة والباطنة ..

أما تلك المرأة الأخرى ، المرأة الجديدة التى التقى بها طه حسين فى شىء من العجب والدهش والفرح معا منذ الربع الثانى للقرن العشرين فالأجدر أن نطلق عليها اسم « المتصدية للحياة » . فأتنا نلمس فيها بذرة الكيان المستقل .. بذرة الحرية الباطنة التى تموج وتأبى إلا أن تلتبس لنفسها منفذا الى الوجود الخارجى الملموس فى مجالات النشاط الحيوى وأفعال السلوك المحققة للوجود الذاتى النابع من الارادة الباطنة المستقلة

ولا يكون التصدى للحياة فى اصرار واقتحام عند اللزوم شيئا سوى ذلك ، وخصوصا فى ظروف المرحلة الاجتماعية الانتقالية التى تأبى أن تسلم للمرأة بحقوق كيانها المستقل كاملة ، بل تنكر عليها هذه الحقوق أشد الانكار وأعنفه فى معظم الأحيان ، فلا تجد المرأة الجديدة مندوحة من الاصطدام العنيف حينا ومن التسلل المراوغ حينا آخر، ومن الارتطام والتلاحم الذى يفضى الى الاستشهاد دون ما تريده من تحقيق وجودها على النحو الذى شاءته لهذا الوجود ..

ولئن كانت معرفة طه حسين بالجيل القديم للمرأة معرفة الممارسة الواقعية المباشرة فى طفولته ويفاغته ، فلم تكن مندوحة اذن من بروز صور هذه المرأة فى أدبه نابضة بالحياة التى تستمد مصادرها من التجربة المعاشة وعناصرها المكتملة ..

أما هذه المرأة الجديدة المتصدية للحياة فلم يتح لطفه حسين بطبيعة ظروفه الجديدة فى مجتمعه الجديد وطبقته الجديدة — فضلا عن ظروف حياته الخاصة بشخصه وبزواجه ومنصبه — أن يعرفها تلك المعرفة

الواقعية المباشرة ، وانما يصنع تصور طه حسين لهذه المرأة الجديدة من جيل المتصديات للحياة اطرافا شتى ، فثمة شيء في هذا التصور من أشواق طفولته ورواسبها وحنينها ، وشيء من أحلام وجدانه المشبوب وفطنته اليقظة ، وشيء من تسامي روحه الثائرة وتطلعه ، وشيء من انكاره للواقع البشرى الغليظ ، وشيء من التقديس والاعزاز لذلك الجنس الآخر الذى تربطه به حوافز الروح والفطرة معا وأواصر المودة العميقة التى تلوح معالمها لآحساسه المرهف فى ملامح ابنته وزوجه ، واخواته وأمه من قبل ..

ولئن اشترك جيل المرأة الجديدة فى خصلة واحدة هى التصدى للحياة ، فدوافعهم الى ذلك التصدى ليست واحدة على السواء ، وانما تمتاز كل طائفة منهم عن الطوائف الأخرى بحافز من طبيعة تكوينها .. فنحن اذن حريون أن نجد فى صورة جيل المتصديات للحياة فى أدب طه حسين نماذج متباينة للجامحات بسطوة البدن والأعصاب ، والمعتدات بقوة الطبع وشكيمة الارادة والعزيمة ، والمحلقات بقوة العاطفة ، والمترفات عن ذل الاستكانة ..

ولا يكاد يجمع بين هذه الأنماط من النساء فى أدب طه حسين غير انطباع أثر جمال المرأة فى نفسه ، متسللا الى وجدانه أو مقتحما طريقه اليه عن طريق تلك الحاسة المrehفة لديه أشد الارهاق ، وهى التى أشار اليها قديما بشار بن برد حين قال : « والأذن تعشق قبل العين أحيانا ... » أما طه حسين فأبرع من بشار وأرهف وأشد استقصاء وتعقبا لمسارب هذا الجمال فى نفسه . تكاد تحس نبضات رفته وحنينه المترفق الرقراق حين يقول مثلا : « ولم تكن تمتاز بأشراق الوجه وتقائه فحسب وانما كان اشراق وجهها وتقاؤه مظهرا لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن قد أسبغت على جسمها كله ، فكان شيئا رائعا متقنا كأنما صنع فى تمهل وتأنق واثابة ، كأحسن ما يتمهل المثال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعا .. »

أرأيت كيف أفاد اغفال التفصيلات هنا فيما يتعلق بالملاحم والقسمات
كى تأتى الصورة مجملة شمولية تطلق خيال القارئ ليستخرج من كوامن
هذا الغموض المبهم ما يروق كل متخيل على ما يشتهى ويجب .. وتلك
طبقة فى شاعرية الوصف وفنيته يغفل عنها الأكثر من الواصفين .
فليس من منهج يقتل الجمال الفنى كما يقتله التحديد الدقيق الذى يكبت
الخيال بدلا من اطلاق العنان له فى أوسع الآفاق ..

ولكن طه حسين لا يلم بجمال الوجه وروثق البدن هذا الالمام الا
لينتقل الى مجال الجمال الأثوى ، ذلك المجال الذى ينفذ من الأسماع
الى القلوب .. !

« وكان صوتها اذا تكلمت » رخصا « عذبا صافيا ممثلا لا تكاد
الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هذا الوقت القصير بين انطلاق
الفجر فى ظلمة الليل كأنه السهم ، واشراق الشمس على الأرض حتى
تملاها جمالا ونورا .. والذى يترقرق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه
الندى كأنه تحية حلوة ملؤها الحياة والنشاط قد أرسلتها السماء الى
الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك ، تتغنى الطير
وتحف الأوراق وتهتف الغصون ويهمس الضوء الفاتر الى الأرض أن
أفيق وتأهبى فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .. !

« كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله اذا تكلمت . وكان صوتها
ذاك » الرخص « العذب الصافى يلائم وجهها المشرق النقى ، وخلقها
الرائع السوى . فكان شخصها أشبه شئ بآية من آيات الموسيقى التى
لا تلد السمع وحده ، وانما تلد كل ما فى الانسان من ملكات الحس
والشعور والتفكير ! »

ولا أظن تصويرا أدبيا ثريا ضارع فى جماله تصوير ابن الرومى فى
الشعر العربى (١) لجمال الصوت ورخامته ووقعه على الحس اللهم الا
هذه الصفحة ومثيلاتها من ثر طه حسين الفنى ..

(١) يقول ابن الرومى فى « وحيد » المنيعة : « صوت ليه وثى وحلى »

فصوت المرأة لا يخاطب الأذن وحدها وإنما يخاطب حواس اللمس وخلجات الحس ويثير صوراً حسية لمسية .. ليس أقلها شأننا وصف الصوت الرخيم بصفات النعومة والبضاضة التي لا تعهد إلا في اللمس وحده . وقد جمع طه حسين ذلك كله حين وصف صوت هذه الصبية بأنه « رخص » .. وحين جعل صوتها مرادفاً لآيات الفن الموسيقى الأوربي التي لا تُلذ الأذن وحدها — شأن موسيقى الطرب السطحي — بل تستثير عن طريق الأذن لذات متعددة الجوانب والمجالات : « تلذ كل ما في الإنسان من ملكات الحس والشعور والتفكير ! »

ومن هذا التمهيد الموسيقى لوصف المرأة وجمال وقعها في الوجدان المرهف تنتقل إلى نماذج المرأة الجديدة في جيل المتصديات .. نعرض نمطاً منها في اثر نمط كما صورها طه حسين في أدبه . متقللاً بتلك النماذج المتباينة في تصديها للحياة بين ريف مصر وحواضرها ..

● المستهينة ●

تدفعها ضراوة بدنها وأعصابها إلى انكار كل قيد من قيود العرف الموروثة ، لا عن استهانة بهذه القيمة في نفسها وفي المجتمع جميعاً ، مسوقة بسطوة حيويتها القاهرة لها ، فإذا بها قد أَلقت « برقع الحياء » سافرة عن طبيعتها الماجنة المتحدية ، لا تقيم وزناً لآداب بيتها ، ساخرة بما يمكن أن يكون من رأى الناس في شخصها وسيرتها . وحسبها من دنياها أن تمتهن قيم الجماعة المصونة ، مبتذلة في ذلك نفسها وسمعتها ..

ومرة أخرى نجد ذلك التصوير السمعي البارع عند طه حسين لوقع تلك المرأة على وجدانه اليقظ اللماح :

« وكان صوتها يحتفظ كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهر .. ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من كان في الدار مكاناً ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المجون . حتى إذا

فرغت من ضحككتها جرت الهواء الى جوفها جرا هو أشبه بالشهيق المثير .. ! »

وما أن تنطبع هذه الصورة السمعية في الوجدان حتى تغنيك عن كل علم آخر بكنه هذا النوع من النساء . فقد تختلف معالم الوجه وقسمات البدن بين ماجة وماجة . وقد تخفق لمحة العين وإشارة الطرف وإثشاء الجسد في ترك طابع الماجة في نفس هذا الانسان أو ذاك . ولكن هذه الصورة السمعية تظل تتردد في ذاكرتك ما عشت ، وخیالك ينطلق في اثر هذه الذبذبات الهوائية الجارية راسما لك أقسى ما يتصوره وجدانك الخاص من سمات المرأة اللعوب المثيرة لحواس الرجال ، المقلقة لحواس النساء ، الداعية بكيانها كله الى الاستهتار بقواعد الحرمات ، حتى كأنها حباله الشيطان قائمة لا يهدأ لها وسواس ..

وبعد هذا التعميم الذى يصلح نمطا أعلى للمرأة اللعوب ينتقل طه حسين الفنان الروائى الى التخصيص فتعرف منه ان : « اسمها زنوبة » .. وكان تاريخها حافلا بالخطوب والأحداث . كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة . وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يقدون على المدينة فى فصل الشتاء ليشغلوا فى معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء لهوا كثيرا ومالا كثيرا وصوتا بعيدا ، حتى اذا تولى عنها الشباب آثرت ظاهرا من القصد ، وتكلفت شيئا من الاعتدال ، وأسدت على مجونها ودعابتها ستارا رقيقا تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ الى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يتفنون ..

« ثم بحثت وبحثت حتى اختارت لنفسها رجلا من الخفراء غريبا عن المدينة وفد اليها منذ حين ، قوى البنية طويلا ضخما مخيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيء الخلق ، مدخول الضمير ، فأتخذته « زنوبة » لنفسها زوجا أو خليلا . وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتكرها الأخلاق وينكرها الدين .. »

● الجامعة ●

وليست الاستهانة بقيم النفس وقيم العرف انسياقا لضراوة البدن والأعصاب النوع الوحيد من جموح النساء المتصديات للحياة ، فقد تجمع المرأة متصدية للحياة من غير أن تكون مستهينة بما فيها من قيم ، وانما هي مسلوكة المقاومة أمام الاغراء مساقاة بدافع من رغبة وجدانها وفطرتها مع شيء غير قليل من الأسى لما كلفتها هذه الفطرة من الجموح والخروج على الأوضاع ..

وهي مع ذلك لا تملك أن ترد نفسها عن انسياقها ذاك الى قيود العرف التي لا تنكرها وان ضاقت بها شهوة الحياة المركبة في طبعها ، فهي موزعة النفس بين الجموح والخوف ، بين الانسياق والوجل . لا تنهأ بما اندفعت اليه مشوقة مسوقة ، ولا يحول الوجل بينها وبين المتعة والاطمئنان .. وهذه هي هنادى ..

تحملها أمها على الرحيل عن المدينة التي زلت فيها منساقة لاغراء الشباب والجمال والترف عاملة في بيت ذلك المهندس القاهري الشاب الثرى . ولكن هنادى لا تحب الرحيل ولا تحن الى الغرب . وانما تحن الى هذا الشرق الذي تركت قلبها فيه . هنالك في ذلك البيت الجميل الذي تحيط به هذه الحديقة الواسعة .. ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذي يسمونه الباشمهندس .. في هذا البيت تركت قلبها ، وهي من أجل ذلك ذاهلة ذهولا متصلا . وهي من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو ترد علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال ..

ولا يتركك طه حسين في حيرة من أمر هذا الذهول ، ولا يتركك تذهب الى الظن بأن هذه الصبية من بنات الصعيد الأقصى ذاهلة عن السؤال والجواب جميعا بما استشعرته نفسها من الندم على زلتها ، كما كان ينبغي أن يكون شعورها لو تقدم بها الزمن الى جيل أمها ..

بل يسرع طه حسين الى تقى ذلك تقيا باتا حاسما على لسان أختها سعاد فيما تروييه من أمر هنادى :

« كنت أحسبها محزونة لما تورطت فيه من خطيئة .. ولكنى بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسي تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التى تنظر وراءها فترى حبا مضيعا ، وتنظر أمامها فترى خوفا مروعا ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها الى حيث الحب وما يمكن أن يستتبع ذلك الحب من نعيم أو بؤس ، ومن سعادة أو شقاء .. »

ثم لا يترك طه حسين مرة أخرى تظن للحياء تلك الحرمة لدى الفتاة التى زلت زلتها الكبرى ، ولا لدى أختها التى كانت حرة أن تنقم عليها زلتها تلك وما جرت على الأسرة من بلاء وعار ..

« ولكن هنادى تدفع الى أمام . تدفع الى حيث الخوف والروع ، والى حيث اليأس والقنوط ، تدفع فتدفع .. لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئا ينم على مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتحو حظها من الشخصية والارادة محوا .. هذه القوة التى يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان .. »

أرأيت الى العرف والى الحياء والى الحرمات كيف تضيق بها لا هنادى فقط بل أختها الصغرى سعاد أيضا وقد رأت من زلة أختها ما رأت ؟

ان دل ذلك على شيء فعلى ان كراهة الحياء وحرمات العرف حين تقف حائلا دون رغبات النفس المتوثبة للحياة شيء مشاع فى جيل المرأة الجديد ، فقبل جيل كانت بشاعة الزلة لا تترك من النفس مكانا الا للاستفظاع والندم والارتياح ، أما الآن فثمة شيء أولى بالرعاية والايثار . هذا الشيء هو الحب ومناعه . وفى سبيله يتبدل البغيض غير بغيض ، والفظيع غير فظيع . وتلك علامة الزمن وتبدل الحال من جيل الى جيل فى بيئة العرف والحرمات من صعيد مصر ، التى لا تعدلها سمة أو آية ..

ولذا نرى سعاد بعد ذلك تقول فى صراحة ووضوح :

« أنا أكذب على أختى فأزين لها ما أكره ، وهى لا تكذب على أحد . ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وانما أسلمت نفسها للقضاء ... »

واستيقنت ان خير ما فى حياتها قد انقضى منذ تركت المدينة .. فهى لا تسمع لى ولا تفهم غنى ، وانما هى مشغولة بما تركت من حب .. تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذى أحبه .. « وهكذا تكون هنادى نمط الفتاة الجامحة فى بيئة العرف والحرمان والحياء .. يتوزعها الخوف من العقاب ، وهى فى الوقت نفسه لا تؤمن بخطئها وتتمنى لو خلى بينها وبين ما تورطت فيه تستزيد منه . الا ان هذا التمنى لا يصل الى حد الاستهانة بقيود ذلك العرف وسطوته . فهى تنقاد مسلوبة الارادة الى حيث تعلم ان مصيرا مرا ينتظرها » وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات مخيفة مروعة .. أما هذه التى تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازا . وأما هذه التى تسمى مارتا فقد شق صدرها شقا . وأما هذه التى تسمى ملزمة فقد يقال انها دفنت حية ولقيت حتفها مخنقة فى التراب . وتتساءل هنادى ما الذى ينتظرنى من ألوان الموت هذه ؟ ! » .. وبهذا ينطوى أمر الجامحة ..

● المعتدة ●

أجل ينطوى أمر الجامحة ولا يكاد ينطوى ! .. ينطوى أمر الجامحة هنادى ، حين يطويها الموت صريعة بيد خالها البدوى الذى يمثل فيه عرف ذلك المجتمع الموروث . ولكن الجيل الذى أنبتها جامحة لا يذهب بمأساتها ومصيرها مذهب الفناء والتلاشى ، وانما هو يعد من أثر هذا المصير وينشره نثرا فى صورة أخرى معدة له ، ليست صورة « زنوبة » المستهينة المأجنة ، وليست صورة هنادى الجامحة المنهزمة مغلوبة على أمرها ، ولكنها صورة سعاد أخت هنادى فى الرمز الفكرى والاجتماعى وقرينة جيلها ويئتها لا أختها فى واقع الحياة فحسب ..

فسعاد تأبى الرضوخ لقيود ذلك المجتمع الغاشمة القاهرة كما تمردت عليها المستهينة والجامحة من قبل ، ولكنها لا تستهين ولا تجمع ، ولا يكون تمردا على تلك القيود الموروثة انصياعا لنداء البدن وانسياقا وراء الفوارة والاغراء ، بل اعتدادا بشأن كيانها وسريرتها المستقلة

المتعالية على ارباب العرف الجائر وعلى سطوة الاغراء القاهر ..
 فهي تأبى أن تجعل توجيه مصيرها الى تلك القيود التي تلغى الشخصية
 والارادة الغاء ، ولا الى تلك النوازع الحسية التي تحقق الكرامة محقا .
 وبذلك الاعتداد يخرج من جيل المرأة الجديد هذا « الحد القوام » الذى
 لا يسف ولا يجمع ويأبى أن يتذل نفسه بالخضوع أو الانسياق مع التيار
 وهو نمط فى المرأة يقف على قدم المساواة مع نمط الرجل الحر الذى
 يكرم على نفسه فيأبى أن يتذلها لنير الرهبة أو سلطان الرغبة ، وانما
 هو يجعل زمام أمره بيد ارادته ليختار مصيره عن بينة وعلى الوجه الذى
 يحقق به وجوده تحقيقا فرديا مستقلا لا يخضع لشيوع الجماعة ولا
 لشيوع النوع ..

وليس معنى هذا ان « سعاد » المعتدة بنفسها خرجت للحياة من بطن
 أمها على تلك الصورة ابتداء . وانما هى كانت كسائر بنات بيئتها ثم
 وعت من درس أختها ما وعت . فاذا هى ترق لأختها فى محنتها وتحقق على
 ارباب المجتمع متمثلا فى صورة خالها ، وتحقق أيضا على سطوة النوازع
 القاسية الساطية متمثلة فى صورة ذلك المهندس الشاب ، ثم مستكفة
 لنفسها أن تكون ضحية ضعيفة مسحوقة بين شقى هذه الرحى ..

فالمعتدة اذن أنشئ غير ناقصة الأنوثة ، ففيها طبيعة الفراشة التى
 تستهويها النار ، ولكنها تجمع بين هذه الطبيعة ووعى الانسان البصير
 المرید الفعال لما يريد ، مستعينة على ذلك بما ركب فى طبع المرأة من قدرة
 على المناورة والمداورة والمكر النافذ الى غاياته بفطرة لا تحتاج الى جهد
 ولا الى تعليم ..

حتى اذا بلغت هذه المعتدة المتصدية لاطفاء النار غايتها من استخدام
 المكر والحيلة ، وهما سلاح المرأة الأكبر فى مواجهة الارهاب والاغراء معا ،
 استطاعت أن تفل بمكرها وارادتها حديد هذا المغوى ، متمكنة من نفسها
 مع ان الحب قد تمكن منها ، ولكن الحب عندها على خلاف الشهوة عند
 غيرها ، عاطفة تسمو بها النفس ولا تبتذل أمامها الكرامة .. وهكذا ثبت

المعتدة ميلاد النمط القويم من المرأة الجديدة المتصدية للحياة ..

● المترفة ●

ويبقى بعد ذلك من المرأة نمط لا يخرج على العرف الجائر رغبة في الحياة وتصديا لاثبات وجوده وممارسة حقه ، بل هو يترفع بشفافية نفسه فوق الأوضاع الأرضية المألوفة ، لما يجده في دخيلته من زهد فيها وتعفف عنها ، فيوشك ألا يكون لهذا النوع من النساء المترفات عن أوضاع الواقع والعرف مكان في دنيا الناس ..

وتلك هي « خديجة » التي أهدت نفسها الى الموت اشارة على نمط من الحياة لا ترتضيه سريرتها الشفافة وان ارتضاه العرف والأخلاق ووجده سائر الناس كريما مرغوبا ..

« وفتيان القرية يتحدثون عن جمال « خديجة » الفاتن ويسرون في أنفسهم حبا « لخديجة » واعجابا بها وطمعا فيها ، والأمانى تلعب بعقولهم كل ملعب وتسلك بقلوبهم كل سبيل ، ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود اليها مع المساء وتغل على الأسرة خيرا كثيرا ..

« والفتى قوى موفور الصحة عظيم النشاط جميل المنظر منطلق اللسان .. وأسرة « خديجة » تسمع أول الأمر ولا تصدق . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد في هذه الخطبة روحا من الله سيتيح لها رخاء بعد شدة وسعة بعد ضيق ؟ .. وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم في نفس « خديجة » ، فهي تمتنع على هذا الزواج وتلح في الامتناع حتى تثير الريبة في نفس أبويها .. فما ينبغي أن تصر على هذا الالباء الا أن تكون قد قصرت في نفسها وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق .. « وتفزع أمها وتلجأ الى سيدة « خديجة » فلا تزال بالفتاة قلائنها حيناً وتخاشنها حيناً آخر حتى تختلس منها الرضا اختلاسا ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود من حياتها كأحسن ما تهيا الفتيات لمثل هذا اليوم « وفي الليل « ليلة الزفاف » كانت أمها قد انفكأت على وجهها أمام

بيتها الحقيير تريد أن تبكى. فلا تجد الدموع خوفا مما ستكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على ابنتها .. ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات البنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبيات قد نصبوا شيئا يشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق . وامرأة وقاح تهز أم « خديجة » هزا عنيفا وتزجرها زجرا مخيفا وصول لها في صوت يسمعه الناس : « أفيق .. لقد بيضت خديجة وجهك ووجه زوجك » ..

« وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ويقبل النهار من غد ، ولكن « خديجة » لا تبدو للزائرات الا مكرهة على ذلك اكراها ، تسمع منهن كل شيء ولا تقول لهن شيئا ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد الى امسك الدموع سبيلا ، ويسألنها ما خطبها ؟ .. ومتى رأى الناس فتاة يملا قلبها الحزن في مثل هذا اليوم ؟ .. ولا يجدن عندها جوابا ، أو قل ان الجواب مستقر في نفسها ولكنها لا تستطيع أن تبديه ..

« وتعجب النساء ففى كل هذا وفي بعض هذا ما يريب ، ولكنهن رأين الراية القانية ترفع في ظلمة الليل وبين خفقان المصاييح ! ..

« وتمضى الأيام وقد فقد وجهها الصبوح غير قليل من جماله وبهجته .. وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيد موقعها في القلوب حسنا ، وصوتها الرخص العذب الصافي المتلىء جرت فيه نعمة حزينة متكسرة نجعله أسرع نفوذا الى القلب .. وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغضبون .. الى أن ينطلق الفجر ذات يوم .. !

« وفي هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعداري من أهل القرية ساعات الى النهر متغنيات جمال الحياة ثم يعدن الى القرية صامتات وقد أخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئا فشيئا وأخذن يتهاون لاحتمال انتقال الحياة ما غمرت الشمس قرنتهن بنورها ..

« وافتقدت « خديجة » حين تقدم النهار قليلا فلم توجد . وانما

وجدت على شاطئ النهر وفي مكان بعيد من حيث تعود النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة الى جانبها بعض الحلى . والتمست « خديجة » في النهر فلم يظفر بها الباحثون ..

فما خطب هذه المنتحرة التي لم يدنس عرضها ؟ .. ولماذا أهدت الموت الى نفسها وكل ما في الحياة جدير أن يحب اليها حياتها ؟ ..

يقول طه حسين على لسان سيدة « خديجة » السابقة التي تعرف سرها ونجواها : « لقد أكرهت « خديجة » اكرهاها على الزواج ، ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دنس ، لم يستطع الحب الزوجي أن يفصله ففصله الموت ! » ..

وبهذه المترفعة على طبيبات الحياة ومناعمها بنمط فريد نادر من الحرية الباطنة للمرأة ، وهي حرية الوجدان وحرية البدن الذي يأنف أن يبيع ذاته عن غير رغبة خالصة ، ولكن استخدام هذه الحرية لا يبيحه مجتمع ورث القيود عن الماضي السحيق ويسىء الظن بمن تمتع مثلها على شدة فقرها وتأبى خاطبا ثريا شابا جميلا قويا وتنسبها الى التفريط في عرضها أو الانشغال بهوى ، وفي هذه الظنون من العار على أهلها ما يهون في جانبه الموت ..

فهي اما أن تشتري سمعة أبويها وشرفهما ببذل بدنهما ووجدانها الجريح عن غير رغبة يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ، واما أن تضيق بهذا الابتذال الجارح لحياتها الداخلى - وان كان صائنا لحياتها الخارجى الاجتماعى - فتختار أهون الشرئين على نفسها وأخف الألمين .. تختار موتا يريحها بعد أن أبرأت ذمتها وتفت العار عن صفحة أسرتها ..

نمط عال من آعاط الحرية الأنثوية ، ما كانت لتكتمل نماذج المرأة الجديدة المتصدية للحياة بغيره . وبهذا النمط يكون أدب طه حسين قد جمع صور المتصديات للحياة فأوعى ، وأحاطت بصيرته النفاذة بهذا التطور الاجتماعى الذى مس المرأة المصرية أشد مما مس غيرها في ذلك التغير الحاسم بين أواخر القرن التاسع عشر وأبان قرنتنا هذا العشرين ..

فهرس

صفحة

٥	: محمود تيمور	تحية الى طه حسين
٨	: عبد الرحمن صدقي	عميد الادب ومعجزة الايام
٣٣	: د . سهير القلماوى	استاذى طه حسين
٤٣	: انور الجندى	صفحات مجهولة من حياة طه حسين
٦٣	: د . عبد الحميد يونس	طه حسين بين الضمير الغائب والضمير المتكلم
٧١	: ابراهيم الابيارى	طه حسين المؤرخ الاسلامى
٩٨	: جورجيو ديلافيدا	طه حسين المؤرخ
٦٠٧	: د . شكرى عياد	طه حسين والثقافة اليونانية
١١٢	: د . ريمون فرنسيس	طه حسين والادب الفرنسى
١٢٢	: محمود أمين العالم	طه حسين مفكرا
١٣٧	: كامل زهيرى	المنهج الفكرى عند طه حسين
١٥٥	: د . شوقى ضيف	طه حسين والدراسات الادبية
١٦٣	: فرانثيسكو جابريللى	طه حسين الناقد
٦٨١	: د . أحمد كمال زكى	فى الشعر الجاهلى : نظرة أم نظرية ؟
٦٩٠	: رجاء النقاش	طه حسين والاحزاب السياسية
٢١٤	: صوفى عبد الله	المرأة . . فى أدب طه حسين

طبع بقطاع
مؤسسة دار الهلال

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

